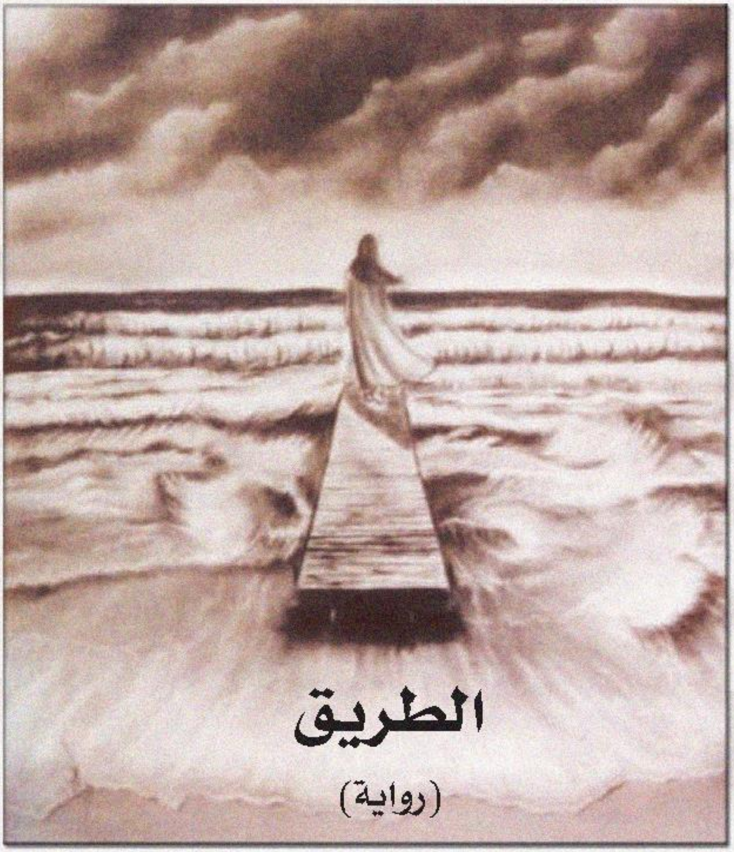
380

إبداعات عالمية

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت



الطريق

(رواية)

تـــألـــيـــف: كورماك مكارثي

ترجمـــة وتقـديم: أ.د. محمد علي فرغل

مـــراجـــعـــة: د. أحمد البكري

أكتوبر 2009

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

الطريق

(رواية)

تــــألــــيــــف: كورماك مكارثي

ترجمــة وتقــديم: أ. د. محمد علي فرغل

مــــراجــــعــــة: د. أحمد البكري

العدد 380 أكتوبر 2009

إبداعات عالمية

تصدر كل شهرين عن
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

www.kuwaitculture.org
:E.Mail
ebdaat_alamia@yahoo.com

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	**500** فلس
الدول العربية الأخرى	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	دولاران أمريكيان

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	**10**د.ك
للمؤسسات	**20** د.ك

دول الخليج

للأفراد	**12**د.ك
للمؤسسات	**24** د.ك

الدول العربية الأخرى

للأفراد	**25**دولارا أمريكيا
للمؤسسات	**50**دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	**50**دولارا أمريكيا
للمؤسسات	**100**دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:
السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب: *28623* - الصفاة - الرمز البريدي*13147*
دولة الكويت

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٠٣٥
ردمك: ٣-٢٩١-٠-٩٩٩٠٦

• الطريق
(رواية)

العنوان الأصلي:

The Road
Cormac McCarthy
2006

الطبعة الأولى – الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2009م

إبداعات عالمية - العدد 380

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1923 - 1990)

white

المقدمة

كورماك مكارثي، كاتب مسرحي وروائي أمريكي معاصر يعيش الآن في ولاية نيو مكسيكو الأمريكية مع زوجته وابنه، ولد في مدينة بروفيدنس عاصمة ولاية رود أيلند في الولايات المتحدة الأمريكية في العشرين من شهر يوليو سنة ١٩٣٣. ألف مكارثي في مسيرته الأدبية عشر روايات وعددا من الأعمال المسرحية، وقد شق كثير من أعماله الأدبية طريقه إلى الصناعة السينمائية، بما فيها رواية «الطريق» التي بين أيدينا والتي يُعكف على إنتاجها سينمائيا حاليا، وستكون جاهزة للعرض مع نهاية العام ٢٠٠٩. حصل مكارثي على كثير من الجوائز المرموقة على الساحة الأدبية الأمريكية، ويعتبره بعض النقاد من أعظم الروائيين المعاصرين، ويقارنه بعضهم بالروائي الأمريكي الشهير وليام فوكنر.

وتعتبر رواية «الطريق» التي نُشرت سنة ٢٠٠٦ من أحدث أعماله وقد فازت بجائزة بليتزر The Pulitzer Prize (Columbia University) في العام ٢٠٠٩. وتنتمي رواية «الطريق» إلى أحد الأنماط الفرعية لما يسمى بأدب الخيال العلمي. ويعنى هذا الفرع الضيق Post-apocalyptic Fiction بالتحديد بوصف الحياة البدائية التي تعقب تعرض كوكب الأرض لكارثة ما تودي بمعظم أشكال الحياة

عليه. وقد تطور هذا النمط الضيق من فرع أوسع مجالا Apocalyptic Fiction، وهو يعنى بالتنبؤ بوقوع الكارثة (نهاية الكون) نتيجة حرب نووية أو انتشار أحد الأوبئة أو أي سبب آخر، وتعود أصول هذا النوع من الخيال إلى القصص البابلية والتوراتية القديمة مثل قصة نجاة النبي نوح وهلاك قومه وما إلى ذلك. وقد اكتسب هذا النمط الأدبي شهرة كبيرة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وظهور الأسلحة النووية التي شكلت أرضا خصبة لمثل هذه الكتابات.

تبدأ رواية «الطريق» بوصف لمشهد الحياة البدائية الذي ساد بعد حدوث الكارثة التي لم يشأ الراوي أن يخبرنا عن ماهيتها أو زمن حدوثها. لنرصد هذا المشهد الرمادي الكئيب الذي تضعه الرواية أمامنا وجها لوجه في افتتاحيتها «عندما كان يصحو من نومه في الغاب وفي برد الليل اعتاد أن يمد يده لتلمس الطفل الذي ينام إلى جانبه. كانت الليالي دامسة الظلمة وكل يوم أكثر رمادية من الذي سبقه. كان المشهد أشبه ما يكون ببداية رؤية ضبابية باردة تلف الكون بالعتمة». في وسط هذا المشهد الكارثي ينطلق الأب وابنه الصغير - وقد نجوا من الموت في عالم لا تفوح فيه إلا رائحة الموت والدمار - في رحلة بحث عن الطعام للبقاء على قيد الحياة، حياة جعل وجود الصبي البحث عنها ضرورة حتمية بالنسبة إلى والده في صراعه مع فكرة إفناء الذات، وهي الطريق التي سلكتها

زوجتـه التي لم تـزل تظهر له في منامـه لتقنعه بعدم جدوى الاستمرار.

إنهـا رواية لشـخصيتين فـي معظمها، الأب وابنـه اليافع، تسـرد بشـكل متأن حابس للأنفاس الأهوال التـي مرّا بها في عالم (شكلت الولايات المتحدة مسرحه) فقد الزرع والضرع، ولم ينـج مـن الكارثة التي حلت به وقضت علـى الأخضر واليابس سـوى عدد قليل من الناس الذين تحول جلهم إلى مجموعات من قطّاع الطرق واللصوص الذين يتنقلون من مكان إلى آخر بحثـا عن الغـذاء الذي شـكل اللحم البشـري معظمه. وعلى الرغم من انتشـار الشـر والأشرار تشـبث بعض الناس الأخيار بإنسـانيتهم وانطلقـوا في عمليـة بحث محمومـة ومحفوفة بالمخاطر عن الطعام، يتخبطون بين الحطام والقمامة والجثث المتفحمـة، ويلجون السـراديب والدهاليز في سـعي حثيث عن أي شيء يمكن أن يسد رمقهم. لقد شاهد الأب وابنه كثيرا من الأهوال في أثناء رحلتهم نحو الجنوب (أو ربما نحو المجهول)، ولكنهمـا تمكنـا فـي كل مرة من النجـاة والعثور علـى الطعام الـذي يكفيهما للبقاء على قيد الحيـاة، على الرغم من أنهما أشرفا على الهلاك في كثير من الأحيان نتيجة قلة الطعام أو نتيجـة مصادفتهما مجموعات اللصـوص وقطاع الطرق. كان الأب شـديد البـأس لا يرحـم إذا مـا حلّ الخطر الـذي أوصله إلى القيام بالقتل أحيانا، وكان الصبي مشدوها رقيقا لا يريد

العنف وإراقة الدماء في أي حال من الأحوال.

توقف الراوي في أثناء رحلة الأب وابنه في وصفه الأحداث والأماكن التي مرّا بها عند أدق التفاصيل في فن السرد، حيث أطلع القارئ على جزئيات قلما يلتفت إليها كتاب الرواية. شاهد كيف يتوقف في خضم مواجهة وحوار مطول بين الأب ولص قُتل في نهاية المجابهة ليصف لنا هيئة اللص الذي كان يهم بقضاء حاجة في الغاب «تقدم إلى الأمام ماسكا حزامه بيد واحدة. كانت الثقوب في الحزام تشير إلى درجة هزاله وقد بدا الجلد على أحد الجوانب لامعا، حيث اعتاد أن يشحذ شفرة مديته. نزل في الجرف ونظر إلى المسدس وإلى الصبي. كانت عيونه محاطة بالسواد وغائرة في العمق، مثل حيوان داخل جمجمة ينظر من ثقوب العينين. كانت لديه لحية قُصت على شكل مربع من الأسفل، وكان على عنقه وشم لطائر رُسم بطريقة غير متقنة. كان نحيلا وخائر القوى ويرتدي مئزرا أزرق متسخا وقبعة سوداء مزينة بشعار على مقدمتها لشركة تجارية كانت قد اندثرت». وانظر أيضا كيف يقف عند أدق التفاصيل في وصفه للمناظر الفظيعة التي شاهداها «مرت الأيام من دون حساب ومن دون أن تندرج تحت أي تقويم. بدت على امتداد الطرق بين الولايات عن بعد صفوف طويلة لسيارات اسودت وأصابها الصدأ. استقرت إطارات العجلات المعدنية العارية في وحل رمادي جاف من المطاط الذائب في

حلقات مسودة من الأسلاك. تقلصت الجثث المحترقة حتى صارت في حجم الأطفال على الأسلاك المشدودة للمقاعد العارية وقد دفنت في أفئدتها الثكلى عشرات الآلاف من الأحلام».

وفي خضم الموت والأهوال والخراب تبرز العلاقة الإنسانية الحميمة بين الأب وابنه، علاقة يرى فيها الأب أن لبّ دوره في الحياة يتمثل في حماية ورعاية ابنه بغض النظر عن الظروف، وفي إيثاره لابنه على نفسه حتى في مسألة الموت، فهو من فكر في ترك المكان الذي يختبئان فيه من قطّاع الطرق الذين يقتربون من المكان والتضحية بنفسه بالجري أمامهم ليبعد أنظارهم عن الصبي لولا استجداء الصبي له بعدم تركه وحيدا، وهو من يحرص على سد رمق الصبي بأي شيء يجده تاركا نفسه يتضور جوعا. في المقابل كان الصبي ملتزما بتوجيهات أبيه ومناقشا لها في بعض الأحيان، وبدا مشدوها من انتشار الشر وغياب الخير ومرعوبا من المناظر الفظيعة التي شاهدها على الرغم من حرص والده على إبعاده عن رؤيتها. لقد أظهر الصبي قدرة هائلة على التأقلم مع الظروف القاسية التي كانا يعيشانها، وأظهر مهارة عالية في التناغم مع أسلوب الخطاب والتفكير عند والده. فقد واكب الالتصاق الجسدي للطفل بوالده في أثناء الرحلة نحو الجنوب توافق في الأحاسيس والكلمات، ولم يفترقا إلا في أمر واحد وهو اللجوء إلى العنف

أو القتــل عند الخطر الداهم. لقد مثَّــل الصبي الروح النابذة للعنف والمحبة للمساعدة في أقسى الظروف. انظر كيف يصر الصبي على مســاعدة اللص الذي سرق متاعهما قبل أن ينالا منه فيما بعد في هذا الحوار:

- ماذا تريد أن تفعل؟

- أريد مساعدته يا أبي، ليس إلا. مساعدته فقط.

نظر الرجل خلفه إلى أعلى الطريق.

- كان جائعا فقط يا أبي. من المؤكد أنه سيموت.

- سيموت على أي حال.

- كان مرعوبا جدا يا أبي.

قرفــص الرجــل ونظــر إليه. قــال: إنني مرعــوب. هل تفهم ذلك؟ إنني مرعوب.

لم يرد الصبي. جلس في المكان خافضا رأسه منتحبا، ليس إلا.

- أنت لست الشخص الذي ينبغي أن يقلق على كل شيء.

قال الصبي شيئا لكنه لم يفهمه. ماذا؟ سأله.

نظــر إلى أعلى وقد ابتلّ وجهه واتســخ. قــال: نعم، أنا ذلك الشخص. إنني ذلك الشخص.

لقــد كان الصبــي حقا ذلك الشــخص الــذي يقلق على كل شــيء، فهــو مــن أراد أن يبحــث عن صبــي لمحه جاريــا في أحد الأماكــن وظل يســأل والــده عنه طوال الوقت، وهــو من أراد أن

يساعد الرجل العجوز الذي صادفاه مصعوقا يحتضر في الطريق، وهو من أراد أن يقتسم قوتهما مع رجل عجوز آخر مرا به في الطريق ورأى أن يصطحبه معهما، وغير ذلك من الأمثلة الكثيرة.

وتطرح رواية «الطريق» بعض القضايا المهمة بما فيها قضية الحياة والموت وقضية الخير والشر. في القضية الأولى نستخلص من الرواية قيمة الحياة البشرية في مقابل الموت بغض النظر عن الظروف القاسية التي تحيط بها. فالحفاظ على الحياة والنأي عن إفناء الذات قيمة إنسانية راقية في حد ذاتها، حتى لو تحول سعي الإنسان فقط إلى إشباع بعض الحاجات النفسية والفسيولوجية البسيطة في ظل حياة بدائية نجمت عن كارثة أصابت الكون، كما تصورها هذه الرواية، بمنأى عن الحاجات النفسية والاجتماعية المتشابكة والمعقدة في المجتمعات البشرية الطبيعية. وفي القضية الثانية تطرح الرواية الخير والشر على أنهما صفتان مغروستان في النفس البشرية بغض النظر عن الظروف التي تعيشها المجتمعات الإنسانية. والسؤال الذي يطرح نفسه هو: لمن الغلبة في النهاية، للخير أم للشر؟ لقد عرضت الرواية عالما جلّ من بقي فيه تحولوا إلى لصوص وقطّاع طرق يقتاتون على لحوم فرائسهم من إخوانهم في الإنسانية. وفي المقابل تتبعت رحلة أب وابنه يتمسكان بالقيم الإنسانية على الرغم

من مرورهما بأقسى الظروف. وأراد كورماك مكارثي أن ينهي روايته ببصيص من الأمل يعطي الغلبة للخير على الشر إذ قدّر للصبي أن يقابل مباشرة رجلا من الأخيار بعد وفاة والده الذي كان يعاني سعالا شديدا طوال الرحلة.

وأخيرا لا بد من كلمة حول الأسلوب الذي اتبعه كورماك مكارثي في هذه الرواية الذي يمكن وصفه بالسهل الممتنع. لقد أظهر مكارثي مهارته وبراعته في فن السرد في مستويين مختلفين من حيث الشكل والمحتوى. في المستوى الأول حلق في غياهب الغريب والعجيب في معجمه اللغوي للوصول إلى وصف دقيق ومتقن لكل ما صادفه الأب وابنه في رحلتهما الشاقة من أجل البقاء. وفي المستوى الثاني نزل بمعجمه اللغوي إلى أبسط التعبيرات المألوفة في المشاهد الحوارية بين الأب وابنه. لقد استطاع أن يزاوج الغريب بالمألوف من اللغة بأسلوب يتصف بالروعة والإقناع. وربما يستذكر القارئ العربي لهذه الرواية أسلوب السرد الشعبي المألوف والمستحسن في قصة «ألف ليلة وليلة» عندما ينبري الراوي في «الطريق» بسرد الأحداث المتلاحقة في مشهد متحرك ما. و«الطريق» رواية لن يستطيع القارئ أن يتوقف عن قراءتها بمجرد أن يبدأها، ولا بد له أن يستسلم للبكاء أو أن يذرف دمعة على الأقل عندما يقترب من نهايتها.

أ. د. محمد فرغل

الطريق

white

عندما كان يصحو من نومه في الغاب وفي برد الليل اعتاد أن يمد يده لتلمس الطفل الذي ينام إلى جانبه. كانت الليالي دامسة الظلمة، وكل يوم أكثر رمادية من الذي سبقه. كان المشهد أشبه ما يكون ببداية رؤية ضبابية باردة تلف الكون بالعتمة. كانت يده تعلو وتهبط بنعومة مع كل زفرة نفيسة. نفض عن نفسه قماش المشمع وانتصب في ردائه وغطائه العفنين رانيا نحو المشرق لعله يرى نورا دون جدوى. لقد أفاق لفوره من حلم كان يتجول فيه في كهف حيث كان الطفل يقوده بيده. كان نورهما يدغدغ الجدران الصخرية المائلة والمبتلة. بدوا أشبه بحجيج في رواية ابتُلعوا وفقدوا في غياهب وحش من الصوان. انساب الصخر العميق حيث تقطر المياه وتشدو، مؤذنة في عالم الصمت دقائق الأرض وساعاتها وأيامها وسنيها من دون كلل قبل أن تتوقف في غرفة صخرية ضخمة حيث توجد بحيرة سوداء موغلة في القدم. وعلى الشاطئ البعيد أطل مخلوق يرفع فاه الذي يقطر من البركة الصخرية محدقا في النور بعيون شاحبة البياض عديمة البصر كبيض العناكب. خفض رأسه من فوق الماء كأنه يريد أن يشم ما لم يستطع رؤيته. بدا شاحبا عاريا شفافا يعكس ظل هيكله المرمري على الصخور خلفه. بانت أحشاؤه وقلبه النابض. استقر دماغه النابض في جرس زجاجي رتيب. هز رأسه من جهة إلى أخرى، ثم أطلق تأوها خفيضا واستدار مترنحا ومتبخترا بهدوء في الظلمة.

نهض مع أول خيوط ضوء الصباح وترك الصبي نائما واتجه نحو الطريق حيث جلس القرفصاء متمعنا في الأراضي الممتدة جنوبا التي بدت قاحلة وصامتة وموحشة. تصور أنه في شهر

أكتوبــر لكنه لم يكن متأكدا. لم يقتنِ تقويما منذ ســنوات خلت. كانا متجهــين جنوبا. لن يكون بمقدرهما البقاء على قيد الحياة لفصل شتاء آخر هنا.

عندما أصبح نور النهار كافيا لاســتخدام المنظار جال ببصره من خلاله عبر الوادي في الأسفل. بدا كل شيء شاحبا في الغسق، والرماد الناعم يتطاير في زوابع عشــوائية فوق القمة الســوداء. تمعن ببصره في كل ما كان يستطيع رؤيته، باحثا عن أي شيء له لون أو أي حركة أو أي أثر لدخان منبعث. خفض العدسات وأزاح القنــاع القطني عن وجهه ومســح أنفه بظهــر معصمه، ثم جال ببصره في الأراضي مرة أخرى عبر المنظار. بعد ذلك جلس وهو يحمــل المنظار ويراقب ضوء النهــار الرمادي يتجمد فوق الثرى. كان يعرف شيئا واحدا: أن الطفل هو من يكمن وراء نجاته.

عندما عاد كان الصبي لم يزل نائما. نزع المشــمع الأزرق عن نفســه وطواه، ثم أخذه إلى عربة المتاع حيــث وضعه في مكانه وعاد بالأطباق وبعض حلوى الذرة في كيس بلاســتيكي وقارورة من العصير. فرش المشــمع الصغير الذي يســتخدمانه كطاولة علــى الأرض ووضع الأشــياء عليــه ونزع المســدس من حزامه ووضعــه على قطعة القماش ثم جلس يراقب الصبي النائم، لقد نــزع الصبي قناعــه أثناء الليل حيث دُفن القنــاع بين الأغطية. راقب الصبي ورنا إلى الخارج بين الأشجار نحو الطريق. لم يكن ذاك المــكان أمينا. فمن الممكن رؤيتهما من الطريق الآن إذا طلع النهــار. تقلب الصبي تحت الأغطية، ثم فتح عينيه ونطق قائلا: مرحبا يا أبي.

- أنا موجود هنا.

- أعرف ذلك.

بعد ساعة كانا في الطريق. كان يدفع العربة وكان هو والصبي يحمـــلان حقائب الظهر التي احتوت علـــى الحاجات الضرورية ربما يضطران للتخلـــي عن العربة. لقد ثبت على مقبض العربة مـــرآة دراجة نارية مصنوعة من الكروم كان يســـتخدمها لمراقبة الطريـــق من خلفه. رفع الحقيبة إلى أعلى على كتفيه وتمعن في الأرض الخراب. كانت الطريق خالية. وفي الأســـفل في الوادي الصغيـــر بدا النهر المتعرج الذي لم يـــزل رماديا، بلا حراك في مكانه. وعلى طول الشـــاطئ امتدت ســـيقان النباتات الميتة. هل أنت علـــى ما يرام؟ أومأ الصبي بالإيجـــاب. ثم انطلقا بمحاذاة القمة السوداء في الضوء البرونزي، يشقان طريقهما عبر الرماد، كل منهما يشكل عالم الآخر برمته.

اجتـــازا النهر عن طريق جســـر أســـمنتي عتيـــق وبعد عدة أميـــال وجدا محطـــة للتزود بالوقود على جانـــب الطريق. وقفا في الطريـــق وتفحصا المحطة. قال الرجل إنه ينبغي إلقاء نظرة عليها والتحقق منها. ســـقطت الحشـــائش التي علقت بهما على الأرض من حولهما. عبرا الساحة الأسفلتية المصدعة وعثرا على الخزان الـــذي يزود المضخات. لم يكن الغطـــاء موجودا، انحنى الرجـــل على مرفقيه ليشـــم الأنبوب لكن رائحـــة البنزين كانت مجرد حلم، باهتة عفنة. انتصب وتفحص المبنى. من المســـتغرب أن المضخـــات بأنابيبهـــا لم تزل في أماكنهـــا والنوافذ لم تمس. كان البـــاب المؤدي إلى الجزء المخصـــص للخدمة مفتوحا فدخل

إلى هناك. اســتقر صندوق معدني للمعدات على الحائط. بحث فــي الأدراج لكنه لم يجد شــيئا يمكن اســتخدامه. كانت هناك بعض المقابس الجيدة وأحد التــروس. وقف ينظر حول المرآب. رأى برميلا معدنيا معبأ بالقمامة. دخل إلى المكتب حيث انتشــر الغبــار والرماد فــي كل مكان. وقف الصبي عنــد الباب. كانت هناك منضدة معدنية وســجل للحســاب وبعض النشرات حول الســيارات، منتفخة ومشبعة بالماء. انتشــرت البقع والتجاعيد على الفرش الأرضي بسبب تســرب الماء من السطح. ذهب إلى المنضــدة ووقف هناك، ثم رفع الهاتف واتصل برقم منزل والده. كان الصبي يراقبه. بادره سائلا: ماذا تفعل؟

بعد ربع ميل من الســير في الطريق توقف ونظر إلى الوراء. قال: نحن لا نفكر جيدا. لابد أن نعود. دفع العربة خارج الطريق وأزاحها إلى مكان لا يمكن رؤيتها فيه، ثم تركا متاعهما وعادا إلى محطــة الوقود. في المكان المخصص للخدمة جر برميل القمامة المصنوع من الفولاذ وقلبه وأخرج كل علب الزيت البلاســتيكية. ثم جلس على الأرض وفرغها من بقايا الزيت واحدة تلو الأخرى، تــاركا إياها مقلوبة على عقبها في أحد القدور حتى حصلا في النهايــة على ما يقارب نصف كيلو من زيت المحرك. أغلق العلبة البلاســتيكية ومســحها بقطعة قماش بالية وقــاس ثقلها بيده. حصلا على زيت لســراجهما الصغير ليضيء الشــفق والغسق الطويلــين والرماديين. قال الصبي: يمكنــك أن تقرأ لي قصة. أليس كذلك، يا أبي؟ أجاب: بلى، أستطيع ذلك.

❖ ❖ ❖

فـــي الجهة البعيــدة من مجرى النهر مـــرت الطريق بمنطقة سـوداء محترقة تمامـا، حيث بدت جذوع الأشـجار المسـودة والعاريــة ممتدة فـــي كل الجهات وقد خيم الغبــار على الطريق وأنَّت الأسـلاك المتدلية من أعمدة الكهرباء المتفحمة بوهن في مهـب الريح. لاح منزل محترق في بقعة خلت من الأشـجار قبل امتداد لمـروج مقفرة رمادية وحاجز طينـي أحمر حديث العهد لورشــة أعمال طرق. وبعد ذلك أطلــت لوحات إعلانات لفنادق صغيرة. كل شـيء كما كان من قبل غير أنه باهت ومكفهر. وقفا في أعلى التل في البرد ومجرى الريح ليلتقطا أنفاسـهما. نظر الأب إلـى الصبي الذي بـادره قائلا: أنا بخير. وضع الرجل يده على كتف الصبي وأشـار إلى الأراضي المنبسـطة في الأسفل. أخـرج المنظار مـن العربة ووقف في الطريق ونظر إلى السـهل المقابل حيث ظهر شـكل لمدينة في الرماد كأنه رسـم عشـوائي لقطعة من الفحم في أرض محترقة. لم ير أي شيء ولم يلاحظ أي أثـر لدخان. قال الصبي: هل يمكنني أن أنظر؟ طبعا يمكنك ذلك. انحنى الصبي على العربة وعدل مقود العربة. سأله: ماذا ترى؟ لا شيء. ثم أنزل المنظار. بدأ المطر بالهطول. أجاب الرجل: نعم، أعرف ذلك.

تركا العربة في أخدود مغطى بالمشـمع وشـقا طريقهما إلى أعلى المنحدر عبر جذوع الأشـجار الواقفـة المتفحمة إلى مكان فيه صخـور بارزة، حيث جلسـا في ظل صخـرة وراقبا حبات المطر الرمادي تنهمر عبر الوادي. كان الطقس باردا جدا. جلسا ملتصقين وكل منهما يلف نفسه ببطانية فوق المعطف. بعد برهة

توقف المطر ولم يبق سوى تقطر حبات المطر في الغابات. عندما أصبـــح الجو صحوا نزلا إلى العربـــة وأزاحا الغطاء عنها وأخذا البطانيات والأشياء التي ســـيحتاجانها لقضاء تلك الليلة. عادا إلى أعلى التل ونشـــرا فراشهما على الثرى الذي لم يصبه المطر في ظل الصخـــور وجلس الرجل لافا ذراعيـــه حول الصبي في محاولة لإعطائه بعض الدفء. كانا في داخل بطانياتهما يراقبان الظلمة الغريبة الآتية لتلفهما. اختفى شـــكل المدينة الرمادي مع بدء الظلام كأنه مجرد شـــبح. أشـــعل الرجل الســـراج الصغير وأبعده عن مجرى الريح. ثم مشيا إلى الطريق ممسكا بيد الصبي إلـــى قمة التل حيـــث بلغ الطريق ذروته وحيث يســـتطيعان رؤية الأراضـــي المعتمة جنوبا، واقفين هناك في مهب الريح، ملتحفين بطانياتهما، يبحثان عن أي إشـــارة تنبئ بوجود نار أو سراج. لم يكن هناك أي شـــيء من ذلك. كان الســـراج في سفح التل تحت الصخور يلفظ أنفاسه الأخيرة وبعد برهة عادا إلى ذلك المكان. لم يتمكنا من إيقاد النار حيث ابتل كل شـــيء من حولهما. تناولا وجبتهما المتواضعة باردة وأويا إلى الفراش والسراج يتوسطهما. لقد أحضر كتاب الصبي لكن الإرهاق منع الصبي من الاســـتماع إلى القراءة. قال الصبي: هل من الممكن أن نبقي الســـراج حتى أنام؟ طبعا، يمكننا ذلك.

حاول الابـــن النوم لمدة طويلة. بعد برهة اســـتدار ونظر إلى الرجـــل. كان وجهه في الضـــوء الخافت مخططا بالســـواد من المطر كممثل مســـرحي من زمن الكـــون الغابر. قال: هل يمكنني أن أسألك شيئا؟

- طبعا، يمكنك ذلك.
- هل سنموت؟
- يوما ما. ليس الآن.
- ومازلنا متجهين جنوبا.
- نعم.
- لذا سنكون أكثر دفئا.
- نعم.
- حسنا.
- حسنا ماذا؟
- لا شيء. حسنا، ليس إلا.
- سوف أخلد للنوم.
- حسنا.
- سأطفئ السراج. هل يناسبك ذلك؟
- نعم. لا بأس.
- وفيما بعد في الظلمة: هل يمكنني أن أسألك شيئا؟
- طبعا، يمكنك ذلك.
- ماذا ستفعل لو متُ؟
- لو متَ لرغبت في الموت أيضا.
- لكي تبقى معي؟
- نعم. لكي أبقى معك.
- حسنا.

اضطجع الرجل وهو يصغي للماء يتساقط في الغاب في عالم من الصخر الصلد والبرد والصمت ورماد الكون الهالك

الذي تحمله الريح القارسة والمتقلبة جيئة وذهابا في هذا الفراغ، تحمله إلى الأمام وتبعثره ثم تجمعه وتحمله إلى الأمام من جديد. انفصل كل شيء عن سنده وبقي غير مسنود في عالم من الرماد. كان سبب بقائه بعض من نفس مرتجف وقصير. آه لو أن قلبي من الصخر!

أفاق قبيل الفجر مع انبلاج النهار الرمادي، انبلاجا متثاقلا وشبه معتم. نهض والصبي لم يزل نائما. ارتدى حذاءه وتمشى بين الأشجار وهو يلف نفسه ببطانية. نزل إلى تجويف في الصخر وجلس وظل يسعل ويسعل فترة طويلة. ثم ركع في الرماد. رفع وجهه نحو النهار الشاحب. همس: يا إلهي. يا إلهي.

مرا عبر المدينة ظهيرة اليوم التالي. أبقى المسدس في متناول اليد على المشمع المطوي على العربة. أبقى الصبي قريبا بجانبه. كانت المدينة محترقة في معظمها، حيث لم يظهر أثر لحياة وقبعت السيارات في الشارع محشوة بالغبار. غطى الرماد والغبار كل شيء. بدت آثار أقدام متحجرة في الوحل وجثة في أحد المداخل وقد جفت تماما. بدا متكدرا من الوضع. جذب الصبي نحوه. قال: تذكر فقط أن الأشياء الموجودة في رأسك تبقى فيه إلى الأبد. لعلك تريد أن تفكر في ذلك.

- ننسى بعض الأشياء، أليس كذلك؟

- بلى. ننسى ما نريد أن نتذكر ونتذكر ما نريد أن ننسى.

كانت هناك بحيرة على بعد ميل من مزرعة عمه حيث

اعتـــاد هو وعمـــه أن يذهبا في الخريف لجمـــع الحطب. اعتاد أن يجلس في مؤخرة قارب التجديف ماســـحا يده والبرد شديد بينما كان عمه ينحني نحو المجاديف. كان الرجل العجوز يرتدي حذاء أســـود مصنوعا من جلد الماعز ومربوطا بشـــكل عمودي، وكانت قبعته مصنوعة من القش. اســـتقر غليونه الثمين في فمه وكان يرشـــح منه لعاب رقيق. اســـتدار ليلقي نظرة إلى الشاطئ البعيد، محركا أذرع المجاديف وقد نزع الغليون من فمه ومســـح ذقنه بظهر يده. امتدت أشـــجار البتولا على طول الشاطئ الذي بدا شـــاحبا في ظلمة الأشـــجار دائمة الخضرة خلفه. اكتســـت حافة البحيرة بحطام من الجذوع الملتوية الميتة بلونها الشـــاحب والأشجار التي طرحتها رياح أحد الأعاصير منذ سنين خلت. لقد جرى تحطيب ونقل هذه الأشـــجار منذ زمن طويل. استدار عمه وغيـــر اتجاه المجاديف حيث انزلق القارب على الرمال ذات المياه الضحلة حتى انغرســـت الرافدة في الرمال. طفت سمكة نافقة على ظهرهـــا في المياه الصافية حيث تظهـــر الأوراق الصفراء. تـــركا أحذيتهما على الألواح الدافئة المصبوغة وجرا القارب إلى الشاطئ وثبتا المرساة على آخر نقطة من الحبل. رأيا وعاء لدهن الخنزير معبأ بالأســـمنت وقد استقر مســـمار في وسطه. سارا على طول الشـــاطئ وعمه يتفحص سيقان وجذور الأشجار وهو ينفخ الدخان من غليونه ويلف حبلا على كتفه. وقع اختياره على أحد الســـيقان فقلبه مستخدما الجذور لتوليد القوة حتى أصبح نصـــف عائم في الماء. رفعا ســـراويلهما حتـــى الركبة لكن البلل أصابهما على أي حال. ثبتا الحبل بمربط في الجزء الخلفي من

القارب وجدفا عائدين عبر البحيرة والساق يترنح ببطء خلفهما. لقد حل الظلام ولم يبق سوى الألم المتقطع البطيء وحركة أقفال المجاديف وسطح البحيرة المعتم وأنوار النوافذ الآتية على امتداد الشاطئ. سمعا صوت مذياع في مكان ما. لم ينبس أي منهما ببنت شفة. كان هذا هو اليوم المثالي في طفولته. هذا اليوم الذي سيشكل أيامه المقبلة.

❖ ❖ ❖

ظلا متجهين جنوبا أياما وأسابيع تلت. وحيدين مرهقين. أراض جبلية قاحلة. بيوت مصنوعة من الألمونيوم. من حين إلى آخر كانا يريان أجزاء من الطريق الرئيسية التي تربط الولايات عبر مواقع عارية من بقايا أشجار الأخشاب. البرد والزمهرير. وقريبا من أعلى الفجوة العالية في الجبال وقفا يشاهدان الخليج المهيب المتجه نحو الجنوب حيث الأراضي المحروقة على مد البصر وأشكال الصخور المسودة تطل من بين أكوام الرماد، وأمواج الرماد ترتفع عاليا وتهب لتهبط عبر الحطام. تحرك ضوء الشمس الخافت واحتجب خلف الضباب.

ظلا أياما يخوضان في الأرض المحروقة. وجد الصبي بعض أقلام التلوين ورسم قناعا لوجهه محلى بالأنياب وظل يمشي مرهقا من دون تذمر. اختل توازن إحدى العجلات الأمامية للعربة. ما الذي يمكن فعله؟ لا شيء. حيث احترق كل شيء أمامهما إلى درجة الرماد، كان من غير الممكن إيقاد النار، وكانت الليالي طويلة مظلمة والبرد في أقسى درجاته،

بـــرد يفلق الصخر ويودي بالحيـــاة. ضم الصبي المرتجف إليه وأحصى كل زفرة واهنة في العتمة.

❖ ❖ ❖

أفاق على صوت الرعد البعيد واعتدل جالسا. ارتعش الضوء الخافت الآتي من العدم في كل مكان وانكسر عبر هبوط الرماد المتطاير. لف نفســه والصبي بالمشــمع وتمدد مســتيقظا وهو يصغــي ويفكر لمدة طويلة. إذا ما تعرضـــا للبلل فلن يكون هناك مجال لتجفيف نفســيهما بجانب النار. إذا ما تعرضا للبلل ربما سيهلكان.

كانـــت العتمـــة التي كان يفيق فيها في تلـــك الليالي عمياء لا يمكن اختراقها، عتمة تؤذي أذنيك عند الإصغاء. غالبا كان عليه أن يصحـــو في تلـــك الليالي حيث لا صوت ســـوى صوت الريح العارية والأشجار المتفحمة. نهض ووقف مترنحا في تلك الظلمة البـــاردة الموحشـــة وذراعاه في الهواء يبحثان عـــن التوازن بينما الحســـابات الدهليزية في جمجمته تتخبـــط في تقديراتها، في تاريخ موغل في القدم بحثا عن الاستقامة. لا بد لكل سقطة أن يســـبقها انحدار. تقدم خطوات عظيمة في العدم محصيا إياها نحـــو عودته، بعينـــين مغمضتين وذراعين ســـابحتين في الهواء. الاســـتقامة لماذا؟ لشيء من دون اسم في الظلمة، قناة أو دهليز، قمره يجمعه هو والنجوم، كبندول ضخم في قاعة مستديرة يرسم حركات النهار الطويلة للكون التي يمكن القول إنه لا يعرف شيئا عنها أو أنه يعرفها بحكم الضرورة.

❖ ❖ ❖

عبـرا الأراضـي الرمادية المحترقة في نحـو يومين. توغلت الطريق إلى الأعلى على طول قمة السـفح حيث امتدت أراضي الغابات العارية في كل اتجاه. قال الصبي: الثلج يتسـاقط. نظر إلى السماء. هبطت حبة ثلج رمادية أمسكها بيده وراقبها تختفي كما اختفى آخر جيش للإمبراطورية الرومانية.

استمرا في السير والمشمع يلفهما وحبات الثلج الرطبة تتلوى وتتسـاقط من العدم. انتشـر الثلج الرمادي الذائب على جانبي الطريق وجرى الماء الأسود من تحت أكوام الرماد العفنة. لم تعد هناك نيران شـؤم على السـفوح البعيدة. اعتقد أن كريات الدم قد اسـتهلك بعضها بعضا. لم يطرق أحد هذه الطريق من قبل حيث لا أثر لقطاع طرق ولا للصوص. بعد برهة وصلا إلى مرآب على جانب الطريق فوقفا في بابه المفتوح وراقبا الجليد الرمادي ينهمر من الأراضي المرتفعة.

جمعا بعض الصناديق القديمة وأوقدا نارا على الأرض. وجد الرجـل بعض المعدات وأفرغ العربـة وانبرى يصلح العجلة. أزاح الغطاء ونزع الطـوق المعدني بثاقب يدوي. نشـر ذراعا جديدة للطوق من ماسـورة وجدها، ثم ثبّت كل شـيء في مكانه ونصب العربة وسـاقها في محيط دائري حيث دارت بشـكل جيد. وقد جلس الصبي يراقب كل شيء عن كثب.

تابعا السـير في الصباح عبر الأراضـي المحطمة. رأيا جلد خنزير بري أشعث معلقا على باب إحدى الحظائر، مع بقايا لذيل. ظهرت في داخل الحظيرة ثلاثة أجسـام معلقة من العارضة في السقف، جافة ومغبرة بين الشـرائح الباهتة. قال الصبي: ربما

يوجد شـــيء هنا. ربما يوجد بعض الذرة أو أي شـــيء آخر. رد الرجل: لنذهب من هنا.

تركز قلقهما حول وضع نعالهما، وكذلك الطعام، الطعام دائما. وجدا في مبنـــى قديم لتدخين اللحوم فخـــذا من لحم الخنزير معلقـــة عاليا في إحدى الزوايا. بدا كأن أحدا أحضرها من أحد القبـــور، إذ كانت جافة ومشـــدودة إلى حد بعيـــد. جعل يقطعها بســـكين، فكشـــف عن لحم أحمر مالح في الداخل، نضر وجيد. قامـــا بقليه تلك الليلة على النار حيث تركا الشـــرائح الســـميكة تنضـــج بهدوء مع علبة من الفاصوليا. فيما بعد أفاق في الظلمة وتصور أنه ســـمع طبـــولا تقرع في مكان ما فـــي التلال المظلمة الخفيضة. ثم تغير مجرى الرياح وخيم الصمت المطبق.

❖ ❖ ❖

في الأحلام جاءته عروســـه الشـــاحبة مـــن مهدها الأخضر المورق. كانت أضلاعها مصبوغـــة بالأبيض وقد ارتدت ثوبا من الشـــاش وحملت شعرها الداكن بأمشاط من العاج وأمشاط من الأصداف. أطلت بابتسامتها ونظرت بعينيها الرانيتين إلى أسفل. فـــي الصباح كان الثلج يتســـاقط وقد امتـــدت خيوط من حبات الجليد الصغيرة على طول الأسلاك الكهربائية في الأعلى.

لم يثق بكل ذلك. قال لنفســـه إن الأحلام المناســـبة لرجل في خطـــر لا بد أن يلفها الخطر وكل ما عدا ذلك يكون نذيرا للوهن والموت، ليس إلا. كان قليل النوم، قلقا في منامه. رأى أنه يتجول في غابة مزهرة حيـــث ترفرف الطيور من حولهما هو والصبي، والســـماء تنوء بزرقتها، لكنه تعلم كيـــف يصحو من تلك العوالم

الأسطورية. وهو راقد هناك في العتمة بمذاق غريب لحبة دراق سقطت من أشجار خيالية تلاشت في فمه. اعتقد أنه لو عاش بما فيه الكفاية فإن الكون بأسره أخيرا سيؤول إلى الضياع، مثل الكون الهالك الآهل والعامر بالعميان الجدد الذي اختفى برمته ببطء من الذاكرة.

لم يصح البتة من أحلام اليقظة في الطريق حيث تهادى بمشيته. تمكن من استرجاع كل شيء عنها ما عدا عبيرها. جلس في المسرح بجانبها منحنيا إلى الأمام وهو يستمع للموسيقى. بدت الزخارف الذهبية وحاملات المصابيح الجدارية والثنيات العمودية الطويلة للستائر على جانبي المسرح. ضمت يده في حضنها وأمكنه تلمس جرابها الطويل من تحت ردائها الصيفي الرقيق. كفى! لتأتي الظلمة والبرد الآن. اللعنة!

صنع واقيات من خرقتين قديمتين وجدهما وربطها بالعربة لحماية الأطراف من الطريق أمام العجلات ووضع الصبي في الصندوق ووقف على العارضة الخلفية ككلب متحفز، ثم أخذا في النزول وهما يشقان طريقا للعربة عبر الانحناءات وهما في وضعية رياضة التزلج. وكانت أول مرة يرى فيها الصبي يبتسم منذ زمن طويل.

في قمة التل ظهر انعطاف ثم اعتدال في الطريق. كان دربا قديما شق طريقه عبر الغابات. ارتجلا وجلسا على مقعد وجعلا ينظران إلى الأراضي الرمادية الممتدة التي لفها الضباب. أطلت بحيرة من هناك، باردة وشاحبة وثقيلة في التجويف النظيف من المناطق الريفية.

- ماذا يوجد هناك، يا أبي؟
- إنه أحد السدود.
- ما الغرض منه؟
- لتكوين البحيرة. قبل أن يقيموا السد كان ذلك مجرد نهر. يُستخدم الماء الذي يجري في السد لإدارة المراوح الضخمة التي تسمى توربينات لتوليد الكهرباء.
- لصنع النور؟
- نعم، لصنع النور.
- هل يمكننا النزول إلى هناك لرؤية ذلك؟
- أظن ذلك غير ممكن لبعد المسافة.
- هل سيبقى السد هناك فترة طويلة؟
- أعتقد ذلك. إنه مصنوع من الأسمنت. ربما سيبقى مئات السنين، إن لم يكن الآلاف منها.
- هل تعتقد أنه يوجد سمك في البحيرة.
- لا. لا يوجد شيء في البحيرة.

قبل مدة طويلة شاهد في مكان ما قريب جدا من هنا صقرا ينزل من سفح الجبل الطويل الأزرق وينقض بصدره القوي على طائر وسط سرب من طيور الكركي ويأخذه إلى النهر في الأسفل بحالة مزرية تاركا خلفه ريشه المتطاير يتهادى في هواء الخريف الساكن.

لم يغادر مذاق الهواء المزعج فاه أبدا. وقفا في المطر كالبهائم التي تُربى في المزارع. ثم تابعا سيرهما وهما يلفان نفسيهما بالمشمع في المطر الخفيف الممل. كانت أقدامهما مبتلة

باردة ونعالهما تلفظ أنفاسها الأخيرة. بدت على جوانب الجبال محاصيل قديمة ميتة سـويت بالأرض ولاحت الأشـجار العارية على سلسلة الجبال فجة وسوداء في المطر.

كانت الأحلام غنية بالألوان إلى حد بعيد. بأي وسـيلة أخرى سيناديك الموت؟ في أثناء التجول في الفجر القارس البرد تحول كل شـيء إلى رماد في لحظات، كلوحـات قديمة مصنوعة من الجص دفنت قرونا قبل أن تتعرض فجأة لضوء النهار.

ازداد الجـو بردا ووصلا أخيرا إلـى أراضي النهر المنخفضة الفسيحة في الوادي حيث لاحت آثار الأراضي الزراعية المدمرة وبدا كل شـيء ميتا بلا حراك علـى امتداد الأراضي المنخفضة القاحلة. واصلا دفعهما للعربة على طول الطريق الأسفلتية وقد أطلت بيوت الألواح الخشبية العالية بسقوفها المعدنية المتعرجة. وبدت هناك حظيرة للأخشـاب في أحـد الحقول بلوحة إعلان تـروج لمدينة «روك» السـياحية وقد كتبت بأحـرف كبيرة باهتة وعلقت عرضيا تحت منحنى السقف.

تحول السياج على جانبي الطريق إلى صفوف من نبات العليق الأسـود المتشـابك حيث لا أثر للحياة. ترك الرجل الصبي في الطريق حاملا المسـدس وصعد علـى درج حجري ومضى عبر الردهة لبيت ريفي مظللا عينيـه ومتلصصا من خلال النوافذ. دخل إلـى المطبخ حيث انتشـرت القمامة علـى الأرض وبعض الصحف القديمة. بدت الأواني في الخزانة والأقداح تتدلى من مقابضها. نزل عبر الممر ووقف في الباب المؤدي إلى الشـرفة. بـدا أرغن قديم في الزاوية وجهاز تلفاز وأثاث مصنوع من مواد

رخيصة وخزانة ملابس قديمة مصنوعة من خشب أشجار الكرز. صعد الدرج ودخل إلى غرف النوم حيث غطى الرماد كل شيء. بدت حجرة أطفال فيها لعبة على هيئة كلب استقرت على حافة النافذة وهي تنظر إلى الحديقة. فتش الخزائن الموجودة. نفض الغبار عن الأسرَّة وخرج ببطانيتين جيدتين من الصوف ونزل الدرج. وجد في خزانة المؤن ثلاث علب بندورة مغلفة. نفض الغبار عن أغطيتها وتفحصها. تصور أنها لم ترق لشخص ما من قبل، لذا قرر تركها وخرج بالبطانيتين على كتفه ثم تابعا مسيرهما في الطريق.

في ضواحي المدينة وصلا إلى سوبر ماركت حيث جثمت بضع سيارات في الموقف المثقل بالغبار. تركا العربة في الموقف وتجولا في الممرات المتسخة. وجدا في الجزء المخصص للخضار والفاكهة في القاع بعض الفاصوليا القديمة وشيئا ما ربما كان حبات من المشمش جفت وتحولت إلى تماثيل منذ زمن غابر. تبعه الصبي وخرجا من الباب الخلفي. استقرت في الممر خلف المتجر بضع عربات للتسوق تعرضت لصدأ شديد. عبرا المتجر من جديد باحثين عن عربات أخرى لكنهما لم يجدا شيئا. كان بجانب الباب آلتان للمشروبات الخفيفة أُميلتا فوق الأرضية وفتحتا بعتلة. انتشرت النقود المعدنية في كل مكان في الرماد. جلس وأدخل يده في الأجزاء الداخلية للآلتين، وفي الآلة الثانية قبضت يده على أسطوانة معدنية باردة. سحب يده ببطء وجلس ينظر إلى علبة كوكاكولا.

– ما هذا يا أبي؟

- هدية من أجلك.
- ما هي؟
- هنا اجلس.

فــك رباط الحقيبــة عن ظهر الصبــي ووضعها على الأرض خلفه، ثم ضغط وإبهامه تحت مشبك الألومنيوم في أعلى العلبة وفتحها. مال بأنفه نحو الســائل الفائــر الخفيف المتصاعد من العلبة ثم ناولها الصبي وقال له: اشرب.

أخذ الصبي العلبة. قال: إنها ترغي.

- اشرب.

نظــر إلى والده ثم أمال العلبة وشــرب. جلــس هناك يتأمل فيها، قال: إنها جيدة حقا.

- نعم، إنها كذلك.
- تريد بعضا منها يا أبي؟
- أريدك أنت أن تشربها.
- خذ رشفة منها.

أخذ العلبة ورشف منها ثم ناولها الصبي. قال: اشربها.

- لنجلس هنا.
- هذا لأنني لن أشرب واحدة مرة أخرى أبدا، أليس كذلك؟
- كلمة «أبدا» تشي بوقت طويل.
- حسنا، قال الصبي.

بحلول الشفق في اليوم التالي كانا في المدينة. بدت الامتدادات الأسمنتية الطويلة للتقاطعات عبر الولايات المختلفة كأنها بقايا حطــام ملهى ضخم في ظل العتمة البعيدة. حمل المســدس في

الجزء الأمامي من حزامه وارتدى السترة من دون أن يزرها. الجثث الموميائية منتشرة في كل مكان، وقد التصق اللحم على امتداد العظم وجفت العروق لتصبح مشدودة ومضغوطة كالأسلاك. بدت ذابلة ومسحوبة كأنها شبح عصري، والوجوه ملاءات مغلية وقد اصفرت أوتاد الأضراس. كانوا حفاة كحجيج من نوع ما فقدوا نعالهم منذ زمن بعيد.

تابعا المسير. ظل يراقب الأمور من خلفه باستمرار عبر المرآة. الشيء الوحيد الذي كان يتحرك في الشوارع هو الرماد المتطاير. عبرا الجسر الأسمنتي العالي فوق النهر حيث لاح رصيف للتحميل في الأسفل، وكانت قوارب التنزه الصغيرة مغمورة إلى وسطها في المياه الرمادية، وبدت الأكوام العالية في النهر معتمة في الرماد.

في اليوم التالي صادفا على بعد بضعة أميال نحو جنوب المدينة عند منعطف في الطريق وهما يكادان يختفيان تقريبا في نبات العليق الميت حولهما، صادفا منزلا خشبيا قديما بمداخن جدران مائلة وجدار حجري. توقف الرجل، ثم تابع السير إلى المدخل.

- ما هذا المكان يا أبي؟

- إنه المكان الذي ترعرعت فيه.

وقف الصبي وهو ينظر إلى المنزل. نُزعت معظم الألواح الخشبية من الحوائط المنخفضة واستخدمت كحطب وبقيت القوائم المواد العازلة مكشوفة. انتشرت البقايا المتعفنة من الشرفة الخلفية على المصطبة الأسمنتية.

- هل سندخل؟

- لِمَ لا؟

- أنا خائف.

- ألا تريد أن ترى أين كنت أعيش؟

- لا.

- ستكون الأمور على ما يرام.

- ربما يعيش أحد هنا.

- لا أظن ذلك.

- لكن لنفرض أن هناك شخصا ما.

وقف رانيا إلى جدران حجرته القديمة. نظر إلى الصبي.

- أتريد الانتظار هنا؟

- لا. أنت دائما تقول ذلك.

- أنا آسف.

- أعرف هذا. لكنك تفعل ذلك.

❖ ❖ ❖

نزعا حقائب الظهر وتركاها على المصطبة وشقا طريقهما وسط القمامة على الشرفة واندفعا إلى داخل المطبخ. كان الصبي ملتصقا بيد أبيه. بدت الأشياء كما كان يتذكرها إلى حد بعيد. كانت الغرف فارغة واستقر في الحجرة الصغيرة المجاورة لقاعة الطعام سرير معدني عار وطاولة معدنية قابلة للطي. لم يزل ملقط الفحم نفسه المصنوع من الحديد الصلب جاثما في المستوقد الصغير. اختفى الإطار المصنوع من خشب الصنوبر عن الجدران تاركا وراءه القشور فقط. وقف هناك

وتلمس بإبهامه خشب المستوقد بمساميره المدهونة التي كانت حوامل للجوارب الطويلة قبل أربعين عاما. «هنا كنا نحتفل بعيد الميلاد عندما كنت صبيا». استدار ونظر إلى الحطام في الحديقة، حيث ظهرت كتلة متشابكة ميتة من زهرة الليلك وبقايا سياج. «كنا في ليالي الشتاء الباردة عندما كانت تنقطع الكهرباء بسبب إحدى العواصف نجلس حول النار هنا، أنا وإخوتي، لأداء واجباتنا المدرسية». كان الصبي يراقبه. تراءت له أشكال غشت وجه والده لم يتمكن من رؤيتها. قال: ينبغي أن نذهب من هنا يا أبي. نعم، قال الرجل. لكنه لم يفعل.

عبرا إلى قاعة الطعام حيث كان القرميد في المستوقد بصفرة النهار الذي بني فيه إذ لم تشأ والدته أن تراه مسودا. بدت الأرضية وقد تجعدت بسبب ماء المطر. وجدا في غرفة المعيشة عظام حيوان صغير مفككة وموضوعة في كومة. ربما كانت بقايا قطة. استقر قدح زجاجي بجانب الباب. تمسك الصبي بيد أبيه. صعدا الدرج ثم استدارا وعبرا الممر حيث تبعثرت بعض لفات الشاش المبتل على الأرضية وانكشفت الألواح الخشبية في السقف. وقف في باب غرفته إذ ظهر فراغ صغير بين السقف والجدران. «كنت أنام هنا وكان سريري مقابل هذا الجدار». استذكر الآلاف من ليالي الأحلام، أحلام من خيال طفل، عوالم غنية أو مرعبة بدت على طبيعتها لكنها لم تصور أبدا الآتي من الأيام. فتح باب الخزانة متوقعا إلى حد ما أن يجد أشياء تعود إلى أيام طفولته. نزل برد النهار القارس من السطح، رماديا كفؤاده.

- ينبغي أن نذهب من هنا يا أبي. هل يمكننا الذهاب؟
- نعم. يمكننا الذهاب.
- أنا خائف.
- أعرف ذلك. أنا آسف.
- إني خائف حقا.
- حسنا. ما كان ينبغي أن نأتي إلى هنا.

بعد ثلاث ليال في التلال المنخفضة من الجبال الشرقية أفاق في الظلمة ليسمع شيئا يتقدم. كان مضطجعا ويداه على جانبيه. اهتزت الأرض. الشيء قادم نحوهما.

- أبي، أبي. نطق الصبي.
- اهدأ. كل شيء على ما يرام.
- ما هذا يا أبي؟

اقترب ذلك الشيء وعلا ضجيجه. اهتز كل شيء. ثم مر من تحتهما مثل قطار في الأنفاق ومضى مختفيا في الظلمة. التصق الصبي بوالده وهو يبكي ورأسه مدفون في صدره.

- اهدأ. كل شيء على ما يرام.
- أنا خائف جدا.
- أعرف ذلك. الأمور جيدة الآن. لقد مضى في طريقه.
- ما الذي حدث يا أبي؟
- هزة أرضية. لقد انتهت الآن. نحن بخير. اهدأ.

في السنوات الخوالي كانت الطرق تعج باللاجئين القابعين بملابسهم الرثة وهم يرتدون الأقنعة والنظارات ويجلسون على قارعة الطريق مثل ناجين من كارثة جوية وعرباتهم مملوءة

بمتاعهم الرديء. كانوا يجرون العربات وعيونهم تلمع في جماجمهم مشكلين كتلا بشرية لا عقيدة لها، تترنح في الطرقات كمهاجرين من بلاد ضربتها الحمى. بدا وهن كل شيء في النهاية وآلت أمور قديمة ومزعجة إلى العدم والظلمة. أخذ آخر الأشياء المجموعة كلها معه وأطفئ النور ومضى إلى غير رجعة. انظر حولك. تعد كلمة «أبدا» وقتا طويلا. لقد عرف الصبي ما عرف. إن «أبدا» ليست وقتا على الإطلاق.

جلس عند العصر بجانب نافذة رمادية في الضوء الرمادي في بيت مهجور وقرأ جرائد قديمة والصبي نائم. لاحظ الأخبار المثيرة وانتابته المخاوف الغريبة. في الثامنة صباحا تتكمش زهرة الربيع. رنا إلى الصبي النائم. هل تستطيع فعل ذلك؟ متى سيحين الوقت؟ هل لك أن ...؟

جلسا القرفصاء في الطريق وتناولا الأرز البارد والفاصوليا الباردة التي طبخاها قبل عدة أيام. كان الطعام قد بدأ يتخمر. لم يجدا مكانا لإيقاد النار في منأى عن العيون. ناما ملتصقين تحت الدثار النتن في الظلمة والبرد. ضم الصبي إليه. لقد هزل كثيرا. قال الصبي: قلبي، قلبي. لكنه كان يعرف أنه لو كان أبا جيدا حتى الآن ربما كان الوضع كما قالت أمه: إن الصبي كان هو الشيء الوحيد الذي وقف بينه وبين الموت.

كان الوقت متأخرا من السنة ووجد صعوبة بالغة في تمييز ذلك الشهر. اعتقد أن لديهما طعاما كافيا للوصول إلى الجبال لكنه كان من الصعب التأكد من ذلك. كان الممر عند الحاجز المائي على ارتفاع خمسة آلاف قدم وسيكون الجو باردا جدا.

قال إن كل شـــيء يعتمد على الوصول إلى الشاطئ، غير أنه كان يعلم عند الإفاقة بالليل أن ذلك مجرد سراب ولا يتفق مع العقل. فهنـــاك احتمال كبير بأنهما ســـيموتان في الجبال وينتهي الأمر عند ذلك.

عبـــرا بقايـــا حطام أحـــد المنتجعات واتجها جنوبـــا. امتدت الغابات المحروقة أميالا على طول المنحدرات وتساقط الثلج في وقت أبكر مما كانا يتوقعان. لم يظهر أي أثر لعابر في الطريق ولا لأي شيء يعيش هناك. بدت الصخور المستديرة المكسوة بالسواد كأشـــكال دببة على المنحدرات القليلة الأشجار. وقف على جسر حجـــري حيث الميـــاه تتدفق في بركة وتتحـــول تدريجيا إلى زبد رمادي. ذلك هو المكان الذي كان يشـــاهد فيه أسماك السلمون المرقطـــة وهي تتمايل في التيار في ســـباق مع ظلالها الواضحة على الصخور من تحتها. تابعا مســـيرهما، وكان الصبي يمشـــي مجهـــدا وهو يتكئ على العربة وينحنـــي تدريجيا إلى أعلى عبر الطـــرق الجبـــلية. لم تزل هناك بعض الحرائق مشتعلة في أعلى الجبال، وفي الليل كان يمكنهما رؤية نورها البرتقالي الغامق عند هبـــوط الرماد على الأرض. كان الجو يزداد بـــردا لكنهما أوقدا النار في مربضهما طوال الليل وتركاها مشـــتعلة خلفهما عندما رحلا في الصباح. لقد لفا أقدامهما بأكياس وربطاها بالأسلاك. حتـــى الآن تراكم الثلج لبضع بوصات فقـــط لكنه كان يعرف أنه إذا ما زاد ســـمكه بشكل كبير فلا بد أن يتخليا عن العربة. كانت المشكلات قد بدأت وكان عليه التوقف مرارا للراحة. شق طريقه إلى حافة الطريق وقد أدار ظهره للصبي حيث وقف منحنيا ويداه

على ركبتيه وجعل يسعل. انتصب واقفا بعينين دامعتين. ظهر على الثلج الرمادي أمامه رشة رقيقة من الدم.

خيما بجانب صخرة مستديرة وصنعا مأوى من المشمع بأوتاد. أوقـدا نارا وجعـلا يجمعان كومة كبيرة مـن الأغصان تكفيهما طوال الليل. جمعا سجادة من أغصان نبات الشَوكران الميت فوق الثلج وجلسـا ملفوفين في بطانياتهما يراقبان النار ويرتشـفان بقايا علبة الكوكاكولا التي عثرا عليها قبل أسابيع. تساقط الثلج من جديد وتطايرت حباته الناعمة في العتمة. غشـيه النوم في الـدفء الرائع وقد مرَ ظل الصبي مـن فوقه إلى الجهة المقابلة حاملا حزمة من الحطب. راقبه وهو يحرك اللهب. بدا كأنه تنين ناري. تطاير الشرر إلى أعلى وتلاشى في الظلام الحالك. ما كل الكلمات المتلاشـية واقع يتحقق وهذه النعمة ليست أقل واقعية باقتلاعها من جذورها.

أفـاق قبيل الصبـاح وقد تحولت النار إلـى فحم وتوجه إلى الطريـق. أشـرق النور في كل مكان وكأن الشـمس المفقودة قد عـادت أخيرا. بدا الثلـج برتقاليا ولامعا. كانـت إحدى حرائق الغابات تتقدم على امتداد السـفوح المتعطشـة للنيران المحيطة بهمـا، تلتهب وتسـتعر فـي الجو الملبـد بالغيوم مثـل الأضواء الشـمالية. وقف في البرد المتصل فترة طويلة. أثار اللون المخيم حوله شيئا في داخله كان قد نسيه منذ زمن بعيد. تذكر كلماتها: ضع قائمة، ادع ربك، تذكر.

ازداد البرد. لم يتحرك أي شيء في ذلك العالم المرتفع. خيمت رائحة الدخان الشديدة المنبعثة من الأخشاب على الطريق. أخذ

يدفــع العربة قدما عبر الثلوج بضعة أميال كل يوم. لم يكن لديه أدنى فكرة عن المســافة التي تفصلهما عن القمة. اقتصدا كثيرا في مأكلهما وكانا يشــعران بالجوع طوال الوقت. وقف ينظر إلى الأراضي الممتدة حيث بدا نهر بعيد في الأسفل. كم كانت المسافة التي قطعاها؟

رأى فــي منامه أن المرأة كانت مريضــة وكان يعتني بها. بدا الحلــم على هيئة تضحية لكن نظرته كانت مختلفة. لم يعتن بها وقضت وحيدة في مكان ما في الظلمة، حيث لم يوجد حلم آخر، ولا عالم يقظ آخر، ولا رواية أخرى لسردها.

في هــذا الطريق لم يوجد رجال متدينون. لقد ذهبوا وبقيت أنا وأخذوا معهم العالم. ثمة تساؤل: كيف يمكن أن تختلف «أبدا» عما كانت عليه «أبدا»؟

خيَّمــت عتمة القمر المتواري وبدت الليالي أقل ســوادا بعض الشــيء عما كانت. مع طلوع النهار كانت الشــمس المنفية تدور حول الأرض مثل أم ثكلى تحمل شمعة.

كان الناس يجلســون على الرصيف فجــرا محطمين ينفثون أنفاســهم في ملابسهم في مشهد يشــبه محاولة انتحار فاشلة لجماعــة دينية. ثم يأتي الآخرون لمســاعدتهم. في غضون عام استعرت الحرائق على سلسلة الجبال وخيمت الترانيم المشوشة. ســمعت صيحات القتلى. عندما طلع النهــار كان الموتى مثبتين على دعامات على امتداد الطريق. ماذا فعلوا؟ اعتقد أن العقاب ربما كان أكبر من الجريمة في تاريخ هذا العالم لكنه ارتاح قليلا لهذه الفكرة. بدأ الهواء يروق وتصور أن القمة ليست بعيدة. ربما

يصلانها غــدا. جاء الغد وذهب. لم يتســاقط الثلج مرة أخرى لكن كثافته على الطريق كانت قد بلغت ســت بوصات، وكان دفع العربــة إلى أعلى في تلك المنحدرات عملا شــاقا. اعتقد أنهما سيجبران على التخلي عنها. كم من المتاع يستطيعان حمله؟ وقف ورنا نحو المنحدرات العارية بناظريه. كان الرماد يهبط على الثلج حتى حوّله إلى اللون الأسود تماما.

بــدا الممر قريبا عند كل منعطف ولكنــه فيما بعد توقف في إحدى الليالي ونظر في كل الاتجاهات وتأكد منه تماما. فك رقبة السترة وأنزل القبعة ووقف مصغيا. سمع صوت الريح تعبث في أكوام نبات الشَوكران السوداء الميتة. ظهر موقف فارغ للسيارات عــن بعد. وقــف الصبي إلى جانبه حيث كان قــد وقف مرة مع والده في فصل شتاء خلا. سأل الصبي: ماذا هناك يا أبي؟

- إنه الممر الجبلي، لقد وصلنا.

❖ ❖ ❖

تابعا شــق طريقهما في الصباح وكان الجو باردا جدا. قبيل العصر بدأ الثلج يتســاقط مــرة أخرى وخيما مبكــرا إذ جثما مســتظلين بالمشــمع وراقبا الثلج يتســاقط على النــار. بحلول الصباح كانت هناك بضع بوصات من الثلج الجديد على الأرض لكن الثلج توقف وخيم الســكون إلا من سماع دقات قلبيهما. كوّم الحطــب فوق الجمر ونفخ في النار معيدا الحياة إليها، ثم شــق طريقه عبر الانهيــارات الثلجية لإخراج العربة. بحث بين العلب ثم عاد وجلســا بجانب النــار وتناولا آخر ما تبقــى لديهما من البســكويت وعلبة من النقانق. وجــد في مخبأ في حقيبة ظهره

نصف عبوة من الكاكاو فطهاها للصبي ثم سكب لنفسه فنجانا من الماء الساخن وجلس ينفخ فيه.

-لقد وعدت ألا تفعل ذلك، قال الصبي.

- أفعل ماذا؟

- تعرف ماذا، يا أبي.

سكب الماء الساخن في الإناء وأخذ فنجان الصبي وسكب بعض الكاكاو في فنجانه ثم أعاده إليه.

- عليَّ أن أراقبك في كل الأوقات، قال الصبي.

- أعرف ذلك.

- إذا تنصلت من الوعود الصغيرة ستتنصل من الوعود الكبيرة. هذا ما قلته أنت.

- أعرف. لكنني لن أفعل ذلك.

❖ ❖ ❖

شقا طريقهما طوال اليوم من على المنحدر المواجه لجنوب الحاجز المائي. كانت العربة تتوقف عن الاندفاع تماما في الكتل الثلجية العميقة وكان عليه أن يجرها من خلفه بيد واحدة وهو يفتح لها الطريق. كان يستحيل العثور على شيء يستخدمه كمزلاج في المنطقة الجبلية مثل أداة معدنية قديمة أو لوح سقط من سقف ما. ابتلت أغطية أقدامهما بالكامل وعانيا من البرد والبلل طوال اليوم. اتكأ على العربة ليلتقط أنفاسه والصبي ينتظر. سمع انهيارا حادا في مكان ما في الجبل، ثم تلاه آخر. إنه مجرد سقوط لشجرة، قال الصبي. كل شيء على ما يرام، رد الرجل. كل الأشجار في العالم ستسقط عاجلا أم آجلا. لكن ليس علينا.

- كيف لك أن تعرف ذلك؟
- أعرف، ليس إلا.

ومع ذلك صادفا أشـــجارا تعترض الطريق مما كان يدفعهما إلى أن يفرغــا العربة وينقلا المتاع من فوق الجذوع ثم يحملاها من جديد ليضعاها في الجهة المقابلة البعيدة. اكتشــف الصبي ألعابا نسي أنها كانت معه. احتفظ بلعبة لشاحنة وتابعا مسيرهما وقد استقرت اللعبة على المشمع.

خيما في شـــريط أرضي على الجهة القاصية لجدول متجمد على جانب الطريــق. طيّرت الرياح الرماد عن الجليد الأســود وبــدا الجدول كــدرب بازلتي يتعرج عبر الغــاب. جمعا الحطب من الجهة الشــمالية للمنحدر حيث لم تكن الرطوبة عالية جدا هناك. دفعا أشجارا بكاملها وسحباها إلى مخيمهما. أوقدا نارا ونشرا المشمع وعلقا ملابســهما المبتلة على أوتاد لتنفث البخار والنتن وجلسا ملفوفين في دثارهما عاريين والرجل يلصق قدمي الصبي بمعدته ليدفئهما.

كان الصبي يئن عندما اســتيقظ في الليل فاحتضنه الرجل. اهدأ، قال له. اهدأ. كل شيء على ما يرام.

- رأيت حلما سيئا.
- أعرف ذلك.
- هل ينبغي أن أخبرك به؟
- إن أردت ذلك.
- كان لــدي بطريق قمت أنــت بإدارة زنبركــه وكان يتهادى ويضرب زعنفيه. وكنا جميعا في ذلك المنزل الذي كنا نعيش فيه

ووصـــل البطريق إلى الزاوية لكن أحدا لم يدر زنبركه من جديد وكان ذلك مرعبا حقا.

- حسنا.
- كان ذلك أكثر رعبا في الحلم.
- أعرف. يمكن للأحلام أن تكون مرعبة حقا.
- لماذا رأيت ذلك الحلم المرعب؟
- لا أعــرف. لكن الأمــور على ما يرام الآن. ســأضع بعض الحطب على النار. اخلد للنوم الآن.

لم يرد الصبي. ثم قال: الزنبرك لم يكن يعمل.

قضيا أربعة أيام أخــرى لكي يخرجا من منطقة الثلوج ولم تبــق إلا بقع مغطاة بالثلج عند بعــض المنعطفات في الطريق، وكانت الطريق ســوداء مبتلة نتيجة ذوبان الثلوج من الأراضي المرتفعــة واســتمرت كذلك بعض الوقت. خرجــا على امتداد حافة ممر عميق وبعيدا في أســفل العتمة بــدا أحد الأنهار. وقفا مصغيين.

ظهرت جروف الصخور العالية على الجهة القاصية للوادي الضيق ذات الأشــجار الســوداء النحيلة المائلة على الخندق. تلاشــى صــوت النهر، ثم عاد بعد ذلك وهبــت رياح باردة من الأراضــي المنخفضة. قضيــا اليوم كاملا قبــل أن يصلا إلى النهر.

تركا العربــة في مكان للوقوف وتجولا عبر الغاب. ســمعا صوت رعد خفيض آتيا من النهر. كان ذلك شــلالا يندفع من على سطح عال لصخرة ويسقط بعمق ثمانين قدما عبر خيمة

من الضباب إلى داخل البركة في الأسـفل. كان بإمكانهما شم رائحة الماء والشعور بالبرودة الآتية منه. يا إلهي، صاح الصبي. لم تستطع عيناه مفارقة المشهد.

❖ ❖ ❖

قرفص والتقط حفنة من الحصى وشمها ثم تركها، فانسابت من بين يديه لامعة مسـتديرة وملسـاء ككرات بلورية صغيرة أو كـرات حلوى مرقّطة صنعت من الصخر. بدت كأقراص صغيرة سوداء تشـعّ كقطع من الزجاج اللامع نتيجة الرذاذ الصادر من النهر. تمشى الصبي ثم قرفص ولامس المياه الداكنة.

سـقطت مياه الشلال تقريبا في منتصف البركة فدارت المياه برغوة رمادية. وقفا جنبا إلى جنب وهما يصيحان أحدهما على الآخر وسط الضجيج.

- هل المياه باردة؟

- نعم. إنها باردة جدا.

- هل تريد أن تنزل إلى الماء؟

- لا أعرف.

- أنت تعرف بالتأكيد.

- هل يمكننا النزول؟

- لننزل.

فك السـترة وتركها تسـقط على الحصـى وانتصب الصبي وتعريا ونزلا إلى الماء. بدوا شـاحبين كالأشباح ومرتجفين. كان الصبي نحيلا إلى درجة تنبئ بتوقف قلبه. غاص في الماء وصعد لاهثا واستدار وانتصب في الماء، ضاربا ذراعيه.

- هل الماء يغمر رأسي؟ صاح الصبي.
- لا. لنسبح.

استدار وسبح إلى حيث الشلالات، مفسحا المجال للماء الساقط لضرب جسمه. انتصب الصبي في البركة حتى خصره واضعا يديه على كتفيه وهو يقفز إلى أعلى وإلى أسفل. عاد الرجل إليه. أمسكه وجعله يعوم بمساعدته والصبي يلهث ويضرب ذراعيه في الماء. أحسنت صنعا، قال الرجل. أحسنت صنعا.

ارتديا ملابسهما وهما يرتجفان وصعدا في الدرب إلى أعلى النهر. تمشيا على امتداد الصخور إلى حيث يبدو أن النهر ينتهي وأمسك الصبي وغامر بالوصول إلى آخر سلسلة الصخور. انقبض النهر فوق الحافة وسقط بكامله في خط مستقيم إلى البركة في الأسفل. تمسك الصبي بذراع أبيه.

- المسافة بعيدة جدا، قال الصبي.
- إنها بعيدة جدا.
- هل يموت الشخص إذا سقط هنا؟
- سوف يتأذى. إنها مسافة طويلة.
- إنه شيء مرعب جدا.

تجولا في الغاب حيث بدأ النور يتلاشى. سارا في المناطق المستوية على امتداد أعلى النهر من بين الأشجار الضخمة الميتة. كانت غابة جنوبية غنية ضمت يوما ما أعشاب «البودوفلون» و«البيبسوة». وبدت أيضا نباتات «الجنسة»، بأطرافها اليابسة الميتة في شكلها السداسي وقد التوت وتخشنت واسودت. توقف حيث لاحظ شيئا ما في القش والرماد وانحنى وكشف عنه.

بانت مجموعة «الفطر»، منكمشة ويابسة ومجعدة. التقط واحدة منها ورفعها وشمها، ثم قضم قطعة من الطرف ومضغها.

- ما هذا يا أبي؟
- «الفطر»، إنه «الفطر».
- وما الفطر؟
- إنه نبات يصلح للأكل.
- هل يمكن تناوله؟
- نعم. جرب قضمة منه؟
- هل هو طيب؟
- جربه.

شم الصبي حبة الفطر وقضمها وجعل يمضغها. نظر إلى أبيه. إنها طيبة، قال الصبي.

نبشا نباتات الفطر من الأرض بأحجامها الصغيرة وأشكالها الغريبة ثم وضعها الرجل في قبعة سترة الصبي. عادا إلى الطريق إلى حيث تركا العربة وخيما بجانب البركة عند الشلالات. أزالا التراب والرماد عن حبات الفطر ووضعاها في إناء لتنقع بالماء. أوقد نارا عند حلول الظلام وقطّع حفنة من حبات الفطر إلى شرائح على قطعة من الخشب ثم وضعها في مقلاة مضيفا إليها بعض دهن الخنزير من علبة للفاصوليا وتركها على الجمر لتنضج ببطء. كان الصبي يراقبه. قال: هذا مكان جيد، يا أبي.

تناولا كمية الفطر القليلة والفاصوليا وشربا الشاي وأكلا كمثرى معلبة كحلوى. أسند النار على شريط الصخر حيث أوقدها وعلق المشمع خلفهما ليعكس الحرارة. جلسا وهما

يشعران بالدفء في ملجئهما بينما كان يحكي القصص للصبي. كانت قصصا قديمة عن الشجاعة والعدالة كما تذكرها حتى استسلم الصبي للنوم في فراشه، حرك الرجل النار واضطجع شاعرا بالدفء والشبع ومصغيا للرعد الخفيض الآتي من الشلالات من فوقهما في الظلمة والغابة العارية.

انطلق في الصباح ونزل في الدرب المحاذي للنهر. كان الصبي محقا في قوله إن المكان جيد وقد أراد أن يرى إن كان هناك أي أثر لزائرين آخرين. لم يجد شيئا. وقف يراقب النهر حيث جنح وولج إلى البركة والتف ونتجت عنه دوامة. أسقط حجرا أبيض لكنه اختفى ما أن ابتلعه الماء. لقد وقف على هذا النهر في الماضي وشاهد أسماك السلمون تلمع في البرك ولا تظهر للعيان في الماء البني إلا عندما تدير جوانبها لتناول الطعام حيث تنعكس أشعة الشمس عليها في عمق الظلمة كلمعان السكاكين في كهف ما.

– لا نستطيع البقاء هنا فالجو يزداد بردا. الشلال مغر لكنه كان لنا وسيكون لغيرنا ولا نعرف من هم ولا نسمع وقع أقدامهم. إن المكان غير آمن.

– يمكننا المكوث يوما آخر.

– المكان غير آمن.

– من الممكن أن نجد مكانا آخر على النهر.

– يجب أن نتابع المسير. يجب الاستمرار في السير جنوبا.

– ألا يتجه النهر جنوبا؟

– لا. ليس الأمر كذلك.

- أيمكنني رؤيته على الخريطة؟
- نعم. دعني أحضرها.

كانت خريطة الطرق الممزقة قد وزعتها إحدى شركات الزيوت قطعة واحدة يوما ما لكنها الآن مرتبة في أوراق منفصلة ومرقمة في الزوايا بقلم تلوين ليسهل تجميعها. بحث في الأوراق ومد على الأرض منها ما يجيب عن السؤال.

نقطع الجسر هنا. تبلغ المسافة نحو ثمانية أميال أو ما إلى ذلك. هذا هو النهر. إنه يتجه شرقا. نتبع الطريق هنا على طول سلسلة الجبال الشرقية. هذه طرقنا، الخطوط السوداء على الخريطة، وهي طرق الولايات.

- لماذا هي طرق الولايات؟
- لأن الولايات كانت تمتلكها. ما كان يسمى بالولايات.
- لكن ليس ثمة ولايات الآن؟
- لا.
- ماذا جرى لها؟
- لا أعرف بالضبط. هذا سؤال جيد.
- لكن الطرق لم تزل موجودة.
- نعم. بعض الوقت.
- كم من الوقت؟
- لا أعرف. ربما فترة طويلة. لا شيء يستطيع اقتلاعها، لذا يفترض أن تبقى سليمة بعض الوقت.
- لكن لن يكون عليها أي سيارات أو شاحنات.
- لا.

- حسنا.

- هل أنت جاهز.

أومأ الصبي برأسه. مسح أنفه بكمه وحمل حقيبة الظهر. لف الرجل أجزاء الخريطة ونهض. تبعه الصبي عبر أشجار السياج الرمادية إلى الطريق.

عندما ظهر الجسر بالأسفل ظهرت شاحنة بقاطرة انقلبت على جنبها في عرض الجسر وعلقت في العوارض الحديدية الثابتة. بدأت السماء تمطر من جديد ووقفا هناك والمطر يضرب بنعومة على المشمع.

- هل يمكننا الدوران حوله؟ سأل الصبي وهو يسترق النظر من داخل العتمة الزرقاء من تحت المشمع.

- لا أعتقد ذلك. لعل بإمكاننا النزول من تحته. ربما علينا أن نفرغ العربة.

امتد الجسر فوق منحدر النهر. كان بإمكانهما سماع صوت النهر عندما لفا المنعطف في الطريق. هبت رياح عبر الممر فسحبا زوايا المشمع حول نفسيهما ودفعا العربة لتصل فوق الجسر. كان باستطاعتهما رؤية النهر من بين العوارض الحديدية تحت أقدامهما. بدا جسر لسكة الحديد مثبتا على أعمدة حجرية في أسفل المنحدر. كانت أحجار الأعمدة ترشح فوق النهر بمسافة بسبب المياه العالية، وقد اختنق منحنى النهر بمساحات واسعة من الأغصان المسودة والقش وجذوع الأشجار.

كان قد مضى على الشاحنة هناك سنوات طويلة إذ استوت عجلاتها بالأرض من تحت الإطارات المعدنية. كانت مقدمة

الشــاحنة عالقة بعوارض الجســر وانفصلت القاطرة إلى الأمام قريبا من السطح العلوي واستندت إلى ظهر المقصورة وقد انحرفت مؤخرتها وعلقت بعوارض الجسر من الجهة الأخرى وتعلقت لعدة أقــدام في الهواء فوق مجرى النهــر. دفع الرجل العربة من تحت القاطــرة لكن يد العربة علقــت. كان عليهما دفعها من الجوانب. تركاها واقفة في المطر مغطاة بالمشــمع وانسلا من تحت القاطرة حيث ترك الصبي جاثما في مكان جاف بينما صعد هو على عتبة خزان الوقود ومسح الماء من على الزجاج ونظر إلى داخل المقصورة. نــزل ثم مد يده وفتح الباب. صعد إلــى الداخل وأغلق الباب من خلفه وجلس ينظر من حوله. بدت منامة كلب قديمة خلف المقاعد وانتشرت أوراق على الأرض. كان درج السيارة مفتوحا لكنه فارغ. ظهرت فرشــة نتنة رطبة على السرير في الجدار وثلاجة صغيرة بابهــا مفتــوح وطاولة يمكن طيها ومجــلات قديمة على الأرض. فتش الخزائن في الأعلى لكنها كانت فارغة. سحب الأدراج تحت السرير وفتش في القمامة. صعد إلى المقصورة مرة أخرى وجلس في مقعد الســائق ونظر إلى النهر مــن خلال خيط الماء المتهادي على الزجاج. خيمت الظلمة البطيئة على كل شيء في المكان على وقع المطر الناعم على السطح المعدني.

قضيا ليلتهما في الشــاحنة وفي الصباح توقف المطر. أفرغا العربة ونقلا كل متاعهما من تحت الشــاحنة إلى الجهة الأخرى ثم عبآها من جديد. بدت بعد نحو مائة قدم على الجســر بقايا العجلات المتفحمة التي كانت قد احترقت هناك. وقف ينظر إلى القاطرة. ماذا تظن بداخلها؟

- لا أعرف.

- نحن لسـنا أول من جاء إلى هنا. لذا ربما لا يوجد شـيء فيها.

- لا سبيل للدخول إليها.

وضع أذنه على جانب القاطرة ودق على اللوح المعدني براحته. قال: تبدو فارغة. ربما يمكن الدخول إليها من السقف. يرجح أن يكون شخص ما أحدث ثقبا في جانبه.

- كيف له أن يحدث ثقبا؟

- يمكن أن يجد شيئا يعينه على ذلك.

خلع سترته ووضعها على العربة وصعد على دعامة الشاحنة ثم تسـلق من فوق الزجاج الأمامي إلى سـطح المقصورة. وقف واستدار ونظر إلى النهر. كان السطح المعدني مبتلا تحت قدميه. رنا إلى الصبي الذي بدا قلقا. اسـتدار ومد يده وتشبث بمقدمة القاطرة ورفع نفسـه ببطء. كان ذلك كل ما يسـتطيع فعله على الرغـم من فقده كثيرا من وزنه. رفـع إحدى رجليه فوق الحافة ثـم وقف معلقا يلتقط أنفاسـه، ثم رفع نفسـه وتدحرج قبل أن يعتدل.

❖ ❖ ❖

ظهرت كوة في سـطح بيت تبعد نحو ثلث المسافة من السطح واتجه إليها خافضا جسمه. كانت الكوة بلا غطاء وشعر برائحة رقائق الخشب الرطبة من داخل القاطرة، تلك الرائحة البغيضة التـي طالما عرفها. كانت لديه مجلة في الجيب الخلفي لبنطلونه فأخرجها ونـزع بعض الصفحات ولفها قبـل أن يخرج الولاعة

ويشعلها ويرميها في الظلمة. صدرت أصوات همس ضعيفة. أزاح الدخان المنبعث ونظر إلى داخل القاطرة. بدت النار المشتعلة على الأرض بعيدة جدا. أحاط النـــور القادم بيده مما مكنه من رؤية مؤخرة صندوق القاطرة حيث ظهرت جثامين بشرية مسجاة في كل الاتجاهات وقد جفت وانكمشت في ملابسها المتحللة. خبت لفيفة الأوراق المشـــتعلة لتصبح خيطا مـــن النور قبل أن تنطفئ تاركة ســـحابة رقيقـــة للحظة من الوهج علـــى هيئة وردة، زهرة أقحوان ذائبة. ثم ساد الظلام من جديد.

في تلك الليلة خيما في الغاب على سلســـلة جبلية تطل على السهل الواسع الذي يمتد جنوبا. أوقد نارا للطهي في ظل صخرة وتناولا مـــا تبقى من الفطر وعلبة من الســـبانخ. في أثناء الليل هبـــت عاصفة على الجبال في الأعلى ونزلت تهدر إلى الأراضي المنخفضـــة بدمارها وأزيزها حيث تبـــدى العالم الرمادي مقفرا مـــرارا وتكـــرارا في تلك الليلة المحاطة بالبـــرق اللامع. التصق الصبـــي بأبيه. تلاشـــت العاصفة، ثم ســـمعا خشخشـــة وجيزة لحبات البرد تلاها المطر البطيء القارس.

عندمـــا أفاق مرة أخرى كان الظلام لم يزل مخيما لكن المطر قـــد توقف. بدا نور مصحوب بدخان فـــي الوادي. نهض وتجول على امتداد الســـفح. تبـــدى ضباب رقيق ناتج مـــن حريق امتد عـــدة أميال. قرفص وتمعن فيـــه. كان بإمكانه أن يشـــم رائحة الدخان المنبعثة. بلل إصبعه ورفعها عكس الريح. عندما انتصب واقفـــا واســـتدار ليعود بدا الضوء من داخل المشـــمع حيث أفاق الصبي. ومن حيث استقر في الظلمة ظهرت الزرقة كأنها خطوة

فـــي مغامرة أخيرة في طرف العالـــم، عالم كل ما فيه غير قابل للتفسير. وهكذا كانت الأمور.

أمضيا اليـــوم التالي بكامله يتنقلان عبـــر الضباب المتحرك الناتج من دخـــان الحرائق. في المناطـــق المفتوحة المحروقة كان الدخـــان يتصاعـــد من الأرض كالضباب، والأشـــجار الســـوداء النحيلة تحترق على المنحدرات كأنها قواعد لشموع وثنية. وصلا فيما بعد فـــي أثناء النهار إلى مكان عبر فيه الحريق الطريق إذ لم تزل الحصباء ساخنة وبدأت بعد مسافة تلين تحت أقدامهما. بدأ القار الأسود الحار يجذب نعالهما ويتمدد في موجات رقيقة تحت وطأة أقدامهما. توقفا. قال الرجل: علينا أن نتوقف.

❖ ❖ ❖

تراجعا وخيما في الطريق نفسها. عندما تابعا مسيرهما في الصبـــاح كانت الحصباء قد بردت. وبعد فترة صادفا صفّا لآثار أقـــدام محفورة في القار. ظهرت بشـــكل مفاجئ هكذا. قرفص وتمعـــن فيها. لقد خرج شـــخص مـــا من الغاب فـــي أثناء الليل ومضى في حال سبيله على الأسفلت اللين.

– من يكون؟ سأل الصبي.

– لا أعرف من يكون.

صادفاه وهو يشـــق طريقـــه أمامهما، ســـاحبا إحدى رجليه بصعوبة ومتوقفا بين الحين والآخر ليقف منحنيا ومتشـــككا قبل أن يبدأ خطوته القادمة.

– ماذا ينبغي أن نفعل يا أبي؟

– نحن على ما يرام. لنتبعه ونراقب، ليس إلا.

- لنلق نظرة، قال الصبي.
- نعم. لنلق نظرة.

تبعاه مسافة طويلة ولكن بمواكبتهما لسرعته كانا يضيعان نهارهما. وأخيرا جلس في الطريق ولم ينهض مرة أخرى. التصق الصبي بمعطف والده. لم ينبس أحد ببنت شفة. كان هذا الشخص يبدو محترقا كالأرض من حوله، بلباس اتشح بالسواد. كانت إحدى عينيه متفحمة ومغلقة، وشعره مجرد طبقة رقيقة من الرماد على جمجمته المسودة. عندما مرا من جانبه نظر إلى الأسفل، وكأنه اقترف ذنبا ما. كان حذاؤه مربوطا بالأسلاك وتغطيه طبقة من قار الطريق. جلس هناك بصمت، منكبا في ملابسه السوداء. ظل الصبي ينظر إلى الخلف. أبي؟ قال هامسا. ماذا حل به؟

- لقد صعقه البرق.
- ألا نستطيع مساعدته يا أبي؟
- لا. لا نستطيع مساعدته.
- ظل الصبي يسحب معطف أبيه. يا أبي؟
- كفى.
- ألا نستطيع مساعدته يا أبي؟
- لا. لا نستطيع مساعدته. لا يمكننا فعل أي شيء من أجله.

تابعا مسيرهما والصبي ينتحب. ظل ينظر إلى الخلف. عندما وصلا إلى قاع التل توقف الرجل ونظر إلى الصبي ثم نظر خلفه إلى أعلى الطريق. كان الرجل الذي تعرض للحريق قد سقط

على الأرض ولا يمكن تمييزه من تلك المسـافة. أنا آسـف، قال الرجل. لم يكن في وسـعنا عمل أي شيء له. لا سبيل لمساعدته. يحزنني ما حدث له ولكن لا يمكننا فعل أي شيء له. أنت تعرف هذا، أليس كذلك؟ وقف الصبي ينظر إلى الأسفل وأومأ برأسه. ثم تابع مسيره ولم ينظر إلى الخلف مرة أخرى.

❖ ❖ ❖

في المسـاء تبدى ضوء فسـفوري باهت مـن الحرائق. بدت المياه الراكدة في القنوات على جانبي الطريق سوداء بسبب الماء الناتج مـن ذوبان الثلوج واحتجبت الجبـال. عبرا نهرا من على جسر أسمنتي حيث تحركت خيوط الرماد والألواح المتجمعة من قطع الخشـب المسـودة ببطء في التيار. وأخيرا توقفا وتراجعا ليخيما تحت الجسر.

لقد حمل محفظة الجيب حتى حفرت ثقبا على شـكل زاوية في بنطلونه. وفي أحد الأيام جلس على قارعة الطريق وأخرجها وتفحص محتوياتها. ضمت بعض النقود وبعض الكروت الائتمانية ورخصة القيادة وصورة لزوجته. نشـر كل شيء على الأسفلت. رمى بالمحفظة الجلدية التي اسودت من العرق إلى داخل الغاب. التقـط الصورة ثم وضعها على الطريق من جديد قبل أن ينهض ويتابعا مسيرهما.

في الصباح اسـتلقى وهو ينظر إلى أعشاش الطيور الطينية التي بنتها في الزوايا تحت الجسر. نظر إلى الصبي لكن الصبي استدار وجعل يحدق في النهر.

– لم يكن في وسعنا فعل أي شيء.

لم يرد الصبي.

- سيموت حتما. لا يمكننا تقاسم ما نملك معه وإلا هلكنا نحن أيضا.

- أعرف ذلك.

- إذن متى ستتكلم معي من جديد؟

- أنا أتكلم الآن.

- هل أنت متأكد؟

- نعم.

- حسنا.

- حسنا.

وقفا على الضفة البعيدة لأحد الأنهار يناجيان ربهما. ترنحت الأشباح البالية في ثيابها الرثة عبر الخراب وتجولت في بحر معدني على أرضية يابسة تصدعت وتكسرت مثل طبق تهشم إثر سقوطه. تبدت دروب في النيران الملتهبة في الرمال المتخثرة وتلاشت الأشكال من بعيد. أفاق وظل مستلقيا في الظلمة.

«توقفت ساعات الحائط في الساعة الواحدة وسبع عشرة دقيقة. بدت حزمة طويلة من الضوء وحدثت سلسلة من الارتجاجات الضعيفة. نهض وذهب إلى النافذة. سألته المرأة: ما الذي حدث؟ لم يرد. ذهب إلى الحمام وضغط زر النور لكن الكهرباء كانت قد انقطعت. بانت شعلة وردية باهتة من زجاج النافذة. جثا على ركبتيه ورفع مفتاح حوض الاستحمام لإيقافه ثم فتح الصنبورين إلى أقصى درجة يستطيعها. كانت تقف في الباب في ثياب النوم وهي تتعلق بمزلاج الباب وتحمي بطنها

بيدها. ما الأمر؟ ما الذي يحدث؟

- لا أعرف.

- لماذا تستحم الآن؟

- أنا لا أستحم.

في تلك السنوات التي خلت أفاق مرة في غابة جرداء واستلقى مصغيا إلى أصوات الطيور المهاجرة في الأعلى في ذلك الظلام الدامس. كانت أصواتها الضعيفة تسمع على بعد أميال في السماء حيث دارت حول الأرض ببرود يشبه دوران الحشرات على حافة قدر للطعام. دعا لها بالتوفيق حتى اختفت. لم يسمعها مرة أخرى أبدا».

كانت بحوزته مجموعة متهرئة ومتجعدة من ورق اللعب وجدها في درج خزانة في أحد البيوت وقد ضاع منها ورقتا «الإسباتي» ولكنهما مع ذلك لعبا بها على ضوء النار وهما قابعان ببطانياتهما. حاول تذكر قواعد ألعاب الطفولة بما فيها لعبة «العانس»، وهي ضرب من لعبة «الهويست». كان متأكدا أنه استرجعها بشكل خاطئ وقام باختراع بعض الألعاب وأعطاها أسماء غير حقيقية. في بعض الأحيان كان الصبي يطرح عليه أسئلة تتعلق بالعالم الذي لم يعد يشكل له ولو مجرد ذكرى. كان يفكر مليا قبل الإجابة، إذ لم يكن هناك ماض. ماذا تريد؟ لكنه توقف عن اختراع الأشياء لأنها ليست حقيقية، ومجرد سردها يسبب له الشعور بالذنب. كان للصبي تخيلاته الخاصة به. كيف ستكون الأمور في الجنوب وكيف سيبدو الأطفال الآخرون؟ حاول وضع حد لهذه الأمور لكن فؤاده لم يكن أحدها. فؤاد من إذن الذي يفعل ذلك؟

لم تكن هناك قوائم لأشـياء يجب فعلهـا وكانت الأيام تغني نفسها بنفسها، وكذلك السـاعات. كان عالما بلا مستقبل وذلك هو المستقبل. كان لكل الأشياء الوقورة والجميلة التي يحتفظ بها المرء أصل واحـد في الألم، حيث ولدت في الحزن وفي الرماد. لذلك همس إلى الصبي النائم: أنت كل ما أملك.

فكـر في الصورة التي تركها في الطريق، ورأى أنه كان ينبغي أن يحتفظ بها في حياتهما بطريقة ما لكنه لم يجد لذلك سبيلا. أفاق وهو يسعل وابتعد حتى لا يوقظ الصبي. تمشى على امتداد جدار حجري وهو يلف نفسه ببطانيته وركع في الرماد كشخص ذاهب للتوبة. سـعل حتى شعر بمذاق الدم ونطق باسمها بصوت عـال. ظن أنه ربما نطق بذلك في أثنـاء نومه. عندما عاد كان الصبي قد أفاق من نومه. أنا آسف، قال للصبي.

- أنا بخير.

- اذهب للنوم.

- أتمنى لو أنني أموت الآن.

لم يرد. جلس إلى جانب الجسـم الصغير الملفوف في دثاره. بعد برهة قال: تعني أنك تتمنى الموت.

- نعم.

- ينبغي ألا تقول ذلك.

- لكنني أفعل.

- لا تقل هذا. إنه شيء سيئ.

- لا أستطيع تجنب هذا الأمر.

- أعرف، لكن عليك فعل ذلك.

- كيف لي أن أفعل هذا.

- لا أعرف.

- نحن من الناجين، قال لها ذلك وشعلة المصباح تتوسطهما.

- من الناجين؟ قالت.

- نعم.

- عم تتحدث بحق السماء؟ نحن لسنا من الناجين. نحن موتى يمشون في فيلم من أفلام الرعب.

- أتوسل إليك.

- لا يعنيني ذلك. لا يعنيني إن انتحبت. لا يعني ذلك أي شيء لي.

- أرجوك.

- توقف عن ذلك.

- إني أتوسل إليك. سأفعل أي شيء.

مثل ماذا؟ كان ينبغي أن أفعل ذلك منذ زمن طويل. عندما كان في المسدس ثلاث رصاصات بدلا من اثنتين. لقد كنت غبية. لقد انتهينا من كل هذا. أنا لم آت بنفسي إلى هذا، لقد أحضروني إليه. وقد انتهيت الآن. حتى أنني فكرت في ألا أخبرك. ربما كان ذلك هو الأنسب. لديك رصاصتان ثم ماذا؟ لا تستطيع حمايتنا. تقول إنك مستعد للموت من أجلنا ولكن ما نفع ذلك؟ وددت أن آخذه معي لولاك. أنت تعرف أني أفعل ذلك. إنه العمل الذي يتعين فعله.

- لقد فقدت صوابك.

- لا. إنني أقول الحقيقة. آجلا أو عاجلا سيقبضون علينا ويقتلوننا. سوف يغتصبونني ويغتصبونه. سوف يغتصبوننا

ويقتلوننا ويأكلوننا وأنــت لا تكترث بذلك. تفضل الانتظار حتى يحدث ذلك. لكنني لا أســتطيع ذلك. لا أستطيع. جلست هناك وفي فمها عود كرمة نحيل وناشــف كأنه نوع نادر من السيجار. كانــت ترفعه بأناقة ويدها الأخرى علــى ركبتيها وقد ضمتهما. راقبته على الطرف الآخر للشــعلة الصغيــرة. قالت: اعتدنا أن نتحدث عن الموت. لم نعد كذلك. لماذا؟

– لا أعرف.

– لأنه هنا. لم يبق أي شيء للحديث عنه.

– لن أفارقك.

– لا يعنيني ذلك، إذ لا معنى له. يمكنك اعتباري عاهرة غير وفية إن أردت. لقد اخترت عشيقا آخر. إنه يستطيع إعطائي ما لم تستطع أنت.

– الموت ليس عشيقا.

– بلى، إنه كذلك.

– أرجوك ألا تفعلي ذلك.

– أنا آسف.

– لا أستطيع فعل ذلك بمفردي.

– إذن لا تفعل ذلك. أنا لا أســتطيع مســاعدتك. يقولون إن النســاء يحلمن بالأخطار التــي تواجه من يحبــن، بينما يحلم الرجال بالأخطار التي تواجههــم. لكنني لا أحلم على الإطلاق. تقول إنك لا تستطيع فعل ذلك. إذن لا تفعله. هذا كل شيء. لقد انتهيــت وانتهى فؤادي الجامح وأنــا كذلك منذ زمن طويل. أنت تتحدث عن اتخاذ موقف لكن ليس هناك موقف. لقد نُزع فؤادي

مني في الليلة التـــي ولد فيها، لذا لا تطلب مني الحزن الآن. لا يوجد أثر له. ربما أنك تقدر على ذلك. وأنا أشك في هذا. لكن من يدري. الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أخبرك به هو أنك لن تنجو وحيدا. اعرف ذلك لأنه كان من المستحيل أن أصل إلى هذه المرحلة. يُنصح المرء الوحيد أن يصنع شـــبحا يحظى بالقبول، ثم تُنفخ فيه الحياة ويلاطفه بكلمات الحب. ويقدم له طعاما وهميا ويحميه من الأذى بجســـده. بالنســـبة إلي فإن أملي الوحيد هو العدم السرمدي وأتمناه من كل قلبي.

لم يرد.

- ليس لديك ما تجادل به لأن الأمر بيّن.

- هل لك أن تودعيه؟

- لا. لن أفعل.

- انتظري حتى الصباح، ليس إلا. أرجوك.

- يجب عليّ أن أذهب.

لقد انتصبت واقفة لفورها.

- من أجل حب الله، يا امرأة. ماذا سأقول له؟

- لا أستطيع مساعدتك.

- إلى أين تذهبين؟ لا تستطيعين حتى الإبصار.

- لست في حاجة إلى ذلك.

انتصب واقفا. قال: أتوسل إليك.

- لا. لن أفعل. لا أستطيع ذلك.

لقد ذهبت وكانت البرودة التي تركتها خلفها هي ردّها الأخير. لقد اعتادت أن تفعل ذلك بقســـوة، كانت قســـوتها أكثر حدة من

الصلــب. وأرق من الذرة. لقــد علّمها ذلك بنفســه. لقد كانت محقة. لم يكن هناك مجال للنقاش. ســهروا مئات الليالي وهم يناقشــون إفناء الذات بما له وما عليه بحماس فلاسفة يقبعون في مستشفى للأمراض العقلية.

في الصباح لم ينبس الصبي ببنت شفة وعندما حزما متاعهما وأصبحــا جاهزين للانطلاق في الطريق اســتدار الصبي ونظر إلى موقع مخيمهما وقال:

- لقــد ذهبت هــي، أليس كذلك؟ رد قائــلا: بلى، لقد فعلت ذلك.

❖ ❖ ❖

اتصفت بالتأني الشــديد ونادرا ما كان يفاجئها حتى أغرب الأحداث. كانت مخلوقا تطور بامتياز لخدمة غاياته. جلســا إلى جانب النافذة في ثيابهما على نور الشمع وهما يتناولان عشاءهما في منتصف الليل ويراقبان المدن البعيدة تحترق. بعد بضع ليال وضعت مولودا في الســرير على نور مصبــاح يعمل بالبطارية. بدت القفازات التي تســتخدم في غســل الأواني ثم جاء الظهور النشــاز لمقدمة الرأس الصغير، المخطط بالدم والشــعر الأسود الناعم والســابح في السائل المخاطي الفاسد. لم تعن صرخاتها شيئا له. ازداد البرد وتبدت الحرائق في الأفق من وراء النافذة. رفع الجسد الأحمر الهزيل العاري إلى أعلى وقطع الحبل السري بمقص للمطبخ ولف ابنه بمنشفة.

- هل كان عندك أصدقاء؟

- نعم.

- كثيرٌ منهم؟
- نعم.
- هل تتذكرهم؟
- نعم. أتذكرهم.
- ماذا حدث لهم؟
- ماتوا.
- كلهم؟
- نعم. كلهم.
- هل تشتاق إليهم؟
- نعم. أشتاق إليهم.
- إلى أين نحن ذاهبون؟
- إلى الجنوب.
- حسنا.

أمضيا اليوم بكامله يسيران على الطريق السوداء الطويلة. في أثناء ذلك توقفا عصرا لتناول القليل من زادهما المتناقص. أخرج الصبي لعبة الشاحنة من الحقيبة ورسم لها طرقا في الرماد بأحد العيدان. تحركت الشاحنة ببطء. أصدر أصواتا تحاكي صوت الشاحنة. بدا النهار دافئا تقريبا وناما بين أوراق الشجر متوسدين حقائبهما.

شيء ما أيقظه فتقلب على جانبه وأخذ يصغي. نظر إلى الصبي وعندما نظر خلفه نحو الطريق كان المتقدمون منهم قد ظهروا للعيان. همس: يا إلهي. مد يده وهز الصبي وعيناه تنظران نحو الطريق. جاءوا يشقون طريقهم عبر الرماد وهم

يتمايلون برؤوسهم المغطاة من جهة إلى أخرى. ارتدى بعضهم أقنعة معدنية، وكان أحدهم يرتدي طقما يحمي من المخاطر البيولوجية. بدا منظرهم أشعث أغبر وهم يشقون طريقهم حاملين عصيا من المواسير في أيديهم. ثم سمع في الطريق من خلفهم ما يشبه صوت شاحنة تعمل بالسولار. همس: أسرع. أسرع. وضع المسدس في الحزام وأمسك الصبي من يده وسحب العربة بين الأشجار وأمالها حيث لا يمكن رؤيتها بسهولة. تجمد الصبي من الخوف فجذبه إليه. قال: كل شيء على ما يرام. يجب علينا الهرب. لا تنظر إلى الخلف. لنذهب.

رمى بالحقائب على كتفه وشقا طريقهما عبر نبات «السرخس» المتراكم. أصيب الصبي بالرعب. همس: اركض. اركض. نظر خلفه فظهرت الشاحنة للعيان. استقلها رجال ينظرون في كل الاتجاهات. وقع الصبي فسحبه إلى أعلى. قال: الأمور على ما يرام. لنركض. رأى فجوة بين الأشجار ظن أنها قناة أو جرف. خرجا من بين الأعشاب إلى طريق قديمة. بدت صفائح من الأسفلت المتصدع من بين كتل الرماد. سحب الصبي إلى أسفل وكمنا تحت طرف الطريق وهما يصغيان ويلهثان. كان بإمكانهما سماع محرك الشاحنة في الطريق يعمل بشيء لا يعلمه إلا الله. عندما رفع جسمه لينظر كان بإمكانه رؤية الجزء العلوي من الشاحنة يتحرك إلى الأمام في الطريق، وظهر رجال يقفون في الصندوق وبعضهم يحملون البنادق. مرت الشاحنة قدما تاركة دخان السولار الأسود يتلوى بين الأشجار. كان صوت المحرك ضعيفا، يتقطع ويئن، ثم خيم الصمت.

نزل بجسمه ووضع يده فوق رأسه وقال: يا إلهي. كان بإمكانهما سماع زمجرة المحرك قبل توقفه. كان يمسك المسدس بيده على الرغم من أنه لم يتذكر أنه سحبه من الحزام. كان بإمكانهما سماع الرجال يتحدثون وهم يفكون غطاء المحرك ويرفعونه. جلس وذراعه حول الصبي. قال: اهدأ. اهدأ. بعد برهة سمعا الشاحنة تتحرك على الطريق، تقعقع وتزمجر مثل سفينة. لم يكن لدى هؤلاء الأشخاص طريقة لتشغيلها إلا بدفعها ولم يتسن لهم دفعها سريعا إلى درجة تشغيلها على ذلك المنحدر. بعد بضع دقائق لهثت واهتزت وتوقفت من جديد. رفع رأسه للنظر إلى حيث ظهر أحدهم من بين الأعشاب على بعد عشرين قدما وهو يفك حزامه. تجمدا في مكانهما.

سحب الزناد وصوب المسدس نحو الرجل. وقف الرجل وإحدى يديه على جنبه وقناعه المتسخ الممزق يعلو وينخفض.

- هيا تقدم بهدوء.

نظر إلى الطريق.

- لا تنظر إلى هناك. انظر إليّ. إذا صرخت فسوف تموت.

تقدم إلى الأمام ماسكا حزامه بيد واحدة. كانت الثقوب في الحزام تشير إلى درجة هزاله، وقد بدا الجلد على أحد الجوانب لامعا حيث اعتاد أن يشحذ شفرة مديته. نزل في الجرف ونظر إلى المسدس وإلى الصبي. كانت عيناه محاطتين بالسواد وغائرتين في العمق، مثل حيوان داخل جمجمة ينظر من ثقبي العينين. كانت لديه لحية على شكل مربع من الأسفل، وكان على عنقه وشم لطائر رُسم بطريقة غير متقنة. كان نحيلا

وخائر القوى ويرتدي مئزرا أزرق متسـخا وقبعة سـوداء مزينة بشعار على مقدمتها لشركة تجارية كانت قد اندثرت.

- إلى أين أنت ذاهب؟

- لقضاء الحاجة.

- إلى أين أنت ذاهب بالشاحنة؟

- لا أعرف.

- ماذا تعني بأنك لا تعرف؟ اخلع قناعك.

خلع قناعه ووقف حاملا إياه.

- أعني أنني لا أعرف.

- لا تعرف إلى أين أنت ذاهب؟

- كلا.

- بماذا تعمل الشاحنة؟

- بوقود السولار.

- كم لديكم منه؟

- لدينا ثلاث عبوات في كل منها خمسة وخمسون جالونا في الصندوق.

- هل لديكم ذخيرة للأسلحة؟

نظر خلفه نحو الطريق.

- قلت لك لا تنظر إلى هناك.

- نعم. لدينا ذخيرة.

- من أين حصلتم عليها؟

- عثرنا عليها.

- هذا كذب. ماذا تأكلون؟

- أي شيء نجده.

- أي شيء تجدونه؟

- نعم. نظر إلى الصبي. قال: لن تطلق النار.

- هذا ما تظنه.

- لا تملك إلا رصاصتين وربما واحدة فقط. وسيسمعون إطلاق النار.

- نعم، سيسمعون. لكنك لن تسمعه.

- كيف توصلت إلى هذه النتيجة؟

- لأن الرصاص ينتقل أسرع من الصوت. ستستقر الرصاصة في دماغك قبل أن تسمعها. لكي تسمعها ستحتاج إلى فص الدماغ الأمامي والأجزاء الأخرى من الدماغ التي تكون قد تحولت إلى حساء.

- هل أنت طبيب؟

- أنا لا شيء.

- لدينا رجل مصاب. ربما تستطيع مساعدته.

- هل أبدو لك بهذه السذاجة؟

- لا أعرف ماذا تبدو؟

- لماذا تنظر إليه؟

- أستطيع النظر أنى شئت.

- لا، لا تستطيع ذلك. إذا نظرت إليه مرة أخرى فسأطلق عليك النار.

كان الصبي يضع يديه على رأسه وينظر من بين ذراعيه.

- أظن أن الصبي جائع. لم لا نذهب جميعا إلى الشاحنة؟

ونأكل شيئا. لا داعي لأن تتصرف بحماقة.

- لا يوجد لديكم أي طعام. لنذهب.

- نذهب إلى أين؟

- هيا.

- لن أذهب إلى أي مكان.

- لن تذهب؟

- لا. لن أذهب.

- تظـن أنني لن أقتلك، إنك مخطئ. لكن ما أفضل عمله هو أن آخذك لمسـافة ميل تقريبا في هذه الطريق ثم أخلي سبيلك. هـذا كل ما نحتاجه لكي لا تعثروا علينا. لن يكون بإمكانكم حتى تحديد وجهتنا.

- أنت تعرف رأيي؟

- ما هو رأيك؟

- أظنك جبانا.

أفلت الحزام الذي سـقط في الطريق والأشـياء تتدلى منه. ضمت الأشياء مخزنا للطعام وحقيبة عسكرية قديمة من قماش القنـب وجيبا من الجلد لمديـة. عندما نظر إلى أعلى كان قاطع الطريـق يرفع مديـة في يده. خطا خطوتين فقـط لكنه أصبح تقريبا بينه وبين الطفل.

- ماذا تظن أنك تستطيع فعله بذلك؟

لم يرد. كان رجلا ضخما لكنه سريع جدا. قفز ومسك الصبي وتدحـرج قبل أن يثبت الصبي على صـدره والمدية مصوبة على رقبته. ارتمى الرجل أرضا واعتدل وصوب المسدس وأطلق النار

بكلتا يديه وهو جاث على ركبتيه من مسـافة ست أقدام. سقط الرجل مباشـرة إلـى الخلف والدم يتدفق مـن ثقب في جبهته. كان الصبـي متمـددا في حضنه وقد خلا وجهـه من أي تعبير على الإطلاق. أدخل المسـدس في حزامـه ورمى بالحقيبة على كتفه ورفع الصبي وأداره ثم حمله فوق رأسـه قبل أن يضعه على كتفيه ويعدو في الطريق القديمة بأقصى سـرعة وهو يمسـك ركبتـي الصبي، والصبي يتعلق بجبهتـه ملطخا بالدماء وصامتا كالصخر.

وصلا إلى جسر حديدي قديم في الغابة حيث كانت الطريق المختفية قد عبرت جدولا مندثرا. بدأ يسـعل ويتنفس بصعوبة. نـزل من الطريق إلى داخل الغاب. اسـتدار ووقف يلهث محاولا أن يصغي. لم يسـمع أي شيء. شـق طريقه لمسافة نصف ميل أخرى تقريبا وأخيـرا جثا على ركبتيه ووضع الصبي في الرماد بين أوراق الشجر. مسح الدم عن وجه الصبي وحضنه. قال: كل شيء على ما يرام. كل شيء على ما يرام.

سـمع أصواتهم مرة واحدة فقط في المسـاء الطويل القارس وقـد خيم الظـلام. ضم الصبي إليـه. انتابته نوبة سـعال في حنجرتـه أبت أن تفارقه. بـدا الصبي واهنـا ونحيلا جدا في معطفه، وكان يرتجف كقشة في مهب الريح. توقف وقع الخطى بين أوراق الشـجر. ثم تابعا مسـيرهما من جديد. لم يتكلما أو ينادي أحدهما الآخـر خوفا من الطالع. مع بداية حلول الظلام أخيرا اشـتد البرد القارس وأمسـى الصبي ينتفض بشـدة. لم يطل القمر من وراء الضباب ولم يكن بإمكانهما الذهاب إلى أي

مكان. كانت لديهما بطانية واحـــدة في الحقيبة فأخرجها ولف بها الصبي وفك سترته واحتضنه. رقدا هناك فترة طويلة لكنهما كادا يتجمدان من البرد، وأخيرا اعتدل في جلســته وقال: يجب أن نتحـــرك. لا يمكننا البقاء هنا هكـــذا. تلفت حوله لكنه لم ير شيئا. تحدث في ظلمة خلت من العمق والأبعاد.

أمسك الصبي من يده وأخذا يتلمسان طريقهما بين الأشجار. مد يده الأخرى أمامه. لن يســتطيع أن يرى أبعد من ذلك وعيناه مغمضتان. كان الصبي يلف نفســه بالبطانية، وحذره والده من إســقاطها لأنهما لن يتمكنا من العثــور عليها في الظلمة. طلب الصبــي منــه أن يحمله لكن الرجــل أخبره بأن عليــه أن يتابع المسير. تعثرا وسقطا في الغاب أكثر من مرة، وقبل الفجر بوقت طويل وقع الصبي ولم يســتطع النهــوض مرة أخرى. لفه الرجل بسترته ثم بالبطانية وجلس محتضنا إياه، يهزه جيئة وذهابا. لم يبق إلا طلقة واحدة في المسدس، لن تواجه الحقيقة. لن يمكنها أن تفعل ذلك.

في النـــور الباهت قبل طلوع النهار وضـــع الصبي بين أوراق الشـــجر وجلس يتفحــص الغاب. عندما تحســنت الرؤية بعض الشيء نهض وتمشى قبل أن يحدد مكانا لموقع مخيمهما الصغير وهو يبحث من دون جدوى عن أي أثر عدا أثرهم المتلاشـــي في الرماد. عاد إلى حيث ترك الصبي وضمه. قال: يجب أن نذهب. جلس الصبي خائر القوى، شاحب الوجه. نشّف النتن الذي ظهر في شعره والذي بدت آثاره على محياه. قال له: تحدث إليّ، لكنه لم يفعل.

تحركا شـــرقا عبر الأشجار المنتصبة الميتة. مرا ببيت خشبي قديم وطريق ترابية. بدت مســـاحة فارغة من الأرض ربما كانت تســـتخدم لزراعة البقــول. كانا يتوقفان بين فينـــة وأخرى لكي يصغيا. لم يكن للشـــمس المحتجبة أي ظـــل. ثم صادفا الطريق بشكل غير متوقع فأوقف الصبي بإحدى يديه وكمنا في الجرف على جانب الطريق مثل متشـــردين وأخذا يصغيان. كانت الرياح ســـاكنة والصمت مطبقا. بعد برهة نهض وخـــرج إلى الطريق. نظـــر خلفه إلى الصبي وقال: هيا. خـــرج الصبي وعاين الرجل الآثار في الرماد حيث مرت الشـــاحنة. وقف الصبي يلف نفسه بالبطانية وينظر إلى أسفل الطريق.

لم يكن بإمكانهما معرفة إن كان الرجال قد اســـتطاعوا تشغيل الشـــاحنة مرة أخرى. ولم تكن لديه ســـبيل لمعرفـــة الوقت الذي يمكن أن يقضياه في الترصد لهم. أنزل الحقيبة عن ظهره وجلس وفتحها. قال: نحن في حاجة لتناول الطعام. هل أنت جائع؟

هز الصبي رأسه نفيا.

كلا. إنك كذلك. أخرج قارورة الماء البلاســـتيكية وفتح الغطاء ثم ناولها الصبي الذي أخذها ووقف يرتشف الماء. أنزل القارورة والتقط أنفاســـه ثم جلس ورجلاه مضمومتان وشرب من جديد. بعـــد ذلـــك ناول القارورة إلى والده الذي شـــرب بدوره ثم ســـد القـــارورة قبل أن يبدأ بتقليب الأشـــياء في الحقيبة. تناولا علبة من الفاصوليا البيضاء بالتناوب عليها ورمى بالعلبة الفارغة بين الأشجار. ثم تابعا مسيرهما.

❖ ❖ ❖

كان الرجال قد خيموا في الطريق نفسـها حيث أوقدوا نارا في المكان وانتشـرت قطع الخشب المتفحمة وانغرست في القار الذائب مع الرماد والعظام.

قرفص الرجل ومد يده فوق القار فشعر بدفء بسيط ينبعث منه. وقف ونظر إلى أسـفل الطريق. ثم أخـذ الصبي معه إلى داخل الغاب. قال: أريدك أن تنتظر هنا. لن أبتعد كثيرا. سيكون بإمكاني سماعك إن ناديتني.

- خذني معك، قال الصبي. بدا كأنه على وشك البكاء.
- لا. أريدك أن تنتظر هنا.
- أرجوك يا أبي.
- كفى. أريدك أن تفعل ما أقول. خذ المسدس.
- لا أريد المسدس.
- أنا لم أسألك إن كنت تريده، خذه بلا نقاش.

سـار في الغـاب إلى حيـث كانا قد تـركا العربـة. لم تزل جاثمـة هناك لكنها تعرضت للنهب. كانت الأشـياء القليلة التي لـم يأخذوها مبعثرة بين أوراق الشـجر من ضمنها بعض الكتب والألعاب للصبي وحذاؤه القديم وبعض الخرق من الملابس. عدل العربة ووضع أشـياء الصبي فيها قبل أن يدفعها خارجا بها إلى الطريق. ثم عاد إلى المكان. لم يبق أي شـيء هناك سـوى الدم الناشف بين أوراق الشجر. لقد اختفت حقيبة الصبي. في طريق العـودة وجد العظام مكومة مع الجلـد والأحجار من فوقها وقد بدت بركة من الأحشـاء. بحذائه دفع العظام التي بدا أنه جرى سـلقها. لم يظهر أي أثر للملابس. خيم الظلام من جديد وكان

الجـــو باردا جدا. اســـتدار ومضى إلى حيث تـــرك الصبي. جثا ووضع ذراعيه حوله وضمه إلى صدره.

دفعـــا العربة بين الأشـــجار حتى الطريق القديمـــة وتركاها هنـــاك قبـــل أن يتجها جنوبا على امتداد الطريق في ســـباق مع الظلمة. كان الصبي يترنح بســـبب التعب الشـــديد. رفعه الرجل ووضعه على كتفيه وتابعا مســـيرهما. عندما وصلا إلى الجسر كان النور قد تلاشى تقريبا. أنزل الصبي وتلمسا طريقهما عند أسفل الجسر. تحت الجسر أخرج قداحته وأشعلها وعلى نورها الخافـــق كنـــس الأرض من الرمل والحصى الآتـــي من الجدول. وضع الحقيبة وأبعد القداحة وأمســـك الصبـــي من كتفيه. كاد ألا يراه في الظلمة. قال: أريدك أن تبقى هنا. ســـأحضر بعض الحطب. ينبغي أن نوقد نارا.

- إني خائف.

- أعـــرف ذلك. لكننـــي لن أبتعـــد كثيرا وســـيكون بإمكاني سماعك، لذا إن شعرت بالخوف نادني وسآتي فورا.

- إني خائف حقا.

- كلما أســـرعت في الذهـــاب أبكرت في العودة وســـنوقد نارا ولن تشـــعر بمزيد من الخوف. لا تســـتلق على الأرض كيلا تستســـلم للنوم وعندها لن يكون بمقدورك الرد عليّ إذا ناديتك ولن أستطيع الوصول إليك. هل تعي ذلك؟

لـــم يرد الصبي. كاد يفقـــد أعصابه قبل أن يدرك أن الصبي يومئ برأسه في الظلمة قائلا: حسنا، حسنا.

تلمـــس طريقه إلى أعلـــى الضفة ثم إلى داخـــل الغاب مادا

يديــه أمامه. كان الحطب في كل مكان، العيدان والأغصان الميتة منتشرة على الأرض. اســتخدم قدميه في تجميع كومة وعندما توافر له ما يملأ ذراعه نزل بجسمه وحمل كومة الحطب. ثم نادى الصبي الذي رد بدوره واستمر في إرشاده للوصول إلى الجسر. جلسا في الظلام وهو يجهز كومة من الأغصان مستخدما مديته وكسّــر العيدان الصغيرة بيديه. أخرج القداحة من جيبه وضرب على أصبع الإشعال بإبهامه. كانت القداحة تعمل بالبنزين فبدت شــعلة زرقاء ضعيفة وانحنى وأشــعل العيدان الصغيرة وراقب اللهب ينتشــر إلــى أعلى في بقية الأغصان. غــذى النار بمزيد من الحطب وانحنى ونفخ بهدوء في أســفل اللهب البسيط ورتب الحطب بيديه محددا الشكل الذي أراده للنار.

❖ ❖ ❖

قام برحلتين أخريين إلى داخل الغاب وسحب العيدان والأغصان إلى حيث الجسر. كان بإمكانه رؤية اللهب من مسافة معينة لكنه لم يتيقن من إمكان رؤية النار من الطريق الأخرى. تحت الجسر اســتطاع أن يهيئ بركة داكنة من الماء الراكد بين الصخور حيث ظهرت حافة لــرف من الجليد. وقف على الجســر ودفع بآخر كومة من الحطب، نافثا زفيرا أبيض على نور اللهب.

جلس على الرمــل وتفحص محتويــات الحقيبة التي ضمت منظــارا وعلبة فيها ربع لتر مــن البنزين تقريبا وقارورة من الماء وآلة لقطع الأســلاك وملعقتين. وضع كل الأشياء في صف. كان لديهما خمس علب صغيرة من الطعام فوقع اختياره على واحدة للنقانق وأخرى للذرة. فتحهما بآلة عسكرية صغيرة لفتح العلب

ووضعهمـــا إلى جانب النار وجلســـا يراقبان الرقعتين الملصقتين عليهما تسودان وتتجعدان. عندما بدأ البخار يتصاعد من الذرة أخرج العلبتين من النار بالآلة وجلســـا منحنيين يتناولانهما ببطء بملاعقهما. وبدأ النعاس يغشى الصبي.

بعدمـــا انتهيا مـــن تناول الطعـــام أخذ الصبي إلـــى العمود الحجري تحت الجســـر وأزاح الطبقة الرقيقة من الجليد جانبا بأحد الأغصان وجثوا هناك وجعل يغســـل وجه الصبي وشعره. كان الماء باردا جدا وبدأ الصبي في البكاء. نزلا إلى الأسفل على الحصـــى للعثور على مياه عذبة حيث غســـل شـــعر الصبي مرة أخرى بقدر ما يســـتطيع وأخيرا توقـــف لأن الصبي كان يئن من بردهـــا. جففه بالبطانية جاثيا تحت وهج النور القادم من النار، وظل الجسر من الأسفل يتكسّر من على السياج وجذوع الأشجار مـــن وراء الجدول. قال: هذا طفلي. نظّف شـــعره من بعض آثار مخ الرجل الصريع. قال لنفســـه: هذا واجبي. ثم لفه بالبطانية وحمله إلى حيث الموقد.

كان الطفل يترنح فراقبه والده بحذر حتى لا ينقلب إلى داخل النار. أنشـــأ حفرة في الرمل لردفي الصبي وكتفيه حيث يمكنه النـــوم، وجلس يضمه وهو يدلك شـــعره أمام النـــار لكي يجف. فعل كل هذا كأنه يقوم بأحد الطقوس الدينية القديمة المتعارف عليها.

أفـــاق في الليل من البرد فنهض وكسّـــر مزيدا من الحطب للنار. بدت أشـــكال الأغصان الصغيـــرة تتقد بلونها البرتقالي المتوهـــج من بين قطـــع الفحم. نفخ معيدا الحيـــاة للهب وكوَّم

الحطب على النار وجلس ضاما رجليه يتكئ على عمود الجسر الحجري المكون من صخور ثقيلة من أحجار الجير المبنية بعضها فوق بعض من دون استخدام الأسمنت. في الأعلى بدت الأجزاء الحديدية باللون البني من الصدأ وبانت الأعمدة المثبتة والألواح الخشبية. كان الرمل حيث جلس دافئ الملمس لكن الليلة بعيدا عن الموقد كانت شديدة البرودة. نهض وسحب مزيدا من الحطب إلى تحت الجسر، ثم وقف يصغي. لم يتحرك الصبي. جلس إلى جانبه ومسح شعره الأشعث الأغبر، في مشهد أشبه ما يكون بكأس القربان الذهبي الذي يصلح لسكنى أحد الآلهة. عندما نظر من جديد إلى الظلمة من وراء الجسر كان الثلج يتساقط.

كان كل الحطب المستخدم لإيقاد النار من النوع الخفيف الذي لا يكفي لتوفير الدفء لأكثر من ساعة أو ربما أكثر من ذلك بقليل. سحب ما تبقى من الأغصان إلى تحت الجسر وكسره مستخدما قدميه وذراعيه. ظن أن الصوت سيوقظ الصبي لكن ذلك لم يحدث. كان الحطب المبتل يصدر صوتا كالفحيح في اللهب واستمر الثلج في التساقط. في الصباح سيريان إن كانت هناك آثار في الطريق أم لا. لقد كان قاطع الطريق الذي قتله أول إنسان تكلم معه منذ أكثر من عام. لقد كان أخا في الإنسانية أخيرا على الرغم من الحسابات الزاحفة في عيونه الباردة والمتغيرة والأسنان الرمادية المتسخة ببقايا اللحم البشري الملتصق بها. كان أخا جعل من العالم كذبة في كل كلمة. عندما أفاق من جديد كان تساقط الثلج قد توقف، وكان الفجر الخشن

يرسم صورة للغابات العارية من وراء الجسر، والأشجار السوداء واقفــة تقابل الثلج. كان يضطجع واضعا يديه بين ركبتيه. جلس وأشــعل النار ووضع علبة من الشمندر على الجمر وكان الصبي يرقد على الأرض ضاما نفسه ومراقبا إياه.

اســتقر الثلج الجديد بين الأشــجار وعلى الأغصان وأحاط بالأوراق تحت الشــجر وقد اتشــح بالرماد. سارا إلى حيث تركا العربة ووضعــا الحقيبة فيها ودفعاها خارجين بها إلى الطريق. لم تظهر أي آثار في الطريق. وقفا يصغيان في الصمت المطبق. ثم تابعا سيرهما عبر الجليد الرمادي والصبي إلى جانبه واضعا يديه في جيبيه.

شــقا طريقهما طوال النهار والصبي صامت لا يتكلم. بحلول العصر كان الجليد قد ذاب عن الطريق وبحلول المســاء أصبحت الطريــق جافة. لم يتوقفا. كم ميلا قطعا؟ ربما عشــرة أميال أو اثني عشر ميلا. لقد اعتادا أن يلعبا بحلقات الرمي المعدنية في الطريق مستخدمين الحلقات الفولاذية الكبيرة التي وجداها في أحد المحــال التجارية التي نهبت مع الأشــياء الأخرى. في تلك الليلة خيمــا في واد صغير وأوقدا نارا فــي ظل حافة صخرية صغيــرة وتناولا آخر علبــة لديهما من الطعــام. كان قد وفرها لأنهــا من الأطعمة المفضلــة عند الصبي وقــد تكونت من لحم الخنزيــر والفاصوليا. راقبا العلبة تنضج بهدوء على الجمر قبل أن يخرجها بآلة الفتح ويأكلانها في صمت. غسل العلبة الفارغة بالماء وأعطاها للصبي ليشرب بها وكان ما كان. قال: كان ينبغي أن أكون أكثر حرصا.

لم يرد الصبي.

- يجب أن تتكلم معي.

- حسنا.

- أردتَ أن تعرف كيف يبدو الناس الأشرار. الآن تعرف ذلك. ربمـــا يحدث ما حدث لنا مرة أخرى. واجبي هو أن أرعاك. لقد كلفني الله بذلك. ســـأقتل أي شـــخص يحاول لمســـك. هل تفهم ذلك؟

- نعم.

جلس قابعا في البطانية. بعد برهة نظر إلى أعلى. سأل: هل نحن مازلنا الناس الطيبين؟

- نعم. نحن مازلنا الناس الطيبين.

- وسنكون هكذا دائما؟

- نعم. سنكون هكذا دائما.

- حسنا.

فـــي الصباح خرجا من الوادي الصغير ونزلا إلى الطريق مرة أخرى. كان قد صنع للصبي آلة نفخ من قطعة من سيقان النباتات الموجودة على جانـــب الطريق فأخرجها من معطفه وناولها إياه. أخذهـــا الصبي من دون أن يتكلم. بعـــد برهة أبطأ الخطى من خلفه وبعد هنيهة كان بإمكان الرجل سماع عزفه. كانت موسيقى ليس لها شكل، ربما تخص عصرا لم يأت بعد. أو ربما كانت آخر موسيقى على الأرض استلهمت من بين الرماد والخراب. استدار الرجـــل ونظر إليه في الخلف. كان مســـتغرقا في التركيز. رأى الرجل أن الصبي بدا كطفل حزين وحيد يتصف بالتحدي ويؤذن

بوصول فرقة مســافرة بين الولايات والقرى ولا يعرف أن جميع العازفين من خلفه قد خطفتهم الذئاب.

جلس ضاما رجليه بين أوراق الشجر على قمة سلسلة جبلية، رنــا نحو الوادي من تحتهما من خلال المنظار. لاح شــكل لأحد الأنهــار المتدفقة، وضع منظاره جانبا وجلس يراقب المكان حيث أكوام طوب أســود لطاحونة وأسقف صخرية وبرج خشبي قديم للمــاء مربوط بأقــواس حديدية. لم يظهــر أي دخان أو أي أثر للحياة.

- ماذا ترى؟ سأل الصبي.

- لا شيء.

ناوله المنظار. رمى الصبي بالطوق حول عنقه ووضع العدستين على عينيه وضبطهما. بدا كل شيء ساكنا حولهما.

- أرى دخانا، قال الصبي.

- أين؟

- بعد تلك المباني.

- أي مبان؟

أعاد الصبي المنظار إليه حيث ضبط العدسات. بدت خيوط شاحبة من الدخان فقال: نعم. أستطيع رؤيتها.

- ماذا ينبغي أن نعمل يا أبي؟

- أرى أنــه ينبغي أن نلقي نظرة. علينا أن نكون حذرين، ليس إلا.

- إذا كانت مستوطنة للعامة فستكون هناك حواجز. لكن ربما يكون موقعا للاجئين.

- مثلنا.

- نعم، مثلنا.

- ماذا لو كانوا من الأشرار؟

- علينا أن نجازف. نحن في حاجة للعثور على شيء نأكله.

تركا العربة وعبرا قضبانا للسكة الحديد ونزلا من على ضفة منحدرة عبر شجر اللبلاب الميت الأسود. حمل المسدس في يده. قال: ابق قريبا. وقد فعل ذلك. تحركا عبر الشوارع مثل مهندسي الألغام، يفتشان في كل حارة على حدة. انبعثت رائحة ضعيفة للدخان في الهواء. انتظرا في أحد المتاجر وراقبا الشارع لكن شيئا لم يتحرك. بحثا في القمامة والركام. كانت أدراج الخزائن ملقاة على الأرض وانتشرت الأوراق وصناديق الكرتون المنتفخة. لم يجدا شيئا. لقد نهبت جميع المتاجر منذ سنوات خلت. كانت النوافذ بلا زجاج في معظمها. صعدا الأدراج المضلعة لمصعد كهربائي والصبي متعلق بيده. وجدا بعض الأطقم المغبرة معلقة على حامل. بحثا عن أحذية لكنهما لم يجدا شيئا. تخبطا عبر القمامة لكنهما لم يعثرا على شيء يمكن الاستفادة منه. في طريق عودتهما نزع المعاطف عن حواملها ورجها جيدا وطواها على ذراعه. قال: لنذهب من هنا.

تصور أن شيئا ما لم يُعثر عليه لكنه كان مخطئا. فتشا القمامة في ممرات متجر للأغذية حيث بدت صناديق قديمة وأوراق رماد سرمدي. فتش الرفوف باحثا عن فيتامينات، ثم فتح باب حجرة التبريد لكن رائحة كريهة نتنة للموتى فاحت من الظلمة فأغلق الباب بسرعة من جديد. وقفا في الشارع

ونظرا إلى السماء الرمادية. لاحت علامات باهتة لنفسيهما. كان الصبي مرهقا فأخذه من يده قائلا: علينا إجراء المزيد من البحث. لا بد من الاستمرار في البحث.

لم يكن بالمنازل في طرف البلدة أي شيء يذكر. صعدا الدرج الخلفي إلى داخل المطبخ وبحثا في الخزائن. كانت جميع أبواب الخزائن مفتوحة. وجد علبة مسحوق لصنع الكعك ووقف ينظر إليها. فتشا أدراج إحدى الخزائن في قاعة الطعام ثم دخلا إلى غرفة المعيشة حيث استقرت لفائف من ورق الحائط على الأرض مثل وثائق تنتمي إلى زمن غابر. ترك الصبي جالسا على الدرج حاملا المعاطف وصعد إلى أعلى.

فاحت رائحة الرطوبة والعفن من كل شيء. في حجرة النوم الأولى رأى جثة ناشفة والغطاء حول عنقها وبقايا لشعر متعفن على الوسادة. أمسك الطرف السفلي من البطانية وسحبها عن السرير ورجها جيدا قبل أن يطويها تحت ذراعه. فتش الأدراج والخزائن فلم يجد سوى فستان صيفي على حامل من السلك. نزل الدرج. بدأ الظلام يغشى المكان فأخذ الصبي من يده وخرج به من الباب الأمامي إلى الشارع.

عند قمة التل استدار وتفحص البلدة. خيم الظلام سريعا مصحوبا بالبرد. وضع اثنين من المعاطف على كتفي الصبي فابتلعتا السترة وكل شيء.

- إني جائع جدا يا أبي.
- أعرف ذلك.
- هل سنستطيع العثور على متاعنا؟

- نعم. أعرف مكانه.

- ماذا لو وجده شخص ما؟

- لن يجده أحد.

- إني آمل ذلك.

- لن يجده أحد. هيا.

- ما هذا الصوت؟

- لم أسمع شيئا.

- أصغ.

- لا أسمع شيئا.

أصغيا. ثم سمع كلبا ينبح فاستدار الرجل ونظر نحو البلدة التي غشيها الظلام وقال: إنه كلب.

- كلب؟

- نعم.

- من أين أتى؟

- لا أعرف.

- لن نقتله، أليس كذلك يا أبي؟

- لا. لن نقتله.

نظر إلى الصبي الذي كان يرتجف في معطفيه ثم انحنى وقبله على وجهه الخشن وقال: لن نؤذي الكلب. أعدك بذلك.

قضيا تلك الليلة في سيارة متوقفة تحت ممر في الأعلى والمعاطف والبطانية مكومة فوقهما. كان بإمكانهما في الظلمة والسكون رؤية نزر ضوء بسيط ظهر عشوائيا في عتمة الليل.

لـــف الأدوار العليا من المباني ظلام دامـــس. كان يلزم حمل الماء إلـــى الأدوار العلويـــة وكان من الممكن للمـــرء أن يختنق في أثناء ذلك. ماذا كانوا يأكلون؟ الله وحده يعلم ذلك. جلسا ملفوفين في معاطفهما ينظران عبر النافذة.

- من يكونون يا أبي؟

-لا أعرف.

❖ ❖ ❖

أفاق في الليل وجعل يصغي. لم يستطع أن يتذكر المكان الذي كان فيه، فجعلته تلك الفكرة يبتسم. تساءل: أين نحن؟

- ما الأمر يا أبي؟

- لا شيء. نحن على ما يرام. اذهب لتنام.

- سنكون بخير، أليس كذلك يا أبي؟

- بلى. نحن كذلك.

- ولن نتعرض لأي أذى.

- هذا صحيح.

- لأننا نحمل المسدس.

-نعم. لأننا نحمل المسدس.

كان المطر البارد يهطل في الصباح ويعصف من فوق السيارة ومن تحـــت الممر العلوي ويرقص في الطريق من فوق. جلســـا وراقبا ما يحدث من خلال الماء على الزجاج. عندما خف المطر كان جل النهار قد ولى. تركا المعاطـــف والبطانية على الأرضية في المقعد الخلفي وسارا إلى أعلى الطريق ليفتشا مزيدا من المنازل. بدا الدخان منبعثا من الأخشاب في الهواء الرطب. لم يسمعا الكلب ينبح مرة أخرى.

وجـــدا بعض الأوعية وبضع قطع مـــن الملابس من بينها أحد القمصان الثقيلة وبعض البلاســتيك الذي يمكن أن يســتخدماه كمشـــمع. كان متأكدا أن شخصا ما يراقبهما، لكنه لم ير أحدا. في حجرة للمؤن عثرا على جزء من كيس لوجبة من الذرة نهشتها الجـــرذان منذ زمـــن طويل. غربل الوجبة علـــى قطعة من زجاج إحـــدى النوافذ وجمع حفنة صغيرة من الـــذرة المطحونة. أوقدا نارا على الشرفة الأسمنتية وصنعا قطعا من الكعك جهزاها على صفيحـــة من التنك. ثم أكلا منها ببطء الواحدة تلو الأخرى قبل أن يلف القليل الذي بقي منها بورقة ويضعه في الحقيبة.

كان الصبـــي يجلس على الدرج عندما رأى شـــيئا يتحرك من خلـــف البيت عبر الطريق. كان الذي ينظـــر إليه وجه صبي من عمره تقريبا، يلف نفســـه في معطف واســـع من الصوف بأكمام مطوية إلى الخلف. وقف ثم جرى عبر الطريق إلى الممر حيث لم يكن أحد هناك. نظر نحو البيت ثم جرى إلى منتصف الســـاحة عبر الأعشاب الميتة ليصل إلى جدول راكد يتشح بالسواد. ناداه: ارجـــع إلى هنا. لن أؤذيك. كان واقفـــا هناك ينتحب عندما جاء والده جاريا عبر الطريق ليمسكه من ذراعه.

- ماذا تفعل هنا؟ ماذا تفعل؟

- يوجد صبي صغير يا أبي. يوجد صبي صغير.

نعم. يوجد صبي. لقد رأيته.

- قلـــت لك أن تبقى في مكانك. ألم أقل لك ذلك؟ الآن علينا أن نذهب. هيا.

- أريد فقط أن أراه يا أبي. أريد فقط أن أراه.

أخذه الرجل من ذراعه وعادا عبر الساحة. لم يتوقف الصبي عـن البكاء والنظـر إلى الخلف. هيـا، قال الرجـل. ينبغي أن نذهب.

- أريد أن أراه يا أبي.

- ليس ثمة أحد يمكن رؤيته. هل تريد أن تموت؟ هل هذا ما تريده؟

- لا يخيفني ذلك، قال الصبي منتحبا. لا يخيفني ذلك.

توقف الرجل. وقرفص وضمه إليه. قال: إني آسـف. لا تقل ذلك. ينبغي ألا تقول ذلك.

شقا طريقهما عائدين عبر الشوارع المبتلة إلى الجسر وأخذا المعاطف والبطانية من السيارة وصعدا إلى جسر السكة الحديد وعبرا السـكة إلى الغاب. ثم أحضرا العربة واتجها إلى الطريق الرئيسية.

- ماذا لو أن الصبي الصغير ليس هناك من يعتني به؟ سـأل الصبي. ماذا لو لم يكن له أب يا أبي؟

- يوجد أناس هناك. كانوا متوارين، ليس إلا.

دفع العربة إلى الطريق ووقف هناك. كان بإمكانه أن يرى آثار الشاحنة عبر الرماد الرطب، باهتة ومتلاشية لكنها بادية للعيان. خطرت بباله فكرة أنه يسـتطيع أن يشـم رائحتهم. كان الصبي يسحب معطفه. نطق: يا أبي.

- ماذا؟

- إني خائف على ذلك الصبي الصغير.

- أعرف ذلك. لكنه سيكون بخير.

– ينبغي أن نعود لنحضره، يمكن أن نجده ونأخذه معنا. يمكن أن نأخذه ونأخذ الكلب. يمكن للكلب أن يصيد لنا شيئا نأكله.

– لا يمكننا ذلك.

– وسأعطي الصبي الصغير نصف طعامي.

– كفى. لا يمكننا ذلك.

– بدأ يبكي من جديد. ماذا عن الصبي الصغير؟ كرر منتحبا. ماذا عن الصبي الصغير؟

عند تقاطع للطرق جلسا وقت الشفق ونشر قطع الخريطة في الطريق وتفحصها. أشار بإصبعه قائلا: نحن هنا. هنا بالضبط. لـــم يلتفت الصبي. جلس الرجل يتفحص شـــبكة الطرق الملتوية باللونين الأحمر والأسود وإصبعه لم تزل على التقاطع حيث ظن أنه موقعهما، وكأنه يرى جســـديهما الصغيرين مستلقيين هناك. يمكننـــا العودة، قال الصبي بلطف. لا يبعد المكان كثيرا. لم يفت الأوان.

خيما في فجوة بين الأشـــجار ليســـت بعيدة عن الطريق. لم يتمكنـــا من العثور على مكان متـــوار فقررا عدم إيقاد النار. أكل كل منهمـــا قطعتين من كعك الذرة المتبقي وناما معا على الأرض في معاطفهما وبطانياتهما. ضم الرجل الطفل وبعد برهة توقف الصبي عن الارتجاف قبل أن يستسلم للنوم.

«تبعنا الكلب الذي يتذكره الصبي يومين. حاولت أن أغريه بالاقتراب لكنه أبى. صنعت أنشـــوطة من الســـلك للإمساك به. ابتعد الكلب في أســـفل الطريـــق. تعقبه الصبي بنظره ثم نظر إلـــيّ ثم إليه وبدأ بالبكاء والتوســـل لـــي لكي أبقي على

حيـــاة الكلب. وعدته بألا أؤذيـــه. كان كلبا بهيكل عظمي قوي وقـــد امتد الجلد فوق عظامه. في اليوم التالي اختفى الكلب. ذلـــك هو الكلب الذي يتذكره الصبـــي. إنه لا يتذكر أي صبية صغار».

كان قـــد لف حفنة من الزبيـــب بقطعة قماش في جيبه وعند الظهر جلســـا بين العشـــب الميت بجانب الطريق وأكلاها. نظر الصبي إليه وقال: هذا كل ما نملك، أليس كذلك؟

- نعم.

- هل سنموت الآن؟

- لا.

- ماذا سنفعل؟

- سنشرب بعض الماء، ثم نتابع مسيرنا في الطريق.

- حسنا.

في المســـاء عبرا أحد الحقول في محاولة للعثور على مكان متوار عـــن الأنظار يمكنهما أن يوقدا فيه نارا. كانا يســـحبان العربـــة من ورائهمـــا على الأرض وقد فقـــدا الأمل تقريبا في تلك المنطقـــة المقفرة. غدا ربما ســـيجدان شـــيئا لطعامهما. غشـــيهما الليل في طريق موحلة. عبـــرا أحد الحقول واندفعا نحو مجموعة بعيدة من الأشـــجار بدت جرداء سوداء في ظل نور الســـماء في عالم قـــد توارى تقريبا. عندمـــا وصلا إليها كان الظلام قد حل. أمســـك يد الصبـــي وجمع بعض العيدان والأغصـــان وأوقد نارا. كان الحطب مبتلا لكنه قشـــط اللحاء الميت بمديتـــه وكوم العيدان والأغصان حـــول النار لتجف. ثم

مد المشـــمع على الأرض وأحضــر المعاطــف والبطانيات من العربة. خلع حذاءه المبتل والمتســخ بالوحل وجلســا في صمت وأيديهما مرفوعة نحو اللهب. حاول أن يفكر في شـــيء يقوله لكنه لم يفلح. لقد تولد هذا الشعور لديه من قبل في ظل غياب الحــواس واليأس الدائم حيث انكمــش العالم ليحيط بجوهر الأشياء المتحللة. تبعت أســماء الأشياء ببطء تلك الأشياء إلى عالم النســيان بما فيها الألوان وأسماء الطيور والأشياء التي تؤكل وأخيرا أسماء الأشياء التي يعتقد المرء أنها حقيقية. لقد كانت أكثر هشاشـــة مما كان يمكن أن يتصور. كم من الأشياء انتهى حتى الآن؟ لقد انفكت لغة القداســـة عن رموزها وكذلك عن ماهيتها. تلاشـــت مثل شيء يحاول المحافظة على حرارته في سباق مع الزمن قبل أن ينتهي إلى الأبد.

ناما تلك الليلة وقــد أصابهما الإرهاق وعند الصباح كانت النار قد خمدت واســودت علـــى الأرض. ارتدى حذاءه الملطخ بالوحــل وذهب لجمع الحطب وهو ينفخ في يديه المضمومتين. كان البرد قارسا. ربما كان الوقت شهر نوفمبر وربما بعد ذلك. أوقد نارا ثم ســـار إلى حافة الفجوة ووقــف يتفحص المناطق الريفيـــة. لاحت الحقــول الميتة وبدت مزرعـــة للحيوانات عن بعد.

ســـارا على امتداد الطريق الترابية وبمحـــاذاة أحد التلال حيث شُيد منزل في يوم من الأيام لكنه احترق منذ زمن بعيد. بـــدا هيكل لفرن صدئ اســـتقر فـــي المياه الســـوداء في القبو وتبعثرت صفائح مثنية من السقف المعدني متشحة بالسواد في

الحقول حيث أخذتها الرياح. عثرا في مزرعة الحيوانات على بضـــع حفنات من حبوب لم يميزاهـــا على قاعدة وعاء معدني فالتهماها بغبارها. ثم انطلقا عبر الحقول نحو الطريق.

❖ ❖ ❖

ســـارا بموازاة جدار حجري متجاوزين بقايا أحد البســـاتين، حيث بدت الأشـــجار في أســـرابها المنظمة متجعدة سوداء وقد غطت الأغصان الســـاقطة الأرض مـــن تحتها. توقف ونظر عبر الحقـــول حيث يتحرك الرماد الناعم في الأخاديد ثم توقف قبل أن يتحرك من جديد وهكذا. لقد شاهد كل هذا من قبل. شاهد أشكال الدماء الجافة في بقايا العشب ولفات الأحشاء الرمادية حيث ذُبح الضحايا في الحقول ونقلوا بالعربات. شاهد الرؤوس البشـــرية مصفوفـــة خلف الجدار في نســـق واحـــد وقد جفت واستسلمت بابتساماتها المشدودة وعيونها الغائرة. وبدت أقراط الذهب في الآذان الجافة، وتلوى الشـــعر الأشـــعث المتناثر على الجماجم وقبعت الأســـنان في محاجرها مثل قوالب ضرســـية، ولاحت الوشوم غير المتقنة المرسومة بصمغ بيتي باهتة في ضوء الشمس المتلاشـــي بما فيها العناكب والسيوف والبنادق والتنين والشـــعارات الرنانـــة والعقائد التي كتبت بتهجئـــة خاطئة، وقد خيطت الندب القديمة بشـــعارات قديمة على امتداد حدودها. شـــاهد الرؤوس غير المطروقة بالعصي وقد سلخت عن جلدها والجماجم العارية وقد جرى دهنها وتوقيعها على جباهها بخط غير مقروء وإحدى الجماجم البيضاء وقد ســـطر عليها بالحبر بعنايـــة كأنها جدول أعمال لاجتماع مـــا. نظر وراءه إلى الصبي

ثم وقف بجانب العربة في مهب الريح. نظر إلى العشـب الجاف الذي كان يتحرك وإلى الظلمة والأشجار المائلة في أسرابها. بدت بضـع قطع من الملابس عالقة بالجدار وبدا كل شـيء كئيبا في الرماد. سـار بموازاة الحائط مارا بالصور، تذكرها في مراجعة أخيرة ومضـى من خلال معبر إلى حيـث ينتظر الصبي. وضع ذراعه حول كتفه وقال: حسنا. لنتابع المسير.

لقد قرأ رسـالة في كل فصل من فصول ذلك التاريخ الغابر، رسـالة وتحذير في الوقت نفسـه. وهكذا فعلت لوحة الضحايا والتهام اللحوم البشـرية فعلها عنده. أفاق في الصباح واستدار فـي بطانيته ونظر خلفه إلى أسـفل الطريق من بين الأشـجار عبـر الممر الذي كانا قد سـلكاه في أثنـاء عودتهما ليرى أربعة رجال يسيرون جنبا إلى جنب، يرتدون ملابس بأوصاف مختلفة وجميعهم يرتدون أوشحة حمراء أو برتقالية حول أعناقهم، أقرب إلـى اللون الأحمـر إلى حد كبير. وضع يـده على رأس الصبي وقال: اهدأ.

- ما الأمر يا أبي؟

- ثمة أناس في الطريق. أخفض رأسك. لا تنظر.

لم ينبعـث أي دخان من النار الخامدة ولا يمكن رؤية العربة. انبطـح أرضا وجعل يراقب من فـوق الجزء الأمامي من ذراعه. أطل جيـش يضـرب الأرض بأقدامه مرتديا أحذيـة رياضية، حامـلا مزامير بطول ثلاث أقدام بأغطيـة جلدية. لف الرجال أحبالا قصيرة حول معاصمهم. غطيت بعض المزامير بعدد طويل من السلاسل ثُبتت في نهاياتها أنواع مختلفة من الهراوات. مروا

يقعقعون متمايلين في مشـــيتهم مثل ألعـــاب أطلقت بعد ملئها، وكانوا ملتحين وأنفاســـهم تنفث من تحت أقنعتهم. همس: اهدأ. اهـــدأ. كانت الكتيبة من خلفهم تحمل رماحا أو مشـــارط زُينت بأشرطة وصنعت أنصالها الطويلة من زنبرك الشاحنات بحدادة بدائية في المناطق الجبلية. اســـتلقى الصبي ووجهه بين ذراعيه في حالة من الرعب. تجاوزوا مســـافة مائتي قدم والأرض ترتج قليلا تحت أقدامهم، يشـــقون طريقهم وقـــد ظهرت من خلفهم العربـــات التي يجرها أطقـــم العبيد محملة بعـــدة الحرب ومن ورائهـــم ما يقارب اثنتي عشـــرة امرأة، بعضهـــن حبالى، وأخيرا بدت مجموعة مكملة من الولدان بملابس لا تقيهم من البرد وقد طوقت أعناقهم ورُبطوا بالسلاســـل. الجميع مروا في طريقهم. افترشا الأرض وهما يصغيان.

- هل ذهبوا يا أبي؟
- نعم. لقد ذهبوا.
- هل رأيتهم؟
- نعم.
- هل كانوا من الأشرار؟
- نعم. إنهم من الأشرار.
- هناك كثير منهم، أولئك الأشرار.
- نعم. هناك كثير لكنهم رحلوا.

وقفا ونفضا الغبار عن نفســـيهما وهما يصغيان إلى السكون عن بعد.

- إلى أين هم ذاهبون يا أبي؟

- لا أعرف. إنهم يتحركون باستمرار. وهذه ليست إشارة جيدة.

- لماذا هي ليست إشارة جيدة؟

- هي كذلك، ليس إلا. علينا إحضار الخريطة وإلقاء نظرة.

❖ ❖ ❖

سحبا العربة من تحت الأغصان ورفعاها وكوما البطانيات والمعاطف فيها قبل أن يندفعا بها إلى الطريق. وقفا ينظران إلى حيث يبدو آخر أثر تركه ذلك الحشد الأشعث وكأنه صورة تخلفت وراءهم في الهواء المضطرب.

عند العصر بدأ الثلج يتساقط من جديد. وقفا يراقبان حبات الثلج الرمادية الباهتة تتساقط في الضباب الكئيب. تابعا سيرهما بصعوبة حيث تشكلت طبقة رقيقة من الجليد على السطح الداكن للطريق. ظل الصبي يتخلف وراءه فيتوقف وينتظره. قال له: سر معي.

- أنت تسير بسرعة كبيرة.

- سأبطئ مشيتي.

- أنت لا تتكلم مرة أخرى.

- أنا أتكلم الآن.

- هل تريد التوقف؟

- أنا أريد التوقف دائما.

- علينا أن نكون أكثر حذرا. عليّ أن أكون أكثر حذرا.

- أعرف ذلك.

- سنتوقف. حسنا.

- حسنا.
- علينا أن نجد مكانا.
- حسنا.

❖ ❖ ❖

أعاق الثلج المتساقط حركتهما ولم يتمكنا من رؤية أي شيء على جانبي الطريق. بدأ يسعل من جديد والصبي يرتجف، وأخيرا قرر الرجل التوقف. كان الطفل يرتجف بشدة.

قال: يجب أن نتوقف.

- أشعر بالبرد الشديد.
- أعرف ذلك.
- أين نحن؟
- أين نحن؟
- نعم.
- لا أعرف.
- إن كنا سنموت هل لك أن تخبرني؟
- لا أعرف. لكننا لن نموت.

تركا العربة مقلوبة رأسا على عقب في حقل للبردي وأخذا البطانيات والمعاطف وقد لفاها في المشمع وانطلقا. أمسك بمعطفي، قال للصبي. لا تتركه أبدا. عبرا بين البردي إلى سياج حيث خفّض كل منهما الأسلاك للآخر ليتمكن من العبور. كانت الأسلاك باردة وتصدر صريرا في الإسطبل. بدأ الظلام يخيم بسرعة. تابعا سيرهما ووصلا إلى غابة من الأرز. كانت الأشجار ميتة وسوداء لكنها حافظت على درجة من الكثافة لالتقاط الثلج.

بدت تحت كل واحدة منها دائرة مناسبة من التربة السوداء وأوراق الأرز.

خيما تحت إحدى الأشـــجار وكوما البطانيات والمعاطف على الأرض. لف الرجل الصبي في إحدى البطانيات وبدأ يجمع القش الميت في كومة. نظف رقعة من الأرض حيث يمكن إيقاد النار من دون أن تؤدي إلى اشــتعال الشــجرة. جلب الحطب من الأشجار الأخرى وقطّعه ونفض عنه الثلج. عندما أشعل الأغصان الرقيقة الوافرة بالقداحة طقطقت النار مباشرة لكنه كان يعرف أن ذلك لــن يدوم طويــلا. نظر إلى الصبي وقال: علــي أن أذهب لجمع المزيد من الحطب. سأكون في جوارك. حسنا.

- ماذا تعني بجواري؟

- أعني أنني لن أبتعد كثيرا.

- حسنا.

وصل ارتفاع الثلج الآن إلى نصف قدم. تخبط بين الأشــجار وهو يســحب الأغصان الســاقطة حيث برزت مــن تحت الثلج. عندما أصبــح لديه حزمة عاد بها إلى حيث النار التي كانت قد تناقصت إلى بضع جمــرات مترنحة. رمى بالأغصان على النار وانطلــق مرة أخرى. كانت الرؤية صعبــة حيث خيم الظلام في الغاب. لــم يكن النور القادم من النار يصل إلى مســافة بعيدة. التعجل هنا سيعطي نتائج عكسية. عندما نظر خلفه كان الصبي يتخبط فــي الثلج الذي وصل إلى ركبتيــه وهو يجمع الأغصان ويكومها بين ذراعيه.

اســتمر الثلج في التساقط. ظل مستيقظا طوال الليل ونهض

وأحيا النار من جديد. فتح المشمع وأسند أحد أطرافه إلى أعلى من تحت الشجرة في محاولة لعكس الحرارة من النار. نظر إلى وجه الصبي النائم في ظل النور البرتقالي. بدا خداه الغائران مخططين بالسواد. سيطر على أعصابه على الرغم من فقده الأمل. لم يقدّر أن الصبي سيستطيع متابعة المسير مسافة طويلة فحتى لو توقف الثلج سيكون من غير الممكن عبور الطريق. همس الثلج عبر السكون وارتفع الشرر وانطفأ قبل أن يتلاشى في العتمة السرمدية.

كان بين النوم واليقظة عندما سمع سقطة في الغاب، ثم أخرى، فاعتدل جالسا. تناقصت النار إلى لهب توارى بين الجمر. أصغى فسمع صوت خشخشة طويلة لأغصان تتكسر. ثم جاءت سقطة أخرى. مد يده وهز الصبي قائلا: انهض. علينا الذهاب.

مسح النوم من عينيه بظهري يديه. ما الأمر؟ ما الأمر يا أبي؟

- هيا. يجب أن نرحل من هنا.

- ما الأمر؟

- إنها الأشجار. إنها تسقط أرضا.

اعتدل الصبي جالسا ونظر حوله بعشوائية.

- كل شيء على ما يرام، قال الرجل. هيا. ينبغي أن نسرع.

جمع الفراش وطواه ولفه بالمشمع. دخل بعض الثلج في عينيه أثناء ذلك. كانت النار قد تحولت إلى فحم تقريبا وقد خلت من أي نور. كانت الغابة تتلاشى في معظمها والأشجار تتهاوى

مـــن حولهما من جميع الجوانب فـــي العتمة. التصق الصبي به. ابتعـــدا عن المكان وحـــاول العثور على رقعـــة فارغة في الظلام لكنه أخيرا أنزل المشـــمع وجلســـا على هذه الحال. لفا نفسيهما بالبطانيـــات وضم الصبي إليه. هزت فرقعة الأشـــجار المتهاوية والهدير الخفيض لســـقوط أحمال الثلج على الأرض الغابة هزا. ضـــم الصبي وقال له إن الأمور ســـتكون على مـــا يرام وإن ذلك سيتوقف قريبا وهذا ما حدث بعد برهة. بدأت الأصوات الرتيبة تتلاشـــى عن بعد، وحيدة وبعيدة مرة أخرى، ثم ســـاد السكون. أشار قائلا: هناك. أعتقد أن هذا هو المكان المناسب. حفر نفقا تحت إحدى الأشجار المطروحة أرضا وأزاح الثلج بذراعيه حيث كانـــت يداه المتجمدتان غائرتين في أكمام ثيابه، ســـحبا الفراش والمشـــمع إلى الداخل وبعد برهة استســـلما للنوم من جديد في ذلك البرد القارس.

عندمـــا انبلج النهار شـــق طريقه إلى خـــارج النفق وقد أثقل الثلج المتراكم المشمع. وقف ونظر حوله. لقد توقف تساقط الثلج وكانت أشجار الأرز جاثمة في أكوام من الثلج والأغصان المتكسرة، وبـــدت بضع جذوع منتصبة تقـــف عارية كأنها احترقت في تلك الأراضي المتشحة باللون الرمادي. خرج عبر الثلج المتراكم تاركا الصبي نائما تحت الشجرة مثل حيوان في فترة بيات شتوي. كاد الثلج يصل إلـــى ركبتيه، وكان البردي الميت في الحقل قد توارى عن الأنظار تقريبا، وقد شكل الثلج شفرات منتصبة على أسلاك الســـياج، وكان الصمت حابسا للأنفاس. وقف يسعل متكئا على أحـــد الأعمدة. لم تكن لديه فكرة واضحة عن مكان العربة وظن

أنه فقد صوابه وأن عقله لم يعد يعمل بشـــكل طبيعي. استجمع أفكارك، قال لنفسه. عليك أن تستجمع أفكارك. عندما استدار للعودة، كان الصبي يناديه.

خاطـــب الصبي قائلا: يجب علينا أن نرحل. لا يمكننا البقاء هنا.

حدق الصبي بكآبة في الثلج الرمادي المتراكم.

- هيا.

شقا طريقهما إلى السياج.

- إلى أين نحن ذاهبون؟ سأل الصبي.

- يجب أن نجد العربة.

وقف ويداه في إبطي سترته.

- هيا، قال الرجل. يجب أن تتحرك.

شق طريقه عبر الحقول المغطاة بالثلج حيث كان الثلج عميقا، وقد اســـتقبل طبقة جديدة من الرماد. لم يقطع إلا بضع أقدام بصعوبة عندما اســـتدار ونظر إلـــى الخلف. كان الصبي قد وقع فرمى بالبطانيات والمشمع على الثلج وعاد ليساعده. كان الصبي يرتجف فرفعه وضمه إليه. قال: إني آسف. إني آسف.

قضيـــا وقتـــا طويلا قبل أن يعثـــرا على العربـــة. أخرجها من الثلج وأخرج الحقيبة ونفضها قبل أن يفتحها ويحشو فيها إحدى البطانيـــات. وضـــع الحقيبة والمعاطف في صنـــدوق العربة ورفع الصبي وأجلســـه عليها. فك رباط حذائه وخلعه. ثم أخرج مديته وجعـــل يقص أحد المعاطف ويلف قدمي الصبي. اســـتخدم كامل المعطف ثم قص مربعات كبيرة من المشمع البلاستيكي وجمعها من

الأسفل ولفها وربطها على كاحلي الصبي بحواف أكمام المعطف. خطا إلى الخلف. نظر الصبي إلى أسفل وقال: والآن دورك، يا أبي. لف أحد المعاطف حول الصبي ثم جلس على المشمع في الثلج ولف قدميه. وقف وأدفأ يديه في داخل السترة ثم وضع أحذيتهما في الحقيبة مع المنظار وشاحنة الصبي. هز المشمع جيدا وطواه وربطه مع البطانيات الأخرى في أعلى الحزمة قبل أن يرميها على كتفه. ثم ألقى نظرة أخيرة إلى العربة وقال: لنذهب. ألقى الصبي نظرة هو الآخر إلى العربة ثم تبعه متجها إلى الطريق.

لقد كان المسير أصعب مما كان يتصور. قطعا في نحو ساعة مسافة ميل تقريبا. توقف ونظر خلفه إلى الصبي. توقف الصبي وانتظر.

– تعتقد أننا سنموت، أليس كذلك؟

– لا أعرف.

– لن نموت.

– حسنا.

– لكنك لا تصدقني.

– لا أعرف.

– لماذا تظن أننا سنموت؟

– لا أعرف.

– توقف عن قول لا أعرف.

– حسنا.

– لماذا تظن أننا سنموت؟

– لا يوجد لدينا أي طعام.

- سنجد شيئا ما.

- حسنا.

- كم يستطيع الإنسان أن يبقى من دون طعام؟

- لا أعرف.

- لكن كم برأيك؟

- ربما بضعة أيام.

- ثم ماذا؟ يخر ميتا؟

- نعم.

- في الحقيقة إن الأمر ليس هكذا. يأخذ ذلك وقتا طويلا. يوجد لدينا ماء وهذا أهم شيء. لا يستطيع الإنسان أن يبقى طويلا من دون الماء.

- حسنا.

- لكنك لا تصدقني.

- لا أعرف.

نظر إليه مليا. كان الصبي واقفا ويداه في جيبي المعطف الواسع المخطط بالإشارات.

- هل تعتقد أنني أكذب عليك؟

- لا.

- لكنك تتصور أنه يمكن أن أكذب عليك بخصوص الموت.

- نعم.

- حسنا. ربما، لكننا لن نموت.

- حسنا.

❖ ❖ ❖

تأمل السـماء مليـا. لقد مـرت أيام كانـت تخفت فيها طبقة الرماد في الجو والآن رسـمت الأشـجار الواقفة على امتـداد الطريق ظلالها الباهتة على الثلج. تابعا مسـيرهما. لم يكـن الصبي على ما يرام. توقـف وتفحص قدميه وأعاد ربط البلاسـتيك حولهما. عندما بدأ الثلج بالذوبان كان من الصعب عليهما تجنب ابتلال أقدامهما. وكثيرا ما توقفا لأخذ قسط من الراحة. لم تسـعف الرجل قوته البدنية على حمل الطفل. جلسا على الحقيبة والتهما حفنات من الثلج المتسخ. مع حلول العصر بدأ الثلج بالذوبان. مرا بمنزل قد احترق ولم يبق منه سـوى مدخنة القرميد منتصبة في السـاحة. قضيا يومهما برمته في الطريق ويا له من يوم. مرت عليهما ساعات عصيبة وربما يكونان قد قطعا ثلاثة أميال.

اعتقد أن الطريق سـتكون سيئة إلى درجة يستحيل لأحد أن يسلكها لكنه كان مخطئا. خيما في الطريق تقريبا وأوقدا نارا عظيمة حيث سـحبا الأغصان الميتـة من الثلج وكوماها فـوق اللهب حيـث طقطقت محترقة. كانـت النار هي الملاذ الوحيد، فالبطانيات القليلة لم تكن لتوفر الدفء لهما. حاول أن يبقى مسـتيقظا وكان يقفز ليجلـس من نومه ويتلمس ما حوله بحثا عن المسـدس. بدا الصبي نحيلا جدا. راقبه وهو يغـط في النوم وتمعن في وجهه المشـدود وعينيه الغائرتين. شاهد جمالا من نوع غريب. نهض وألقى بالمزيد من الحطب على النار.

❖ ❖ ❖

خرجا إلى الطريق ووقفا فيها. لاحظا أثرا لعربة بعجلات في الثلج، ربما كان شـيئا بعجلات مطاطية بجانب وقع أقدام كانت ترتدي أحذية رياضية بين العجلات. لقد سلك شخص ما الطريق ليلا متجها شمالا، مع طلوع الفجر على أبعد تقدير. وقف يفكر في ذلك وتقدم في خطواته بحذر. ابتعدا نحو خمسين قدما عن النار ولم يبطئا في مشيتهما لتفقد المكان. وقف ينظر خلفه إلى أعلى الطريق. كان الصبي يراقبه.

- ينبغي أن نخرج من الطريق.
- لماذا يا أبي؟
- ثمة أناس قادمون.
- هل هم من الأشرار؟
- نعم. أعتقد ذلك.
- ربما يكونون من الأخيار. أليس ذلك ممكنا؟

لم يرد. نظر إلى السماء لكنه لم ير شيئا.

- ماذا سنفعل يا أبي؟
- لنذهب.
- هل نستطيع العودة إلى النار؟
- لا. هيا. ربما لا نملك كثيرا من الوقت.
- إني جائع جدا.
- أعرف ذلك.
- ماذا سنفعل؟
- يجب علينا أن نختبئ. لنخرج من الطريق.
- هل سيرون أثرنا؟

- نعم.

- ما الذي نستطيع فعله في هذا الأمر؟

- لا أعرف.

- هل سيعرفون من نحن؟

- ماذا؟

-إذا رأوا أثرنا، هل سيعرفون من نحن؟

نظـر خلفه إلى آثارهـم الدائرية الضخمة فـي الثلج وقال: سيكتشفون الأمر؟ ثم توقف.

- علينا أن نفكر في الأمر. لنرجع إلى حيث توجد النار.

لقـد فكر في أن يجد مكانا ما فـي الطريق حيث ذاب الثلج بشـكل كامل، لكنه اعتقد أن ذلك لن يكون له جدوى لأن أثرهما لن يظهر مرة أخرى في الجهة البعيدة. غطيا النار بالثلج وسارا بين الأشـجار ثم دارا وعـادا من جديد. جريا بسـرعة تاركين وراءهمـا متاهة من الآثار ثم اتجها شـمالا عبر الغاب والطريق بادية للعيان.

كان المكان الذي وقع عليه اختيارهما ببسـاطة أعلى نقطة مرا بها وقد مكنهما من مراقبة الطريق الممتدة شمالا وكذلك أطل على الدرب الذي سـلكاه. مد المشمع على الثلج الرطب ولف الصبي بالبطانيات. قال: سـتعاني البرد، لكننا ربما لن نمكث هنا طويلا. خلال سـاعة نزل الطريق رجلان في حالة عـدو تقريبا وعندما مرّا وقـف ليراقبهما، وعندما فعل ذلك توقف أحدهما ونظر خلفه. تجمد في مكانه. كان يلف نفسه في إحدى البطانيات الرمادية ومن الصعب رؤيته على الرغم

من عدم اســتحالة ذلك، لكنه فكر في إمكان أن يشما رائحة الدخان. وقفا يتحدثان ثم تابعا سيرهما. جلس وقال: الأمور على مــا يرام. علينــا أن ننتظر، ليس إلا. لكننــي أعتقد أن الأمور جيدة.

لم يكن لديهما أي طعام ولم يناما إلا قليلا خلال خمسة أيام. وفي هذا الوضع فــي ضواحي إحدى المدن الصغيرة مرا بمنزل يبدو أنه كان ضخما وقد بني على تل فوق الطريق. وقف الصبي ممســكا بيده. لقد ذاب جل الثلج الذي كان على الأســفلت وفي الحقول المواجهة للجنوب وفي الغاب. وقفا وقد تمزقت الأكياس البلاســتيكية التي لفا بها أقدامهمــا منذ فترة طويلة وأصبحت أقدامهما مبتلة وباردة. كان المنزل عاليا وفخما بأعمدة إغريقية مــن الأمام وممــر للعربات إلى الداخل في أحــد الجوانب. بدا هناك ممر مرصوف بالحصى يتعرج عبر حقل من العشب الميت. ومن الغريب أن النوافذ بقيت على حالها.

- ما هذا المكان يا أبي؟
- اهدأ. لنقف هنا ونصغي فقط.

لم يسمعا شيئا. كانت الريح تعبث بنبات السرخس الميت على جانبي الطريق. ثم ســمعا صريرا من بعيد، ربما أحد الأبواب أو إحدى الستائر.

- أرى أنه ينبغي أن نلقي نظرة.
- أبي، أرى أن لا نذهب إلى هناك.
- سيكون الأمر عاديا.
- لا أرى أنه ينبغي الذهاب إلى هناك.

- لا ضير في ذلك. يجب أن نلقي نظرة.

تقدما ببطء نحو الممر ولم يلاحظا أي أثر في البقع العشوائية للثلج الذائب. بدا سياج عال من النبات الميت وظهرت أعشاش قديمة للطيور استقرت داخل أغصانه المتشابكة. وقفا في الساحة يتفحصان الواجهة. لقد صنع القرميد يدويا من الطين الذي يقف عليه المنزل وبدا الدهان المقشور ظاهرا في خطوط جافة طويلة على طول الأعمدة ومن داخل الأقواس، وتدلى مصباح من إحدى السلاسل. التصق الصبي به بينما كانا يصعدان الدرج. كانت إحدى النوافذ مفتوحة قليلا حيث تدلى منها حبل عبر الشرفة واختفى بين الأعشاب. أمسك يد الصبي وعبرا الشرفة. لقد وطئ تلك الألواح في يوم ما الخدم حاملين الطعام والشراب على صوان فضية. ذهبا إلى النافذة ونظرا إلى الداخل.

- ماذا لو أن شخصا ما هنا يا أبي؟
- لا يوجد أحد هنا.
- ينبغي أن نذهب يا أبي.
- علينا أن نجد بعض الطعام. ليس لدينا أي خيار آخر.
- يمكن أن نجد طعاما في مكان آخر.
- سيكون كل شيء على ما يرام، هيا.

❖ ❖ ❖

أخرج المسدس من حزامه ودفع الباب. انفتح الباب ببطء واستقر على مفاصله النحاسية الضخمة. ثم توقفا في ردهة فسيحة، أرضيتها على شكل مربعات من المرمر الصغير باللونين الأسود والأبيض. بدا درج عريض يصعد إلى أعلى وتدلى الورق

الرقيق على الجدران وقد ظهرت عليه بقع الماء. برزت انتفاخات كبيرة في سقف الجص وانفصمت الحواف المصفرة متدلية من أعلى الجدران. إلى الشمال عبر الممر استقرت خزانة ضخمة من البلوط فيما يبدو أنه كان قاعة للطعام. لقد اختفت الأبواب والأدراج لكن ما تبقى من الخزانة كان من الضخامة بحيث لم تأت عليه النيران. توقفا في الممر. استقرت كومة ضخمة من الأشياء في إحدى زوايا الغرفة تضم ملابس وأحذية وأحزمة وبطانيات وأكياسا للنوم. سيكون لديه وقت كاف فيما بعد للتفكير في ذلك. التصق الصبي بيده وقد أصابه رعب شديد. عبرا الردهة إلى الغرفة في الجهة البعيدة ووقفا في داخلها. كانت قاعة ضخمة بأسقف عالية تبلغ ضعفي ارتفاع الأبواب ضمت مستوقدا من القرميد المجرد، نُزع رفه الخشبي وحُرق، وهناك فرش مرتب على الأرضية أمام المستوقد. همس الصبي: أبي. قال له: اهدأ.

❖ ❖ ❖

كانت ذرات الرماد باردة. بدت بعض الأواني المسودة في المكان. قرفص على كعبيه ورفع أحد الأواني وشمها قبل أن يعيدها إلى مكانها. وقف ونظر عبر النافذة حيث لاح العشب الرمادي المسحوق والثلج الرمادي. كان الحبل الذي يتدلى من النافذة مربوطا بجرس من النحاس مثبتا بأداة من الخشب الصلب ثُبتت بإطار النافذة. أمسك يد الصبي ونزلا عبر ممر خلفي ضيق إلى المطبخ حيث تكومت القمامة في كل مكان، وبدت مغسلة ظهرت عليها بقع من الصدأ وقد فاحت رائحة العفن والقاذورات. مضيا

إلــى الغرفة الصغيرة المجاورة التي ربما كانت لتخزين المؤن. في قعــر هذه الغرفة ظهر باب سُــد بقفل ضخم مربوط بسلاســل فولاذية. وقف ينظر إلى الباب.

- أبي، ينبغي أن نغادر هذا المكان.

- ثمة سبب لإغلاق هذا الباب.

كان الصبي، وقد أوشك على البكاء، يشد يده. أبي؟

- يجب أن نجد طعاما.

- أنا لست جائعا، أبي. أنا لست جائعا.

- ينبغي أن نجد عتلة أو شيئا من هذا القبيل.

❖ ❖ ❖

اندفعا إلى الخــارج عبر الباب الخلفي وكان الصبي ملتصقا به. أدخل المســدس فــي حزامه ووقف يتفحص الســاحة حيث ظهر ممر من القرميد وما يبدو أنه كان صفا من أخشــاب نبات «البقس» بشكله المتشابك. في الساحة رأى مسحاة حديدية قديمة مســنودة على كوم من القرميد، وقد ثبت بين أمشاطها قدر من الحديد الصلب يتســع لأربعين جالونا من النوع الذي يســتخدم لتوليــد الخنازير. بدا من تحته رمــاد من نار وقطع متفحمة من الخشــب. ظهرت عربة صغيرة بعجــلات مطاطية على الجانب الآخــر. لقد رأى ولم ير كل هذه الأشــياء. فــي الجهة البعيدة من الســاحة بدا بيت خشــبي لتدخين اللحوم ومخزن للأدوات. عبر وهو يســحب الصبي عنوة تقريبا، وأخذ يبحث بين الأدوات الموجودة في برميل تحت ســقف المخزن. وجد مجرفا بيد طويلة فأخرجه من البرميل. ثم قال للصبي: هيا.

عندما أصبح داخل المنزل جعل يضرب بالخشب حول مشبك الباب وأخيرا حشر الشفرة تحت المشبك ورفعها. انفصلت عن الخشب فانفك كل شيء بما فيه القفل. انتزع شفرة المجرف من تحت حافة الألواح وتوقف. أخرج قداحته ثم وقف على شفرة المجرف ورفع حافة الجزء السفلي من الباب ومال إلى الأمام وثبته. أبي، همس الصبي.

توقف وقال: أصغ إليّ. كفى. نحن نموت جوعا. هل تفهم ذلك؟ ثم رفع الباب وهزه فسقط على الأرضية من الخلف.

قال للصبي: انتظر هنا فقط.

- إني ذاهب معك.

- ظننت أنك خائف.

- إني خائف.

- حسنا. ابق قريبا خلفي.

بدأ ينزل الدرج الخشبي الخشن وخفض رأسه وأشعل القداحة ومد الشعلة في الظلمة من مكان إلى آخر كأنه يقدم قربانا. أحسَّا بالبرد والرطوبة وفاحت رائحة كريهة. تعلق الصبي بمعطفه. رأى جزءا من جدار حجري وأرضية من الطين عليها فرشة قديمة ببقع داكنة. خفض جسمه ونزل الدرج من جديد وهو يمد الشعلة أمامه. شاهد أناسا عراة من ذكور وإناث مكومين على الجدار الخلفي يحاولون التواري وهم يغطون وجوههم بأيديهم. كان على الفرشة رجل فقد رجليه حتى الأرداف، كانت الرائحة لا تطاق.

همس: يا إلهي.

ثم اســتداروا الواحد تلو الآخــر ونظروا في الضوء الخافت. همسوا: النجدة. نرجوك أن تساعدنا.

صاح: يا إلهي. يا إلهي.

استدار وأمسك الصبي. بسرعة. هيا.

ســقطت القداحة منه. لم يكن هناك وقت للبحث عنها. دفع الصبي وصعدا الدرج. سمعا نداداتهم: ساعدونا.

-لنسرع.

لاح وجه ملتح يومض في أســفل الــدرج كان يناديه: أرجوك. أرجوك.

- أسرع. أسرع بحق السماء، خاطب الصبي.

رمى بالصبي عبر الفتحة على بطنه. ثم وقف وأمســك الباب ودفعه ليرتطم بالأرض. استدار ليمسك بالصبي لكن الصبي كان قد نهض وهو يرتجف رعبا. همهم: هلا أســرعت بحق السماء. لكن الصبي كان يشــير إلى خارج النافــذة وعندما التفت تجمد الدم في عروقه. كان أربعة رجال ملتحين وامرأتان يتقدمون نحو المنزل عبر الحقل. أمسك الصبي من يده وقال: يا إلهي. اركض. اركض.

ركضا عبر المنزل إلى الباب الأمامي ونزلا الدرج. في منتصف الطريق وعبر الممر سحب الصبي إلى داخل الحقل. نظر خلفه. كانوا محتجبين جزئيا من وراء بقايا السياج، لكنه كان يعرف أنه ليس لديهما سوى بضع دقائق فقط وربما لا وقت على الإطلاق. فــي قاع الحقل صادفا رقعة من ســيقان القصب الميت أخذتهم

إلى الطريق وعبرا إلـــى الغابة من الجهة البعيدة. أحكم قبضته على معصم الصبي. همس: أســـرع. يجـــب أن نجري. نظر نحو المنزل لكنه لم يســـتطع أن يرى شـــيئا. إذا نزلوا الممر فسيرونه يجري بين الأشجار مع الصبي. هذه هي اللحظة الحاسمة، هذه هي اللحظة الحاســمة. ســقط على الأرض وضم الصبي إليه. قال: اهدأ. اهدأ.

- هل سيقتلوننا يا أبي؟
- اهدأ.

كمنا بين أوراق الشجر والرماد وقلباهما يدقان دقا. كاد يسعل ثانية. كان بإمكانه أن يضع يده على فمه لكن الصبي كان يمسك بها بقوة وفي اليد الأخرى كان يحمل المسدس. كان عليه أن يركز لكي يكبح نوبة الســـعال وفي الوقت نفســـه كان يحاول الإصغاء. مـــال بذقنه بين الأوراق في محاولة لرؤية شـــيء ما. همس: أبق رأسك منخفضا.

- هل هم قادمون؟
- لا.

زحفـــا ببطء بين الأوراق نحو ما بـــدا أنه أرض منخفضة. كَمَنَ يصغي بينما كان يضم الصبي. كان بإمكانه أن يســـمعهم يتحدثون في الطريق. سمع صوت امرأة ثم وقع أقدامهم على الأوراق اليابســـة. أمســـك يد الصبي ووضع المســـدس فيها. همس: خذه. كان الصبي مرعوبا. وضع يده حوله وضمه إليه. شـــعر بجسده النحيل جدا. قال: لا تخف. إذا وجدوك فعليك أن تفعـــل ذلك. هل تفهم هـــذا؟ اهدأ. ليس الوقت للبكاء. هل

تســمعني؟ أنت تعــرف كيف تفعل ذلك. عليــك أن تضعه في فمك وتســدده إلى أعلى. افعل ذلك بســرعة وبقوة. هل تفهم ذلك؟ توقف عن البكاء. هل تفهم؟

- أظن ذلك.

- لا. هل استوعبت ذلك؟

- نعم.

- قل نعم استوعبت ذلك يا أبي.

- نعم، استوعبت يا أبي.

نظر إليه. لم ير فيه إلا الرعب. أخذ المســدس منه وقال: لا. لم تستوعب ذلك.

- لا أعرف ماذا ســأفعل يا أبي. لا أعرف ماذا سأفعل. أين ستكون أنت؟

- لا عليك من ذلك.

- لا أعرف ماذا سأفعل.

- اهدأ. أنا موجود هنا. لن أتركك وحيدا.

- هل تعدني بذلك؟

- نعم. أعدك. كنت أريد الهروب أمامهم في محاولة لإبعادهم عنك، لكنني لا أستطيع تركك وحيدا.

- أبي؟

- اهدأ. ابق منخفضا.

- إني خائف جدا.

- اهدأ.

❖ ❖ ❖

جثمـا وهما يصغيان، هل تسـتطيع فعل ذلـك، عندما تأتي اللحظة الحاسمة؟ عندما تأتي اللحظة الحاسمة لن يكون هناك وقت. الآن هي اللحظة الحاسمة. ادع الله ومت. ماذا لو لم تنطلق الرصاصة؟ يجب أن تنطلق. ماذا لو لم تنطلق؟ هل تستطيع كسر جمجمتك العزيزة بحجر؟ هـل ثمة مخلوق في داخلك لا تعرف عنه شـيئا؟ هل يحتمل ذلك؟ ضمه بين ذراعيك، ليس إلا. الروح سريعة. اسحبه نحوك. قبّله بسرعة.

انتظر والمسدس الفضي في يده. كاد يسعل. كان همه الأوحد أن يكبح السعال الذي انتابه. حاول أن يصغي لكنه لم يتمكن من سـماع أي شـيء. همس: لن أتركك. لن أتـركك أبدا. هل تفهم ذلك؟ جثم بين الأوراق وهو يضم الصبي إليه ويمسك بالمسدس. انقضى الشفق الطويل وحل الظلام. أحسا بالبرد وكانت السماء بلا نجوم لحسـن حظهما. بدأ يعتقـد أن لديهما فرصة للنجاة. همس: ما علينا سوى الانتظار. كان البرد قارسا. حاول أن يفكر لكن ذهنه كان شاردا. شعر بالضعف الشديد وتملّكه الحديث عن الهرب. لم يكن يستطيع الركض. عندما اسودت الدنيا في وجهه نزع حمـالات الحقيبة وأخرج البطانيـات ووضعها فوق الصبي الذي استسلم للنوم سريعا.

❖ ❖ ❖

خلال الليل سـمع صرخات مرعبـة آتية من المنزل، حاول أن يضع يديه على أذني الصبي وبعد برهة توقف الصراخ. استلقى مصغيا. كان قد رأى صندوقا في أثناء مسيره بين عيدان القصب نحو الطريق. كان شـيئا يشبه بيتا للعب الأطفال. أدرك أن ذلك

مكان يراقبون الطريق من خلاله، يكمنون فيه ويقرعون الجرس في المنزل لكي يأتي رفاقهم. أخذته سـنة من النوم ثم أفاق. ما الأمر؟ تصور أنه سـمع وقعا للخطى بـين الأوراق ولم يكن ذلك إلا صوت الريح. اعتدل جالسا ونظر نحو المنزل لكنه لم ير غير الظلمـة. أيقظ الصبي بهزه وقال: هيا، يجب أن نترك المكان. لم يـرد الصبي لكنه كان يعرف أنه مسـتيقظ. نزع عنه البطانيات وربطها في الحقيبة. همس: هيا.

انطلقـا عبر الغاب المظلـم. لاح قمر في مـكان ما من وراء الغيوم الرمادية وكان باسـتطاعتهما أن يميزا الأشجار أمامهما فقط. كانا يترنحان كأناس سـكارى. إذا عثروا علينا سيقتلوننا، أليس كذلك يا أبي؟

- اهدأ. لا وقت للكلام.
- أليس كذلك يا أبي؟
- اهدأ، بلى، بلى سيقتلوننا.

لـم تكن لديـه فكرة في أي اتجـاه يسـيران وانتابه قلق من احتمال أن يدورا ويعودا إلى حيث المنزل. حاول أن يتذكر إن كان يعرف شـيئا عن ذلك أو إن كان ذلك مجرد رواية. في أي اتجاه انعطـف الرجال التائهـون؟ ربما اختلف ذلـك باختلاف نصف الكرة الأرضية. أو الميل لاستخدام اليد اليمنى أو اليسرى. أخيرا أخرج من ذهنه فكرة وجود شيء يمكن أن يسترشد به. لقد خانه تفكيره. أفاقت الأشـباح التي لم يسـمع بها منذ آلاف السـنين ببطء من سـباتها. هذا ما كان ينقصـه. كان الصبي يترنح على قدميه. متعثـرا ومتمتما، طلب الصبـي أن يحمله فحمله حيث

استسلم للنوم على كتفه مباشرة. كان يعلم أنه لن يستطيع حمله لمسافة طويلة.

استيقظ في ظلمة الغاب بين أوراق الشجر وكان يرتجف بشدة. اعتدل جالسا وتلمس بحثا عن الصبي. مد يده إلى أضلاعه النحيلة حيث الدفء والحركة ودقات القلب.

عندما أفاق من جديد كان نور الصباح كافيا للرؤية تقريبا. رمى بالبطانية جانبا وانتصب واقفا لكنه كاد يسقط على الأرض. اعتدل في وقفته وحاول أن ينظر حوله في الغاب الرمادي. كم المسافة التي قطعاها؟ سار إلى أعلى نقطة مرتفعة وجثم يراقب النهار ويستجمع قواه. تقدم الفجر الخجول وبدا العالم البارد المظلم. لاح عن بعد ما يبدو أنه غابة من الصنوبر، سوداء عارية. كان عالما بلا لون من الأسلاك والورق. عاد وأجلس الصبي ورأسه يترنح إلى الأمام وقال: يجب أن نذهب من هنا. يجب أن نذهب. حمله عبر الحقل متوقفا للراحة كل خمسين خطوة. عندما وصل إلى أشجار الصنوبر جثا ووضعه فوق تربة الغاب الرملية وغطاه بالبطانيات وجلس يراقبه. بدا كأنه شيء قد أتى من مخيم للموت، يتضور جوعا ومنهك القوى ومصابا بداء الرعب. انحنى وقبّله. نهض وسار إلى حافة الغاب ثم تمشى حول الحد الخارجي ليرى إن كانا آمنين في ذلك المكان.

قبالة الحقول من جهة الجنوب كان بإمكانه أن يرى بيتا ومزرعة للحيوانات ومن خلف الأشجار منحنى لطريق. لاح ممر طويل بعشب ميت حيث انتشر اللبلاب على امتداد جدار حجري وبدا صندوق للبريد وسياج على طول الطريق ظهرت من خلفه

الأشجار الميتة. ساد البرد والسكون ملفوفا بالضباب الكربوني. عاد إلى حيث الصبي وجلس إلى جانبه. اليأس هو ما سيقوده إلى ترك الصبي هكذا، وكان يعرف أنه لا يمكنه فعل ذلك مرة أخرى، بغض النظر عن الظروف.

لن يفيق الصبي لساعات، وحتى لو أفاق لكان الرعب في انتظاره. لقد حدث ذلك من قبل. فكر في إيقاظه لكنه كان يعرف أنه لن يتذكر شيئا لو فعل ذلك. لقد دربه أن يرقد في الغاب مثل ظبي. حتى متى؟ أخيرا أخرج المسدس من حزامه ووضعه إلى جانب الصبي تحت البطانيات ونهض منطلقا.

نزل على المزرعة من التل متوقفا ليراقب الموقف ويصغي. شق طريقه عبر بقايا بستان تفاح قديم بجذوع سوداء مملوءة بالعقد وعشب ميت يصل إلى ركبتيه. وقف في باب المزرعة وأصغى. بدا الضوء شاحبا. سار بمحاذاة الحظائر المغبرة ووقف في وسط ساحة المزرعة وأصغى لكنه لم يسمع شيئا. صعد السلم إلى المخزن العلوي فشعر بضعف شديد، ولم يكن متأكدا إن كان سيصل إلى أعلى مكان. تقدم إلى آخر المخزن ونظر عبر النافذة إلى الأراضي الممتدة في الأسفل حيث بدت الأرض المقفرة التي غشاها الموت والرماد ولاح السياج والطريق.

استقرت أكياس من التبن على أرضية المخزن. قرفص وفرز حفنة من الحبوب منها وجلس يمضغها، كانت خشنة وجافة ومغبرّة، تصور أن فيها بعض المواد الغذائية. نهض ودحرج كيسين على الأرضية وأسقطهما في الساحة في الأسفل. التصق الغبار

بإبهاميــه. عاد إلى النافــذة ووقف يتفحص ما يمكن أن يراه من البيت وراء زاوية المزرعة، ثم نزل من على السلم.

لم يظهر أي أثر على العشــب بين البيــت والمزرعة. عبر إلى الشرفة. كان ستار الشرفة متعفنا وآيلا للسقوط. ظهرت دراجة هوائية للأطفال. كان باب المطبخ مفتوحا فعبر الشــرفة ووقف فــي الباب. تجعدت إطــارات من رقائق الخشــب الرخيص من الرطوبــة وانهارت في الغرفة. رأى طاولة حمراء من الخشــب. عبــر الغرفة وفتح باب الثلاجة. لاحظ شــيئا على أحد الرفوف ملفوفا بقطعة فرو رمادية. أغلق الباب. القمامة تنتشــر في كل مكان. التقط مكنســة من الزاوية وبدأ يحرك الأشياء مستخدما يد المكنســة. صعد على المنضدة وتلمس طريقه عبر الغبار فوق الخزائن حيث وجد فخا للفئران وكيسا لشيء ما. نفخ الغبار عن الكيس الذي ضم مسحوقا بنكهة العنب لصنع العصير، ثم وضعه في جيب معطفه.

فتــش البيت غرفــة تلو الأخرى. لم يجد شــيئا. وجد ملعقة في درج بجانب أحد الأســرَّة فوضعها فــي جيبه. ظن أنه ربما سيجد بعض الملابس في إحدى الخزائن أو بعض الأغطية ولكن خــاب ظنه. خرج واتجه إلى المرآب حيث بحث بين الأدوات التي ضمت أدوات لجمع العشب ومجرفة وعلبا للمسامير على الرف ومشــرطا لفتح الصناديق. رفع المشرط باتجاه الضوء ونظر إلى الشــفرة الصدئة قبل أن يعيده إلى مكانه. ثم التقطه من جديد. أخــذ مفكا من علبــة للقهوة وفتح يد المشــرط. كان في داخلها أربع شــفرات. نزع الشــفرة القديمة ووضعها علــى الطاولة ثم

ركب إحدى الشفرات الجديدة مكانها قبل أن يركب المقبض من جديد. سحب الشفرة الجديدة ووضع المشرط في جيبه. ثم أخذ المفك ووضعه في جيبه أيضا.

خرج عائدا إلى المزرعة. كانت لديه قطعة من القماش أراد أن يجمع فيها بعض البذور من أكياس التبن لكنه عندما وصل إلى المزرعة توقف وأخذ يصغي للريح. سمع صريرا لمعدن في مكان ما عال في السقف من فوقه. لم تزل هناك بقايا رائحة الأبقار. بدأ يفكر في الأبقار وأدرك أنها أصبحت منقرضة. هل حدث ذلك حقا؟ يمكن أن توجد بقرة في مكان ما تُطعَم ويُعتنى بها. هل ذلك ممكن؟ إطعامها ماذا؟ وإبقاؤها حية لماذا؟ من وراء الباب المفتوح خشخش العشب الميت في مهب الريح. خرج ووقف ينظر عبر الحقول نحو غابة الصنوبر حيث يرقد الصبي نائما. سار عبر البستان ثم توقف من جديد. لقد داس على شيء ما. تراجع خطوة إلى الخلف وجثا يفتش بين العشب بيديه. لقد كانت تفاحة فالتقطها ورفعها باتجاه النور. بدت يابسة ذابلة بلونها البني. مسحها بقطعة القماش قبل أن يقضمها. كانت ناشفة وبدون مذاق تقريبا لكنها تفاحة على جميع الأحوال. أكلها برمتها، ببذورها وكل ما فيها. أمسك العود المتبقي بين إبهامه والسبابة تاركا إياه يسقط على الأرض. ثم تابع سيره بتأن عبر العشب. لم تزل قدماه ملفوفتين ببقايا المعطف وقطع البلاستيك. جلس وأزال اللفافات قبل أن يضعها في جيبه ويتابع سيره بين صفوف الأعشاب حافي القدمين. عندما وصل إلى قاع البستان كان قد جمع أربع تفاحات وضعها في جيبه وارتد

عائدا من جديد. سار بين الصفوف واحدا تلو الآخر حتى ارتبك وقع قدميه بين الأعشـــاب. جمع من التفاح ما لم يستطع حمله. لقد تلمس الفراغات حول الســـيقان وعبأ جيوبه وكوّم التفاح في قبعة سترته خلف رأســـه وفي حضنه. أفرغ التفاح في كوم عند باب المزرعة حيث جلس ولف قدميه الخدرتين.

فـــي الغرفة الطينية بجانب المطبخ كان قد رأى ســـلة معبأة بالعلب. جر السلة إلى الأرض وأخرج العلب منها قبل أن يقلبها وينفـــض الغبار عنهـــا. ثم توقف. ماذا رأى؟ لقد رأى ماســـورة لتصريف الماء وتعريشة نزلت تتلوى عليها كرمة داكنة ميتة مثل خط لمشـــروع ما في رسم بياني. عبر المطبخ مجددا وخرج إلى الساحة حيث وقف ينظر إلى المنزل. كانت النوافذ تعكس النهار الرمادي الذي لا يحمل اسما. مرت ماسورة التصريف مع زاوية الشـــرفة. لم يزل يحمل الســـلة فوضعها بين الأعشاب وصعد الدرج مرة أخرى. مرت الماسورة مع العمود في الزاوية إلى داخل خزان أسمنتي. مسح الغبار وأزال بعض العفن عن الغطاء. عاد إلى المطبخ وأحضر المكنسة ونظف الغطاء قبل أن يثبّت المكنسة فـــي زاويته ويرفعه عن الخزان. كان في الداخل صينية مملوءة بوحـــل رمادي نزل من الســـقف وقد امتـــزج بخليط من أوراق الشـــجر الميتة والعيدان. رفع الصينيـــة ووضعها على الأرض. وجـــد بعض الحصى البيضاء في الأســـفل فحفنهـــا بيده. كان الخزان من الأسفل مملوءا بالفحم حيث بعض القطع المحترقة لأغصان وجذوع كاملة في صور كربونية للأشجار نفسها. أعاد الصينية إلى مكانها. اســـتقر على الأرض مفتاح علب نحاســـي

أخضر. تناول المكنسة ومسح الرماد. بدت خطوط لمنشار في الألواح فنظف الألواح وجثا وأدخل أصابعه في الحلقة ورفع الباب السحري فاتحا إياه. في الأسفل في الظلمة ظهر حوض مملوء بماء عذب إلى درجة جعلته يشم رائحته. تمدد على بطنه على الأرض ومد يده إلى أسفل. استطاع أن يلمس الماء قليلا. انحنى إلى الأمام ومد يده من جديد حيث تمكن من أخذ حفنة من الماء. شم الماء وتذوقه ثم ارتشف منه. تمدد هناك فترة طويلة وهو يرفع الماء إلى فمه حفنة تلو الأخرى. لم تضم ذاكرته شيئا أحسن من ذلك الماء.

عاد إلى الغرفة الطينية وأحضر جرتين وإناء قديما مطليا باللون الأزرق. مسح الإناء وملأه حتى ينظف الجرتين. ثم انحنى إلى أسفل وأنزل إحدى الجرتين حتى امتلأت ورفعها والماء يقطر منها. كان الماء صافيا جدا. رفع الجرة تحت الضوء فظهرت فيها طبقة وحيدة من الرواسب تلتف حول محور مائي بطيء الحركة. رفع الجرة وارتشف منها بتأن لكنه شربها بالكامل تقريبا. جلس وقد انتفخت معدته. كان يمكنه أن يشرب المزيد لكنه لم يفعل. صب ما تبقى من الماء في الجرة الأخرى وغسلها قبل أن يملأ الجرتين ويغطي الحوض بالغطاء الخشبي وينهض وجيوبه معبأة بالتفاح. انطلق عبر الحقول نحو غابة الصنوبر وهو يحمل جرتي الماء.

لقد غاب عن الصبي أكثر مما كان يتوقع فحث خطاه قدر المستطاع والماء يهتز ويقرقر في معدته الخاوية. توقف للراحة ثم انطلق من جديد. عندما وصل إلى الغابة بدا الصبي كأنه لم

يتحرك البتة. جثا ووضع الجرتين بعناية فوق تربة الغاب ورفع المسدس ووضعه في حزامه. ثم جلس يراقب الصبي.

جلسا طوال فترة العصر وهما يلفان نفسيهما بالبطانيات ويأكلان التفاح ويرتشفان الماء من الجرتين. أخرج الكيس الذي يضم المسحوق بنكهة العنب من جيبه وفتحه وأفرغه في إحدى الجرتين وحركه قبل أن يعطي الجرة للصبي. قال الصبي: لقد أحسنت صنعا يا أبي. خلد للنوم بينما كان الصبي يتولى مهمة المراقبة، وفي المساء ارتديا أحذيتهما ونزلا إلى المزرعة حيث جمعا ما تبقى من التفاح. كما عبآ ثلاث جرار بالماء وسداها بأغطية من صندوق كان قد وجده في الغرفة الطينية، ثم لف كل شيء في إحدى البطانيات ووضعها في الحقيبة وربط بقية البطانيات بالحقيبة قبل أن يرميها على كتفيه. وقفا في الباب وهما يراقبان الضوء يرتسم على العالم من الجهة الغربية. ثم نزلا إلى الممر وانطلقا إلى الطريق من جديد. التصق الصبي بمعطفه وبقي على حافة الطريق في محاولة لتلمس الرصيف تحت قدميه في الظلام. وفيما بعد كان باستطاعته أن يسمع الرعد، وبعد برهة بدت ومضات البرق أمامهما. أخرج المشمع من الحقيبة ولم يكن ما تبقى منه يكفي لتغطيتهما وبعد فترة بدأ المطر يهطل. ترنحا جنبا إلى جنب إذ لم يتوافر مكان يأويان إليه. استخدما قبعات معاطفهما لكن المعاطف بدأت تبتل وتثقل من المطر. توقف في الطريق في محاولة لإعادة ترتيب المشمع. كان الصبي يرتجف بشدة.

– أنت تشعر بالبرد، أليس كذلك؟

– بلى.

- إذا توقفنا سنعاني بردا شديدا.

- إني أشعر بالبرد الشديد الآن.

- ماذا تريد أن تفعل؟

- هل يمكننا التوقف؟

- نعم. حسنا. يمكننا التوقف.

كانت ليلة من الليالي الطويلة الكثيرة التي يستطيع تذكرها. جثما على الأرض المبتلة بجانب الطريق تحت بطانياتهما والمطر يخشخش على المشمع. ضم الصبي وبعد برهة توقف الصبي عن الارتجاف واستسلم للنوم. انحرف الرعد بعيدا جهة الغرب ثم توقف تاركا المطر وراءه. نام وأفاق وقد خف المطر ثم توقف بعد ذلك. تساءل إن كان الوقت قارب منتصف الليل. بدأ يسعل وزادت شدة السعال ما أيقظ الصبي. كان الفجر قد بدأ ينبلج. نهض ورنا نحو المشرق وبعد فترة طلع النهار.

لف معاطفهما كلا على حدة حول جذع إحدى الأشجار وعصر الماء منها. جعل الصبي يخلع ملابسه ولفه بإحدى البطانيات وبينما كان يقف مرتجفا عصر الماء من ملابسه وأعادها إليه. كانت الأرض حيث كانا قد ناما ناشفة وجلسا هناك والبطانيات تظللهما وهما يأكلان التفاح ويرتشفان الماء. ثم انطلقا في الطريق من جديد مترنحين مدثرين مرتجفين مثل رهبان متسولين يبحثون عن رزقهم.

بحلول المساء كانا على الأقل قد تخلصا من البلل. تفحصا قطع خريطة الطريق لكن لم يكن لديهما فكرة واضحة عن مكان وجودهما. وقف على مرتفع في الطريق وحاول دراسة

الاحتمالات وقت الشفق. تركا الطريق الرئيسية وانعطفا في طريق ضيقة عبر الأراضي الزراعية وأخيرا وصلا إلى جسر وجدول جاف. تقدما ببطء أسفل الجسر وجثما ملتصقين تحته.

- هل يمكننا أن نوقد نارا؟ سأل الصبي.

- ليس لدينا قداحة.

- نظر الصبي جانبا.

- إني آسف. لقد سقطت مني. لم أرد أن أخبرك بذلك.

- لا بأس.

- سأجد حجرا من الصوان. لم أزل أبحث عن ذلك. ومازالت لدينا قارورة صغيرة من البنزين.

- حسنا.

هل تشعر بالبرد الشديد؟

- أنا بخير.

تمدد الصبي ورأسه في حضن والده. وبعد برهة قال: سيقتلون أولئك الناس، أليس كذلك؟

- بلى.

- لماذا عليهم أن يفعلوا ذلك؟

- لا أعرف.

- هل سيأكلونهم؟

- لا أعرف.

- سيأكلونهم، أليس كذلك؟

- بلى.

– ولم نستطع مساعدتهم لأننا كنا سنتعرض للمصير نفسه أيضا.

– نعم.

– ولهذا السبب لم نتمكن من مساعدتهم؟

– نعم.

مرا عبر بعض المدن التي حذرت الناس من الاقتراب من خلال رسائل بخط رديء على لوحات الإعلانات. كانت اللوحات قد دُهنت باللون الأبيض الرقيق ليتمكنوا من الكتابة عليها، ومن تحت الدهان بدا خط ممسوح باهت يروج لبضائع لم تعد موجودة. جلسا بجانب الطريق وأكلا ما تبقى لديهما من التفاح.

– ما الأمر؟ سأل الرجل.

– لا شيء.

– سنجد شيئا نأكله. هذا ما نفعله دائما.

لم يرد الصبي. وأخذ الرجل يراقبه.

– ليس هذا ما يقلقك، أليس كذلك؟

– لا بأس.

– أخبرني.

أزاح الصبي نظره باتجاه الطريق.

– أريدك أن تخبرني. سيكون كل شيء على ما يرام.

هز الصبي رأسه.

– انظر إليّ.

استدار نحوه. بدا كأنه كان يبكي.

– أخبرني، ليس إلا.

- لن نأكل أحدا أبدا، أليس كذلك.
- لا. طبعا لا.
- حتى لو أشرفنا على الموت من الجوع؟
- نحن كذلك الآن.
- لقد قلت إننا لسنا كذلك.
- قلت إننا لم نكن نحتضر. لم أقل إننا لم نكن نتضور جوعا.
- لكننا لن نفعل ذلك.
- لا. لن نفعل ذلك.
- بغض النظر عن الظروف.
- لا. بغض النظر عن الظروف.
- لأننا أناس طيبون؟
- نعم.
- ونحن نحمل المسدس؟
- ونحن نحمل المسدس. نعم.
- حسنا.

وجد قطعا من صخر الصوان في إحدى القنوات، لكن كان أسهل عليه أن يحك الآلة بجانب صخرة في قاعها كوم صغير من العيدان الرقيقة التي غُمرت بالبنزين. مضى يومان آخران ثم ثلاثة. لقد كانا يتضوران جوعا. كانت المنطقة قد تعرضت للنهب والتدمير وسُلب كل شيء فيها. كانت الليالي شديدة البرد، يلفها السواد وقد ألقى نور الصباح المتثاقل بظلال من الصمت المطبق كمن ينتظر الفجر الذي يسبق المعركة. ارتسم

جلد الصبي الشـاحب بكل شـيء عدا الشـفافية، وبدا بعينيه الضخمتين المحملقتين كأنه من عالم آخر.

تصـور أن لحظة المـوت قد بدأت أخيرا تقتـرب وأنه ينبغي عليهمـا أن يجدا مكانا بعيدا عن الأنظار. لقد مرت عليه أوقات كان يجلـس فيها مراقبا الصبي في نومه وتجعله ينتحب من دون وعي لكن ذلك لم يتعلق بالموت. قرفصا في غابة مقفرة وشـربا مـن ماء إحدى القنوات بعد تصفيتهـا بخرقة. لقد رأى الصبي في منامه ممددا على لوح للتبريد وأفاق مرعوبا. إن ما يستطيع تحمله في عالم اليقظة لا يستطيع تحمله في نومه. ظل مستيقظا لخوفه من عودة الحلم.

نقبا عبر بقايا المنازل المحترقة التي لم يدخلاها من قبل. بدت جثة تطفو على المياه السـوداء في سرداب بين القمامة والأنابيب الصدئة. وقف في غرفة للمعيشـة احترقت جزئيا وأصبحت مفتوحة للسـماء. انحدرت الألواح التي سـحبتها المياه إلى داخل الساحة. وجد مجلدات رطبة في خزانة للكتب فتناول أحدهـا وفتحه ثم أعاده إلى مكانـه. طالت الرطوبة والعفن كل شـيء. عثر في أحد الأدراج على شـمعة ولم يكن ثمة سبيل لإشعالها. وضعها في جيبه وخرج إلى النور الرمادي فوقـف ورأى للحظة قصيـرة الحقيقة المطلقـة للكون الذي تجسد بالدوران القاسـي والبارد لكوكب الأرض الذي أصبح مشـاعا، والظلمة التي لا ترحـم، والمخلوقات التائهة التي لم تزل في حالة عدو، وفراغ الكون الأسود المدمر. وفي مكان ما تخبط مخلوقان مطاردان يرتجفان مثل ثعلبين مختبئين، حيث

الوقت مقتبس، والكون مقتبس، والعيون التي تفاقم الحزن فيها مقتبسة.

جلسا على مشارف إحدى المدن الصغيرة في مقصورة إحدى الشاحنات للراحة وهما ينظران عبر الزجاج الذي نظفته الأمطار التي هطلت حديثا. بدا غبار رقيق من الرماد. كانا يشعران بالإرهاق. ظهرت على جانب الطريق لوحة أخرى تحذر من الموت وقد أصبحت حروفها باهتة بفعل السنين. كاد يبتسم: هل تستطيع قراءة ذلك؟ سأل الصبي.

- نعم.
- لا تكترث بذلك. لا يوجد أحد هنا.
- هل ماتوا؟
- أظن ذلك.
- أتمنى لو أن ذلك الصبي الصغير معنا.
- لنذهب، قال له.

عاودته أحلام مفعمة في تلك الفترة كان يكره الإفاقة منها. أشياء لم تعد معروفة في هذا العالم. دفعه البرد إلى أن يوقد النار. جاءته ذكرى عبورها المرج الأخضر نحو المنزل في الصباح الباكر مرتدية قميص نوم ورديا رقيقا التصق بصدرها. اعتقد أن كل ذكرى لا بد أن يمارس نوعا من العنف ضد أصولها، كما يحدث عند ممارسة لعبة في إحدى الحفلات. عليك أن تتلفظ بالكلمة ثم تناولها شخصا آخر. لا بد من الاقتصاد. ومع ذلك فالتغيير الذي تحدثه في التذكر هو شيء واقعي، سواء كان معروفا أو مجهولا.

ســـارا عبر الشوارع يلفان نفســـيهما ببطانياتهما العفنة. كان المســـدس يتدلى من خصره وقد أمســـك بالصبـــي من يده. في الطـــرف البعيد من البلدة صادفا بيتـــا وحيدا في أحد الحقول فاتجهـــا نحوه ودخلاه وتجولا في غرفه. فوجئا برؤية نفســـيهما في مرآة وكاد يصوب المسدس. هذا نحن يا أبي، همس الصبي. هذا نحن.

وقـــف عند الباب الخلفـــي ونظر إلى الحقـــول والطريق من ورائهـــا والأراضي المقفرة من خلف الطريـــق. ظهرت في الفناء حفرة للشـــواء مصنوعة من أســـطوانة تتســـع لخمسة وخمسين جالونا شـــقت من طرفيها بشعلة وثبتت في إطار حديدي متصل بعضه ببعض. بدت بعض الأشـــجار الميتة في الســـاحة وســـياج ومخزن للأدوات المعدنية. نزع البطانية عن نفسه ولف بها كتفي الصبي.

- أريدك أن تنتظر هنا.

- أريد الذهاب معك.

- أنا ذاهب إلى هناك لإلقاء نظرة. كل ما عليك هو أن تجلس هنا. سيكون بمقدورك رؤيتي كل الوقت. أعدك بذلك.

عبر الســـاحة ودفع الباب أمامه ولم يزل يمســـك المســـدس. كان المـــكان من قبيل مخزن للحديقـــة بأرضية من الطين. بدت رفوف معدنية بأوعية بلاســـتيكية للورود، وكان كل شيء مغطى بالرماد. اســـتقرت أدوات للحديقة في الزاويـــة من ضمنها آلة لقص الأعشاب. ظهر مقعد خشبي تحت النافذة وبجانبه خزانة معدنية. فتح الخزانة حيث وجد كتالوجات قديمة وأكياســـا من

البذور وبذور عشب اســتوائي وبذور زهرة نجمة الصباح. وضع الأكياس في جيبه، لأي هدف، رأى على الرف العلوي علبتين من زيت المحرك فوضع المسدس في حزامه وتناولهما ووضعهما على المقعــد. كانتا قديمتين جدا ومصنوعتين من الكرتون المقوى وقد غطيتا بعلبتين معدنيتين. كان الزيت قد نفذ عبر الكرتون لكنهما بدوتــا بكامل زيتهمــا حتى الآن. تراجع ونظر عبــر الباب. كان الصبي جالســا على الدرج الخلفي للبيت يلف نفسه بالبطانيات ويراقبــه. عندما اســتدار رأى عبوة للبنزين فــي الزاوية خلف الباب. كان يعرف اســتحالة وجود بنزين فيها لكنه عندما أمالها بقدمــه وتركها ترتد إلى وضعها الســابق ســمع صوتا خفيضا لحركة السائل. رفعها وحملها إلى المقعد وحاول فتح الغطاء لكنه لــم يتمكن من ذلــك. أخرج الآلة من جيــب معطفه وثبت فكيها حول الغطاء تماما. نزع الغطاء ووضعه على المقعد وشــم العبوة حيث فاحت رائحة كريهة عمرها ســنوات خلت. لكنه كان بنزينا وقابلا للاشــتعال. أعاد الغطاء إلى مكانه من جديد ووضع الآلة فــي جيبه. بحث عن عبوة أصغر لكن من دون جدوى. كان ينبغي ألا يرمي القارورة، ربما يجد واحدة داخل البيت.

فــي أثناء عبوره بين الأعشــاب شــعر بــدوار وكان عليه أن يتوقف. تســاءل إن كان ذلك بســبب شــمه رائحة البنزين. كان الصبي يراقبه. كم يوما تبقى قبل الموت؟ عشــرة؟ ليس أكثر من ذلك بكثير. لم يســتطع التفكير. لماذا توقف؟ استدار ونظر إلى العشــب. عاد أدراجه، متفحصا الأرض بقدميه. توقف واستدار مــرة أخرى. ثم عاد إلى المخزن. أحضــر مجرفة للحديقة وفي

المكان الذي كان قد توقف فيه غرس شفرة المجرفة في الأرض. دخلت إلى منتصفها قبل أن يصدر صوت لخشب فارغ. بدأ بإزاحة التراب من الحفرة.

كان الحفر بطيئا فقد كان مرهقا. اتكأ على المجرفة ورفع رأسه ونظر إلى الصبي. لم يغير الصبي جلسته. عاد إلى عمله من جديد. لم يمض وقت طويل حتى بدأ يرتاح بين الفينة والأخرى. كان ما كشف عنه أخيرا قطعة من الخشب الرقائقي مغطاة بطبقة من السقف. أزاح التراب من على الأطراف حيث ظهر باب بعرض ثلاث أقدام وطول ست أقدام تقريبا. التصق في أحد الأطراف مشبك بقفل في داخل كيس بلاستيكي. أخذ قسطا من الراحة متكئا على يد المجرفة وجبهته على ذراعه. عندما نظر إلى أعلى كان الصبي يقف في الساحة على بعد بضع أقدام منه فقط. كان مرعوبا جدا. همس: لا تفتحه يا أبي.

- لا تقلق.
- أرجوك يا أبي. أرجوك.
- لا داعي للقلق.
- لا. ليس الأمر كذلك.

وضع كفيه على صدره وكان يرتعش من الخوف. رمى الرجل بالمجرفة أرضا ووضع ذراعيه حول الصبي. هيا. لنذهب للجلوس على الشرفة ونأخذ قسطا من الراحة.

- ثم نذهب من هنا؟
- دعنا فقط نجلس بعض الوقت.

- حسنا.

جلسا فترة طويلة وهما يلفان نفسيهما بالبطانيات وينظران إلى الحديقة. حاول أن يشرح للصبي أنه لا يوجد أي شخص مدفون في الحديقة، لكن الصبي أجهش بالبكاء. بعد برهة فكر حتى في احتمال أن يكون الصبي محقا.

قال: دعنا نجلس فقط. لنمتنع حتى عن الكلام.

- حسنا.

تجولا في المنزل مرة أخرى حيث وجد قارورة للبيرة وخرقة قديمة من ستارة. شق جزءا من طرف الخرقة وأدخلها في فتحة القارورة مستخدما حمالة للمعاطف. قال: هذا مصباحنا الجديد.

- كيف يمكننا إشعاله؟

- وجدت بعض البنزين في المخزن وبعض الزيت. سأريك ذلك.

- حسنا.

- هيا، قال الرجل. سيكون كل شيء على ما يرام. أعدك بذلك.

لكنه عندما انحنى ليتفحص وجه الصبي انتابه خوف شديد من أن شيئا ما قد ذهب إلى غير عودة. ولا يمكن تصحيحه من جديد.

خرجا وعبرا الساحة إلى المخزن. وضع القارورة على المقعد وأخرج مفكا وأحدث ثقبا في إحدى علبتي الزيت ثم أحدث ثقبا صغيرا لكي ينزل الزيت من العلبة. نزع الفتيلة من القارورة وعبأ

القارورة إلـــى المنتصف بزيت قديم ثقيـــل كان قد تخثر وتجمد بفعل البرد ما استلزم وقتا طويلا لينزل في القارورة. نزع الغطاء عن عبوة البنزين وصنع لفة ورقية من أحد أكياس البذور وصب البنزيـــن في القارورة ثم وضع إبهامه علـــى الفتحة ورجها. بعد ذلـــك صب بعـــض البنزين في إنـــاء من الفخـــار وأخذ الخرقة وأدخلها في القارورة من جديد مستخدما المفك. أخرج قطعة من حجـــر الصوان من جيبه وتناول الآلة وحك حجر الصوان بالفك المسنن. حاول بضع مرات ثم توقف وصب مزيدا من البنزين في الإنـــاء. قال: ربمـــا يلتقط هذا البنزين الشـــرر. صنع مزيدا من الشـــرر في داخل الإناء فأضاء مشتعلا ومصدرا صوتا خفيضا. تنـــاول القارورة وأمالها مشـــعلا الفتيلة قبل أن يطفئ اللهب في الإنـــاء ويناول القارورة التي كانت تنفث دخانا للصبي. قال: هيا. خذها.

- ماذا سنفعل؟

- ضع يدك أمام الشعلة ولا تدعها تنطفئ.

نهض ونزع المسدس من حزامه. قال: يبدو هذا الباب كالباب الآخـــر. لكنه ليس كذلك. أعرف أنك مرعوب. لا بأس. أظن أن هناك بعض الأشـــياء وعلينا أن نلقـــي نظرة. لا يوجد مكان آخر للذهـــاب. هذا هو الحل. أريدك أن تســـاعدني. إن كنت لا تريد حمل المصباح فعليك حمل المسدس.

- سأحمل المصباح.

- حســـنا. هـــذا ما يفعله الشـــباب الطيبون، يســـتمرون في المحاولة ولا يستسلمون أبدا.

- حسنا.

تبعه الصبي إلى الساحة وسحابة من الدخان تتصاعد من المصباح. وضع المسدس في حزامه وأخذ المجرفة وبدأ بقطع المشبك داخل الخشب الرقائقي. أدخل زاوية الشفرة من تحته ورفعه قبل أن ينحني ويقبض على القفل ويفتحه ويرميه بين الأعشاب. رفع الشفرة من تحت الباب وأدخل أصابعه من تحته ثم وقف ورفعه إلى أعلى. أصدر التراب النازل صوت خشخشة من على الألواح. نظر إلى الصبي وسأله: هل أنت بخير؟ أومأ الصبي برأسه من دون أن يتكلم وهو يحمل المصباح أمامه. دفع الرجل الباب جانبا وتركه يسقط بين الأعشاب. ظهر درج مصنوع من ألواح خشبية خشنة بعرض قدمين وطول عشر أقدام لكل منها، يقود إلى الظلمة في الأسفل. مد يده وتناول المصباح من الصبي، ثم بدأ ينزل الدرج، لكنه استدار وأمال نفسه وقبل الصبي على جبهته.

❖ ❖ ❖

كانت جدران السرداب من الطوب الأسمنتي والأرضية من الأسمنت وقد غطيت ببلاط المطابخ. بدا سريران من الحديد بأسلاك مشدودة مكشوفة، كل منهما مقابل أحد الحوائط، وكان الفرش مطويا في أسفلهما على الطريقة العسكرية. استدار ونظر إلى الصبي من فوقه حيث كانت عيناه تطرفان من أثر الدخان الذي يتصاعد من المصباح، ثم نزل إلى الدرجات السفلية وجلس ورفع المصباح. همس: يا إلهي. يا إلهي.

- ما الأمر يا أبي؟

– انزل. يا إلهي. انزل.

ظهــرت صناديق مصفوفــة بعضها فوق بعــض من البضائع المعلبة ضمت طماطم ودراقا وفاصوليا ومشمشــا ولحم خنزير معلبــا ولحم بقر مملحا ومئــات الجالونات من المــاء في جرار بلاســتيكية تتسع لعشرة جالونات وأكياســا بلاستيكية للقمامة محشــوة بالبطانيات. قبض على جبهته بيده. قال: يا إلهي. نظر خلفه إلى الصبي وقال: كل شيء على ما يرام. انزل إلى هنا.

– أبي؟

– انزل. انزل وشاهد بنفسك.

نصب المصباح على الدرج وصعد وأخذ الصبي من يده وقال: انزل. كل شيء على ما يرام.

– ما الذي وجدته؟

– وجدت كل شيء. كل شيء. انتظر حتى ترى بنفسك. أنزله من على الدرج والتقط القارورة ورفع الشــعلة إلى أعلى. سأله: هل ترى، هل ترى؟

– ما كل هذه المواد يا أبي؟

– إنها أطعمة. هل تستطيع القراءة؟

– كمثرى. تقول إنها كمثرى.

– نعم. نعم إنها تقول ذلك. آه، إنها تقول ذلك.

وجــد صعوبة في الوقوف في الســرداب لانخفاض ســقفه. خفض رأســه من تحت فانوس معدني أخضر يتدلى من مشبك في الســقف. أخذ الصبي من يده وتجــولا على امتداد صفوف الصناديــق بلاصقاتهــا المتنوعة التي تعلــن محتوياتها من فلفل

وذرة ومرق وحساء وصلصة المعكرونة. كان هذا البذخ ينتمي إلى عالم قد اختفى. لماذا كل هذه المواد هنا؟ سـأل الصبي. هل هي حقيقية؟

– نعم، إنها حقيقية.

أنزل أحد الصناديق على الأرض وفتحه مستخدما أصابعه وأخرج علبة من الدراق. هذه المواد هنا لأن شخصا ما اعتقد أنه ربما ستكون هناك حاجة إليها.

– لكنهم لم يتمكنوا من استخدامها.

– كلا. لم يتمكنوا من ذلك.

– لقد ماتوا.

– نعم.

– هل يمكننا استخدامها؟

– نعم. لِمَ لا. إن هذا سيسرهم. تماما كما سيسرنا لو كنا في الظروف نفسها.

– كانوا من الناس الطيبين؟

– نعم. كانوا منهم.

– مثلنا.

– نعم.

– لذلك يمكننا استخدامها.

– نعم. هذا صحيح.

وجدا سكاكين وأواني بلاستيكية وفضية وأدوات مطبخ مختلفة في صندوق بلاستيكي ومفتاحا للعلب ومصابيح كهربائية لا تعمل. وصندوقا ضم بطاريات وخلايا جافة، تفحصها. أصاب

معظمها الصدأ وتسربت منها المادة الحامضة، لكن بعضها بدت في حالة جيدة. استطاع أخيرا أن يشغل أحد الفوانيس فوضعه على الطاولة وأطفأ شعلة المصباح بالدخان المنبعث منها. شق قطعة كرتون من الصندوق المفتوح وطارد بها الدخان المنبعث. ثم صعد ونزل من الباب السحري واستدار ونظر إلى الصبي وقال: ماذا تود أن تأكل على العشاء؟

- كمثرى.

- اختيار جيد. لتكن وجبة كمثرى.

تناول طبقين من الكرتون من مجموعة ملفوفة بالبلاستيك ووضعهما على الطاولة. مد الفراش على السرير ليجلسا عليه وفتح صندوق الكمثرى. أخرج علبة ووضعها على الطاولة وثبت مفتاح العلب في الغطاء وجعل يديره. نظر إلى الصبي الذي كان جالسا بسكينة على السرير، ولم يزل يلف نفسه بالبطانية ويراقب الموقف. تصور الرجل أنه ربما لم يظهر الحماس الكافي لما يقوم به، مستقبلا يمكنك أن تستيقظ في الغاب المظلم الرطب في أي وقت. قال: ستكون هذه أحسن كمثرى ذقتها على الإطلاق. ستكون الأحسن وما عليك إلا الانتظار.

جلسا جنبا إلى جنب وتناولا علبة الكمثرى. ثم تناولا علبة من الدراق. لعقا الملاعق ورفعا الأطباق وشربا العصير الحلو الطيب. نظر أحدهما إلى الآخر.

- واحدة أخرى.

- لا أريدك أن تتأذى.

- لن أتأذى.

- لم تأكل منذ وقت طويل.
- أعرف ذلك.
- حسنا.

حمل الصبي ثم وضعه على السـرير ومسـح شعره الأشعث وغطـاه بالبطانيـات. عندما صعد ورفع البـاب كان الظلام قد خيم تقريبا في الخارج. ذهب إلى المرآب وأحضر الحقيبة وعاد ملقيا نظرة أخيرة على ما حوله قبل أن ينزل الدرج ويغلق الباب وقد أدخل إحدى يدي الآلة في المشبك الداخلي الثقيل. كان نور الفانوس الكهربائي بدأ يخفت فبحث في المخازن حتى وجد بعض البنزين الأبيض في علب تتسع لجالون واحد. تناول واحدة منها ووضعهـا على الطاولة وفك عنها الغطاء قبل أن ينزع السـدادة المعدنية بالمفك. ثم تناول الفانوس من المشـبك من فوقه وعبأه. كان قد عثر على صندوق بلاسـتيكي لقداحات الغاز، فأشـعل الفانوس بواحدة منها وعدل الشـعلة قبل أن يعيده إلى المشـبك في الأعلى، ثم جلس على السرير.

بينما كان الصبي نائما بـدأ بحثا منتظما عبر المخازن حيث وجد ملابس وسـترات وجوارب. ظهـر أيضا حوض من الفولاذ غيـر القابل للصدأ وليف وألواح مـن الصابون ومعجون وفرش للأسنان. وجد في قاع جرة بلاستيكية كبيرة للمسامير والبراغي والأشـياء المتنوعـة حفنتين مـن القطع الذهبية فـي كيس من القماش. نثرها علـى الأرض ودلكها في يده ونظر إليها قبل أن يجمعهـا ويلقيها في الجرة مع الأدوات الأخرى من جديد ويعيد الجرة إلى مكانها على الرف.

فتش كل شيء محركا الصناديق والكراتين من جهة إلى أخرى في الغرفة. ظهر باب فولاذي صغير يقود إلى غرفة ثانية، حيث جـــرى تخزين قواريـــر البنزين. في الزاوية اســـتقر حمام وبدت مواســـير في الجدران مغطاة بالأسلاك ومصارف في الأرضية. أصبح الجو حارا في الســـرداب حيث كان قد خلع معطفه. فتش كل شـــيء. وجد صناديق عتاد ناري لكنه لم يجد سلاحا. تناول الفانـــوس وتجول في الأرضية متفحصا الجـــدران بحثا عن أي مقصـــورة مخفية. بعد فترة جلس على الســـرير وأكل قطعة من الشـــوكولاتة. لم يكن هناك أي سلاح ولن يكون هناك أي سلاح في المستقبل.

عندمـــا أفاق كان الفانوس في الأعلى يهســـهس بهدوء حيث ظهرت جدران السرداب في الضوء وكذلك الصناديق والكراتين. لـــم يعرف أين هو. كان يرقد والمعطف من فوقه. اعتدل جالســـا ونظر إلى الصبي النائم على الســـرير الآخر. كان قد خلع حذاءه لكنه لم يتذكر ذلك أيضا. تناول الحذاء من تحت السرير وارتداه قبل أن يصعد الدرج وينزع الآلة من المشبك ثم يرفع الباب وينظر إلـــى الخارج. كانت فتـــرة الصباح الباكر. نظر إلـــى المنزل ورنا نحو الطريق وأوشـــك أن يغلق الباب السحري مرة أخرى عندما توقف. ظهـــر النور الرمادي الغامض في الغرب. لقد ناما طوال الليلة والنهار الذي تلاها. أنزل الباب وثبته ثم نزل الدرج وجلس على الســـرير. جال بنظره على المواد الموجودة. لقد كان مستعدا للمـــوت قبل أيام والآن لن يحدث ذلك وعليه أن يفكر في الوضع الجديد. يمكن لأي شـــخص أن يرى الباب الســـحري القابع في

الســاحة وأن يعرف ماهيته مباشــرة. عليه أن يفكر فيما يجب فعله. هذا ليس اختباء في الغاب. إنه شــيء بعيد كل البعد عن ذلك. أخيرا نهض وذهب إلى الطاولة ورفع مدفأة الغاز الصغيرة وأشــعلها ثم أخرج مقلاة وإبريقا وفتح الصندوق البلاســتيكي الذي ضم أدوات المطبخ.

أفــاق الصبي على طحنه للقهوة فــي مطحنة يدوية صغيرة. اعتدل جالسا وجال ببصره في المكان. أبي.

- مرحبا. هل أنت جائع؟

- يجب علي الذهاب إلى الحمام. يجب أن أقضي حاجة.

أشــار بالملعقة نحو الباب الفولاذي المنخفض. لم يعرف كيف يســتخدم الحمام لكنهما سيســتخدمانه على أي حال. لم يكونا ليمكثــا هنا طويلا ولن يكون عليه فتح وإغلاق الباب الســحري أكثر مما يلزم. مر الصبي وشعره ملبد بالعرق. قال: ما هذا؟

- قهوة ولحم خنزير وبسكويت.

- مرحى! صاح الصبي.

❖ ❖ ❖

ســحب خزانة لحفظ الأحذية من علــى الأرضية إلى مكان يتوسط السريرين وغطاها بمنشفة قبل أن يرتب عليها الأطباق والأكواب والأدوات البلاستيكية. أعد وعاء من البسكويت وطبقا من الزبد وعلبــة من الحليب المركز، بالإضافــة إلى بعض الملح والفلفــل. نظر إلى الصبي الــذي بدا مخدرا. أحضر المقلاة من الفرن، ووضع بالشوكة قطعة من لحم الخنزير بنية اللون في طبق الصبــي، ووضع له بعضا من البيــض المقلي من المقلاة الأخرى،

وقدم له بعض الفاصوليا المطبوخة، وصب القهوة في الفناجين. نظر الصبي إليه.

- تفضل، قال له. لا تدع الطعام يبرد.
- بماذا أبدأ أولا؟
- أي شيء تريد.
- هل هذه قهوة؟
- نعم. هنا. ضع الزبد على البسكويت. هكذا.
- حسنا.
- هل أنت بخير؟
- لا أعرف.
- هل تشعر بشيء؟
- نعم.
- ما هو؟
- هل تعتقد أنه ينبغي أن نشكر الناس؟
- الناس؟
- الناس الذين أعطونا كل هذا.
- نعم. أظن أنه يمكننا فعل ذلك.
- هل يمكنك فعل ذلك؟
- لِمَ لا تفعل أنت ذلك؟
- لا أعرف.
- لا إنك تعرف. أنت تعرف كيف تقول شكرا.

جلس الصبي محملقا بطبقه. بدا تائها. أوشك الرجل على التحدث عندما قال الصبي: الإخوة الأعزاء. شكرا لكم على كل

هذا الطعام وهذه الأغذية. نحن نعرف أنكم وفرتموها لأنفسكم وأنه لــو كنتم هنا لما أكلناها بغض النظر عن شــدة الجوع التي نعانيها. نحن نأســف لأنه لم يتسن لكم استخدامها ونأمل أنكم الآن آمنون في الجنة بجوار الله.

نظر إلى أعلى وسأل: هل الذي قلته يفي بالغرض؟

- نعم، أعتقد أنه يفي بالغرض.

لم يشأ أن يبقى في السرداب وحده. تبع الرجل جيئة وذهابا عبر المرجة وهــو يحمل الماء بالجرار البلاســتيكية إلى الحمام خلف المنزل. أخذا المدفأة الصغيرة معهما وبعض الأواني وسخن الماء وصبه في الحوض وصب أيضا الماء من الجرار البلاستيكية. عندمــا أصبح الحوض معبأ تقريبا خلع الصبي ملابســه وخطا إلى داخل الحوض مرتجفا وجلس في الماء. بدا هزيلا ومتســخا وعاريا وهو يضع يديه على كتفيه. جاء الضوء الوحيد في المكان مــن الحلقة ذات الأســنان الزرقاء في شــعلة المدفأة. ما رأيك؟ سأل الرجل.

- أشعر بالدفء أخيرا.

- تشعر بالدفء أخيرا؟

- نعم.

- من أين حصلت على ذلك؟

- لا أعرف.

- حسنا. تشعر بالدفء أخيرا.

غسل شــعر الصبي المتسخ وحممه بالصابون والليف. صرف الماء المســتخدم من الحــوض وصب عليه ماء جديــدا دافئا من

الحلة ولفه وهو يرتجف بمنشـــفة، ثم لفه مـــرة أخرى ببطانية. مشط شعره ونظر إليه. كان البخار ينفث منه كالدخان. هل أنت بخير؟ سأله.

- قدماي باردتان.

- عليك أن تنتظرني.

- بسرعة.

اغتســـل الرجل ثم خرج من الحوض وسكب مسحوقا للغسيل في الماء ورمى سراويلهما الجينز في الماء مع مكبس للحمام. هل أنت جاهز؟ سأل الصبي.

- نعم.

خفض شـــعلة المدفأة حتى فرقعت قبل أن تنطفئ ثم أشـــعل المصباح اليدوي ووضعه على الأرض. جلســـا على حافة الحوض وارتديـــا أحذيتهما ثم ناول الصبي الحلـــة والصابون وحمل هو المدفأة وقارورة البنزين الصغيرة والمسدس ولف البطانيات وعادا عبر الساحة إلى السرداب.

جلســـا على الســـرير ورقعة الداما تتوســـطهما وقـــد ارتديا ملابس وجوارب جديدة وتدثرا في بطانياتهما الجديدة. كان قد علق فانوسا صغيرا يعمل بالغاز وشربا على ضوئه الكوكاكولا في أكواب بلاســـتيكية، وبعد برهة ذهب إلى المنزل وعصر سراويل الجينز من الماء وعاد بها وعلقها لتنشف.

- كم يمكننا البقاء هنا، يا أبي؟

- ليس طويلا.

- كم يكون ذلك؟

- لا أعرف. ربما يوما آخر أو يومين.
- لأنه مكان خطر.
- نعم.
- هل تعتقد أنهم سيجدوننا؟
- لا. لن يجدونا.
- ربما سيجدوننا.
- لا. لن يجدونا.

فيما بعد عندما كان الصبي نائما ذهب إلى المنزل وسحب بعض الأثاث إلى المرجة. ثم سحب فرشة ووضعها فوق الفتحة ومن الداخل سحبها فوق الخشب الرقائقي، وبحذر أنزل الباب لكي تغطيه الفرشة بشكل كامل. لم تكن خدعة متقنة ولكنها أفضل من لا شيء. بينما كان الصبي نائما جلس على السرير، وعلى ضوء الفانوس أخذ يسن رصاصات مزيفة من أحد الأغصان بمديته وأدخلها بحذر في الثقوب الفارغة في أسطوانة العتاد ثم جعل يسنها من جديد. شكل الأطراف بالمدية وصقلها بالملح ولطخها بالرماد حتى بدت بلون الرصاص. عندما أكمل خمسة منها أدخلها في الثقوب وأغلق الأسطوانة وأدار المسدس ونظر إليه. حتى من هذه المسافة القريبة بدا المسدس كأنه معبأ فوضعه جانبا ونهض لتلمس رجلي سرواله الجينز الذي كان ينفث بخارا من فوق السخان.

كان قد احتفظ بحفنة صغيرة من طلقات المسدس الفارغة لكنه فقدها مع الأشياء الأخرى. كان الأحرى به أن يحتفظ بها في جيبه. لقد فقد حتى الأخيرة منها. فكر في أنه ربما كان

بإمكانــه أن يعيد تعبئتها من العتاد الــذي عثر عليه هنا. فربما كان الفتيــل ملائما إذا ما اســتطاع أن ينزعه من دون أن يتلفه. ومن ثم يصقل الرصاصات بالحجم المناســب بالمشــرط. نهض وجــال جولة أخيرة عبر المخازن. خفض المصباح حتى تلاشــت الشــعلة وقبل الصبي قبل أن يندس في السرير الآخر من تحت البطانيات الجديــدة وحملق مرة أخرى في هذه الجنة الصغيرة التي كانت ترتعش في ظل الضوء البرتقالي الآتي من الســخان، ثم استسلم للنوم.

لقد هجر أهل هذه البلدة مكانهم منذ ســنين خلت. ولكنهما ســارا في الشوارع القذرة بحذر وكان الصبي ملتصقا بيده. مرا بمســتودع معدنــي للزبالة حيث حاول البعض فــي يوم ما حرق الجثث. كان من الممكــن عدم تمييز اللحم والعظام المتفحمة من تحت الرماد الرطب لولا أشــكال الجماجــم الظاهرة. لم تنبعث أي رائحة من المكان. ظهرت ســوق في نهاية الشــارع وتكدست في أحد الممرات الصناديق الفارغة. وجدا ثلاث عربات معدنية للتسوق فتفحصها وســحب إحداها وقرفص وأدار العجلات ثم وقف ودفعها في أعلى الممر ثم إلى أسفله من جديد.

- يمكننا أخذ اثنتين منها، قال الصبي.

- لا.

- يمكنني دفع واحدة.

- أنت تقوم بعمل الكشافة. أريدك أن تكون حارسنا.

- ماذا سنفعل بكل هذه المواد؟

- علينا أن نأخذ منها ما نستطيع فقط.

- هل تظن أن أحدا ما قادم إلى هنا.
- نعم. في وقت ما.
- لقد قلت إنه لن يأتي أحد إلى هنا.
- لم أعن أن ذلك سوف يستمر إلى الأبد.
- أتمنى لو نستطيع العيش هنا.
- أعرف ذلك.
- يمكننا أن نستمر في المراقبة.
- نحن نراقب الآن.
- ماذا لو جاء بعض الناس الطيبين؟
- لا أظن أن من المحتمل أن نقابل أي أناس طيبين في الطريق.
- نحن في الطريق.
- أعرف ذلك.
- إذا كنت تراقب المكان كل الوقت هل ذلك يعني أنك تشعر بالرعب كل الوقت؟
- يفترض أن تكون خائفا إلى درجة معينة لكي تراقب المكان في المقام الأول. ولكي تكون أكثر حذرا، تراقب عن كثب.
- لكن في بقية الوقت لا تكون مرتعبا؟
- بقية الوقت؟
- نعم.
- لا أعرف. ربما ينبغي أن تراقب دائما. إذا كان الخطر يأتي عندما تكون أقل توقعا له فربما ما ينبغي فعله هو أن تتوقعه دائما.

- هل تتوقعه دائما يا أبي؟
- نعم أفعل. لكن أحيانا أنسى أنني أقوم بالمراقبة.

أجلس الصبي على خزانة الأحذية تحت الفانوس وأخذ يقص شعره مستخدما مشطا بلاستيكيا ومقصا. حاول أن يقوم بعمل جيد واستغرق ذلك بعض الوقت. عندما انتهى من ذلك تناول المنشفة من على كتفي الصبي وجمع بها الشعر الذهبي من على الأرضية ومسح وجه الصبي وكتفيه بقطعة قماش مبللة ثم رفع مرآة أمام الصبي ليرى نفسه.

- لقد قمت بعمل جيد يا أبي.
- يسرني ذلك.
- أبدو نحيلا جدا.
- أنت نحيل جدا.

ثم قص شعره بنفسه، لكن ليس بالجودة نفسها. شذب لحيته بمقص بينما كان الماء في الحلة يسخن ثم حلق لنفسه بشفرة حلاقة بلاستيكية. كان الصبي يراقبه. عندما أكمل نظر إلى نفسه في المرآة فبدا كأنه من دون ذقن. استدار نحو الصبي. كيف أبدو؟ أدار الصبي رأسه. قال: لا أعرف. هل ستعاني البرد جراء ذلك؟

تناولا وجبة فخمة على أضواء الشمع ضمت لحم الخنزير والفاصوليا الخضراء والبطاطا المهروسة والبسكويت ومرق اللحم. وجد أربع قوارير من الويسكي من حجم ربع جالون كانت لم تزل في أكياس الورق التي ابتيعت فيها. شرب بعض الويسكي في كأس مع الماء. شعر بدوار حتى قبل أن يكملها ولم يشرب

المزيد. أكلا دراقا وبسكويتا بالكريمة كحلوى ثم شربا القهوة. وضع الأطباق الورقية والأدوات البلاستيكية في كيس للقمامة. لعبا الداما بعض الوقت ثم وضع الصبي في سريره لينام.

في أثناء الليل أيقظته الطقطقة المخنوقة للمطر على الفرشة التي تغطي الباب من فوقهما. استنتج أن المطر كان شديدا كونه استطاع سماعه. نهض وحمل المصباح اليدوي وصعد الدرج ورفع الباب موجها ضوء المصباح عبر الساحة. كانت المياه قد غمرت الساحة والمطر لم يزل منهمرا. أغلق الباب. كانت المياه قد تسربت إلى الداخل وسالت من على الدرج لكنه اعتقد أن السرداب نفسه محصن إلى حد كبير ضد الماء. ذهب لتفقد أحوال الصبي الذي كان مبتلا بالعرق فأزاح إحدى البطانيات عنه ثم خفض شعلة السخان وأوى إلى الفراش.

عندما أفاق مرة أخرى تصور أن المطر قد توقف، لكن ذلك لم يكن الشيء الذي أيقظه. كان قد زاره في منامه مخلوقات من نوع لم يرها من قبل. لم تتكلم تلك المخلوقات. تصور أنها كانت تجثم بجانب سريره في أثناء نومه ثم تتوارى عندما يستيقظ. استدار ونظر إلى الصبي. ربما فهم لأول مرة أنه كان غريبا بالنسبة إلى الصبي فقد كان مخلوقا من كوكب لم يعد موجودا وكانت قصصه مشكوكا فيها. لم يستطع أن يوفر لإسعاد الطفل العالم الذي كان قد فقده من دون أخذ الخسارة بعين الاعتبار أيضا، وتصور أن الطفل ربما كان يعرف ذلك أكثر منه. حاول أن يتذكر الحلم لكنه لم يستطع. كل ما بقي من الحلم هو الشعور الذي تركه. تصور أنهم ربما جاءوه لتزويده بالدفء. أي دفء؟ فما لم

يســتطع أن يشــعله في فؤاد الطفل كان الرماد الذي لف حياته هــو. حتى تلك اللحظة تمنى جزءا ما منه لو أنهما لم يتمكنا من النجاة. تمنى جزءا ما منه دائما لو أن الأمر ينتهي الآن.

تفحــص الصمام فــي خزان الوقود الذي قــد فصله قبل أن يقلب المدفأة الصغيــرة على خزانة الأحذية وجلس يفككها. فك الإطار الســفلي ونزع ماكينة الإشعال وفصل الشعلتين إحداهما عن الأخــرى بمفتاح هلالي صغير. قلب جــرة الأدوات المعدنية واختــار أحد المســامير وأدخله في ثقب الوصلة ثم شــده. ثبت الخرطوم إلى الخزان ورفع السخان الصغير والخفيف عاليا في يــده. وضعه على الخزانة وحمل ما تبقــى من المدفأة ورماه في القمامة ثم صعد الدرج ليتفقد الجو. لقد امتصت الفرشــة التي تغطــي الباب قدرا كبيرا من المــاء وكان من الصعب رفع الباب. وقف رافعا الباب على كتفيه ونظر إلى الخارج. كان المطر خفيفا وكان من المستحيل تحديد الوقت في ذلك النهار. نظر إلى المنزل وإلى الأراضي التــي تقطر ماء قبل أن يترك الباب وينزل الدرج ويهم بإعداد الإفطار.

قضيا يومهما في الأكل والنــوم. كان يخطط لترك المكان لكن كان المطر مبررا كافيا للبقاء. كانت عربة التسوق في المخزن ومن غير المتوقع أن يسلك الطريق أي شخص في ذلك اليوم. فتشا في المخازن واختارا الأشــياء التي يريــدان أخذها وكوماها في زاوية الملجــأ. كان النهار قصيــرا، بالكاد يمكن وســمه بالنهار. بحلول الظلام كان المطر قد توقــف. فتحا الباب وبدآ ينقلان الصناديق والحزم والأكياس البلاســتيكية عبر الساحة إلى المخزن ويرتبانها

في العربة. كان الباب السحري الباهت الإضاءة جاثما في ظلمة الساحة مثل قبر يتثاءب في لوحة تتنبأ بنهاية الكون. عندما عبآ ما تستطيع العربة حمله ربط مشمعا بلاستيكيا فوقها وشد المرابط إلى الأسلاك بخيوط مطاطية. خطوا إلى الخلف ووقفا ينظران إليها مستخدمين المصباح اليدوي. فكر في أنه كان ينبغي عليه أخذ بضع عجلات إضافية من العربات الأخرى لكن الوقت لا يسمح بذلك الآن. وكان ينبغي عليه أيضا أن يحتفظ بمرآة الدراجة النارية التي كانا يستخدمانها في عربتهما القديمة. تناولا العشاء وانتظرا حتى الصباح ثم استحمما مرة أخرى مستخدمين الليف وغسلا شعرهما في أحواض من الماء الدافئ. تناولا إفطارهما ومع الضوء الأول كانا في الطريق وهما يرتديان أقنعة جديدة قصَّاها من أغطية الأسرّة. كان الصبي يسير في الأمام حاملا مكنسة يزيح بها العيدان والأغصان من الطريق والرجل ينحني على يد العربة مراقبا الطريق التي تتبدى أمامهم.

لم يكن بإمكانهما دفع العربة في أرض الغاب الرطبة فأمضيا وقت الظهيرة في الطريق، حيث قاما بإعداد الشاي وتناولا ما تبقى من لحم الخنزير المعلب والبسكويت والخردل وصلصة التفاح المطبوخ وهما يجلسان ظهرا إلى ظهر ويراقبان الطريق.
هل تعرف أين نحن يا أبي؟ سأل الصبي.

- إلى حد ما.
- كيف إلى حد ما؟
- لنر. أعتقد أننا على بعد مائتي ميل من الشاطئ. كما يطير الغراب.

- كما يطير الغراب؟

- نعم. هذا يعني السير في خط مستقيم.

- هل سنصل إلى هناك قريبا؟

- ليس قريبا جدا. قريبا إلى حد ما. نحن لا نسير كما يطير الغراب.

- لأن الغربان لا تتبع الطرق؟

- نعم.

- تستطيع الطيران أينما أرادت.

- نعم.

- هل تعتقد بوجود غربان في مكان ما؟

- لا أعرف.

- لكن ماذا تعتقد؟

- أعتقد أن ذلك من غير المحتمل.

- هل تســتطيع الغربان الطيران إلى المريخ أو إلى مكان آخر من هذا القبيل؟

- لا. لا تستطيع.

- لأن المسافة مستحيلة؟

- نعم.

- حتى لو أرادت ذلك؟

- حتى لو أرادت ذلك.

- ماذا لو حاولت ووصلت إلى منتصف الطريق أو شــيء من هذا القبيل ثم لم تســتطع الاستمرار بسبب التعب، هل ستسقط إلى الأرض من جديد؟

- دعني أفكر. في الحقيقة لن تستطيع الوصول إلى منتصف الطريق لأنها عندئذ ستكون في الفضاء ولا يوجد أي هواء في الفضاء، لذا لن يكون بإمكانها الطيران، هذا بالإضافة إلى البرد الشديد الذي سيؤدي إلى هلاكها تجمدا.

- يا إلهي.

- على أي حال لن يكون بمقدور الغربان أن تعرف مكان المريخ.

- هل نحن نعرف أين مكان المريخ؟

- إلى حد ما.

- لو كنا نملك سفينة فضائية هل سيمكننا الذهاب إلى هناك؟

- دعني أفكر. لو كان لديك سفينة فضائية جيدة وعندك أناس يستطيعون مساعدتك أتصور أنه يمكنك الذهاب.

- هل سيتوافر الطعام والمواد الأخرى هناك؟

- لا. لا يوجد أي شيء هناك.

- يا إلهي.

جلسا فترة طويلة على بطانياتهما المطوية وهما يراقبان الطريق في الاتجاهين. لم تتحرك الرياح وسكن كل شيء. بعد برهة قال الصبي: لا يوجد أي غربان. أليس كذلك؟

- لا. لا يوجد.

- فقط في الكتب.

- نعم. في الكتب فقط.

- لم أتصور ذلك.

- هل أنت جاهز؟
- نعم.

نهضا وأخذا الأكواب وبقية البسكويت. وضع الرجل البطانيات على العربة وشد المشمع عليها ثم نظر إلى الصبي. ما الأمر؟ سأل الصبي.

- أعرف أنك ظننت أننا سنموت.
- نعم.
- لكننا لم نمت.
- لا، لم نمت.
- حسنا.
- هل يمكنني أن أطرح سؤالا؟
- طبعا.
- لو كنت غرابا هل سيكون باستطاعتك الطيران عاليا إلى درجة يمكنك منها رؤية الشمس؟
- نعم. يمكن ذلك.
- هذا ما تصورته. سيكون ذلك رائعا.
- نعم. سيكون ذلك رائعا. هل أنت جاهز؟
- نعم.

توقف وسأله: ماذا حدث لمزمارك؟

- رميته.
- رميته؟
- نعم.
- حسنا.

- حسنا.

عبرا في أثناء الشـفق الرمادي الطويـل أحد الأنهار وتوقفا لينظرا من على السـور الأسـمنتي إلى المياه البطيئة التي جرت مـن تحتهما والتـي خلت من أي أثر للحياة. بـدت معالم مدينة احترقت مرسـومة على حجاب من الرماد في أسـفل النهر مثل ستارة سوداء من الورق. رأياها مرة أخرى في بداية الظلمة بينما كانا يدفعان العربة الثقيلة على تل طويل حيث توقفا لأخذ قسط من الراحة وقد أدارا عجلات العربة عكس مسارها في الطريق. كانت أقنعتهما قد اكتسـت بالرماد حول الفم ورسـمت أعينهما في الرماد الداكن. جلسـا في الرمـاد بجانب الطريق ورنوا إلى المشـرق حيث بدأت عتمة الليل تغشى معالم تلك المدينة. لم يريا أي أضواء.

- هل تعتقد بوجود أحد هناك يا أبي؟

- لا أعرف.

- متى سنتوقف؟

- يمكننا التوقف الآن.

- على هذا التل؟

- نسـتطيع أخـذ العربـة إلـى تلـك الصخور ثـم نغطيها بالأغصان.

- هل هذا مكان جيد للتوقف؟

- دعني أفكر. الناس لا يحبون التوقف على التلال. ونحن لا نريدهم أن يتوقفوا.

- لذا فهو مكان جيد لنا.

- أعتقد ذلك.
- لأننا أذكياء.
- علينا ألا نفرط في استخدام الذكاء.
- حسنا.
- هل أنت جاهز؟
- نعم.

توقف الصبي وتناول المكنسة ووضعها على كتفه. نظر إلى أبيه وسأل: ما هي أهدافنا على المدى البعيد؟

- ماذا؟
- أهدافنا على المدى البعيد.
- أين سمعت هذه العبارة؟
- لا أعرف.
- لا، أين سمعتها؟
- أنت من استخدمها.
- متى؟
- منذ زمن بعيد.
- ماذا كانت الإجابة؟
- لا أعرف.
- وأنا أيضا لا أعرف. هيا. لقد حل الظلام.

في وقت متأخر من اليوم التالي وبينما كانا يمران عبر منحنى في الطريق توقف الصبي ووضع يده على العربة. همس: أبي. نظر الرجل إلى أعلى فبدا جسم صغير عن بعد في الطريق، يشق طريقه منحنيا.

وقف متكئا على يد العربة وقال: لنر. من يكون هذا؟
- ماذا ينبغي أن نفعل يا أبي؟
- يمكن أن يكون شراكا.
- ماذا سنفعل؟
- لنتابع. سنرى إن كان سيلتفت إلى الخلف.
- حسنا.

لم يكن ذلك المسافر من النوع الذي يلتفت إلى الخلف فتابعاه بعض الوقت ثم تجاوزاه. كان رجلا عجوزا، صغير الحجم محني الظهر. يحمل على ظهره حقيبة عسكرية قديمة، وقد ربطها من الأعلى بلفة من بطانية، وكان يتلمس طريقه بعصا من غصن مقشور. عندما رآهما انحرف إلى جانب الطريق واستدار ووقف متحفزا. كان يربط منديلا متسخا على فكه كأنه يعاني ألما في أسنانه. كانت رائحته كريهة حتى بمقاييس عالمهم الجديد.

خاطبهما: لا أملك شيئا. يمكنكما التحقق من ذلك.
- نحن لسنا لصوصا.

أمال إحدى أذنيه إلى الأمام. صاح: ماذا؟
- قلت إننا لسنا لصوصا.
- ماذا تكونون إذن؟

لم يكن باستطاعتهما الإجابة عن ذلك السؤال. مسح أنفه بظهر يده ووقف منتظرا. كان بلا حذاء تماما وقد لف قدميه بخرق وقطع من الكرتون ربطها بخيوط خضراء وبضع طبقات من قماش بال ظهر من بين الشقوق

والثقوب. فجأة ظهر أكثر وهنا. اتكأ الرجل على عصاه ومضى أسفل الطريق حتى جلس بين الرماد وإحدى يديه فوق رأسه. بدا كأنه حزمة من الخرق سقطت من عربة ما. تقدما إلى الأمام ووقفا ينظران إليه. قال الرجل: يا أخي؟ يا أخي؟

قرفص الصبي ووضع يده على كتفه. إنه يشعر بالهلع يا أبي. يشعر بالهلع.

نظر إلى أعلى الطريق وإلى أسفله. قال: إذا كان هذا كمينا فليمض هو أولا.

- إنه يشعر بالهلع يا أبي، ليس إلا.

- أخبره بأننا لن نؤذيه.

هز الرجل رأسه من جهة إلى أخرى وقد غرس أصابعه في شعره المتسخ. نظر الصبي إلى أبيه.

- ربما يعتقد أننا لسنا حقيقيين.

- ماذا يعتقد أننا؟

- لا أعرف.

- لا يمكننا البقاء هنا. علينا متابعة المسير.

- إنه يشعر بالهلع يا أبي.

- أعتقد أنه لا ينبغي أن تلمسه.

- ربما يمكننا إعطاؤه بعض الطعام.

وقف ينظر إلى أسفل الطريق. همس: اللعنة. نظر إلى الرجل العجوز. ربما يتحول الرجل إلى نبي ويتحولان هما إلى أشجار. قال: حسنا.

فك المشـــمع وطواه وبحـــث فـــي المواد المعلبة وأخرج علبة مـــن خليط للفواكه وتناول مفتـــاح العلب من جيبه وفتحها ثم طـــوى غطاءها إلى الخلف. تقدم وجلـــس القرفصاء وناولها الصبي.

- ألا يحتاج إلى ملعقة؟

- لا يمكنه استخدام ملعقة.

أخذ الصبـــي العلبة وناولها الرجل العجـــوز. همس: خذها. هنا.

رفع الرجل العجـــوز عينيه ونظر إلى الصبـــي. أومأ الصبي له بالعلبة فبدا كأنه شـــخص يحاول أن يطعم نســـرا مصابا في الطريق. قال: هيا، خذها.

أنـــزل الرجـــل العجوز يده عن رأســـه وطـــرف بعينيه. كانت عيناه الزرقاوان الشـــاحبتان غائرتين في تجاعيد جلده الرمادية النحيلة.

- خذها، كرر الصبي.

مد مخالبه النحيلة وأخذها وضمها إلى صدره.

قـــال الصبـــي: كلها، إنها طيبـــة. أومأ إلى فمـــه بيديه. نظر الرجل العجـــوز إلى العلبة. أعاد مســـكها ورفعها وأنفه يتجعد. تشبثت مخالبه الطويلة الصفراء بالعلبة، ثم رفعها إلى فمه وبدأ يرتشـــف من عصيرها الذي ســـال على لحيته المتسخة. خفض العلبـــة وجعل يمضغ بصعوبة. كان يرج رأســـه عند البلع. همس الصبي: انظر يا أبي.

- أرى ذلك، قال الرجل.

استدار الصبي ونظر إليه.

- أعرف السؤال الذي ستطرحه، قال الرجل. وجوابي على سؤالك هو: لا.

- ما هو السؤال؟

- هل يمكننا أخذه معنا. لا يمكننا ذلك.

- أعرف ذلك.

- تعرف ذلك؟

- نعم.

- حسنا.

- هل يمكن أن نعطيه شيئا آخر؟

- لنر كيف يتناول هذا الطعام.

كانا يراقبانه بينما كان يأكل. عندما فرغ من الأكل جلس وهو يرفع العلبة الفارغة وينظر إلى داخلها كأنه يبحث عن المزيد.

- ما الذي تريد أن تعطيه؟

- ما الذي تظن أنه في حاجة إليه؟

- لا أظنه في حاجة إلى أي شيء. ماذا تريد أن تعطيه؟

- يمكننا أن نطبخ شيئا على السخان. يمكنه أن يأكل معنا.

- أنت تتحدث عن التوقف طوال الليلة.

- نعم.

نظر إلى الرجل العجوز ونظر إلى الطريق وقال: حسنا. لكن سنتابع المسير غدا.

لم يرد الصبي.

- هذه هي أحسن صفقة ستحصل عليها.

- حسنا.

- حســنا تعني حســنا. لا تعني أننا ســنتفاوض على صفقة أخرى غدا.

- ما معنى نتفاوض؟

- تعنــي مزيدا من الحديث عنها والخروج بصفقة أخرى. لن تكون هناك صفقة أخرى. انتهى الأمر.

- حسنا.

- حسنا.

ســاعدا الرجل العجوز على الوقوف وناولاه عصاه. كان وزنه لا يتجاوز أربعــين كيلوغراما. وقف ينظر حولــه مرتبكا. تناول الرجل العلبــة منه ورماها في الغابة. حــاول الرجل العجوز أن يناوله العصا لكنه دفعها بعيدا. ما آخر مرة تناولت فيها الطعام؟ سأله.

- لا أعرف.

- لا تتذكر؟

- لقد أكلت الآن.

- هل تريد أن تأكل معنا؟

- لا أعرف.

- لا تعرف؟

- آكل ماذا؟

- ربما مرقا من لحم البقر مع البسكويت وبعض القهوة.

- أخبرنا أين ذهب العالم.

- ماذا؟

- لن نطلب منك فعل أي شيء. هل تستطيع المشي؟
- أستطيع المشي.

نظر إلى الصبي. هل أنت صبي صغير؟ سأله.

نظر الصبي إلى والده.

- كيف يبدو؟ سأل والد الصبي.
- لا أعرف. لا أبصر بشكل جيد.
- هل تستطيع رؤيتي؟
- أستطيع القول إن ثمة شخصا.
- جيد. علينا أن نتحرك. نظر إلى الصبي وقال: لا تمسك يده.
- إنه لا يستطيع أن يرى.
- لا تمسك يده. لنذهب.
- إلى أين نحن ذاهبون؟ سأل الرجل العجوز.
- لتناول الطعام.

أومأ برأسه ومد عصاه ضاربا بتردد على الطريق.

- كم عمرك؟
- تسعون عاما.
- لا، لا تبلغ التسعين.
- حسنا.
- هل هذا ما تقوله للناس؟
- أي ناس؟
- أي ناس.
- أظن ذلك.

- لكي لا يؤذوك؟
- نعم.
- هل تنجح في ذلك؟
- لا.
- ماذا يوجد في حقيبتك؟
- لا شيء. يمكنك التأكد من ذلك.
- أعرف أنني أستطيع التأكد من ذلك. ماذا يوجد فيها؟
- لا شيء. بعض الأغراض، ليس إلا.
- هل يوجد أي طعام؟
- لا.
- ما اسمك؟
- إيلي.
- إيلي ماذا؟
- ما العيب في إيلي؟
- لا شيء. لنتحرك.

❖ ❖ ❖

خيموا في الغاب في مكان يقرب من الطريق أكثر مما كانوا يريدون. كان عليه أن يسحب العربة بينما كان الصبي يدفعها من الخلف. أوقدا نارا من أجل تزويد الرجل العجوز بالدفء على الرغم من أنه لم يرق له ذلك كثيرا أيضا. جلسوا وكان الرجل العجوز يلف نفسه ببطانيته الوحيدة ويقبض على الملعقة كطفل. كان لديهم كوبان فقط فشرب العجوز القهوة من الإناء الذي أكل منه، وإبهاماه يمسكان بحافته، جالسا مثل زاهد يتضور جوعا

بثيابه الرثة ومحملقا في الجمر. قال الرجل: لا يمكنك الذهاب معنا. أنت تعرف ذلك.

أومأ برأسه.

- كم المدة التي أمضيتها في الطريق؟

- لقد كنت دائما في الطريق. لا يستطيع المرء البقاء في مكان واحد.

- كيف تعيل نفسك؟

- أستمر هكذا فقط. لقد عرفت أن شيئا ما في طريقه إليّ.

- عرفت أن شيئا ما في طريقه إليك؟

- نعم. أنتم أو شيء من هذا القبيل. لقد كنت أعتقد دائما بذلك.

- هل حاولت أن تستعد لذلك؟

- لا. ماذا أستطيع أن أفعل؟

- لا أعرف.

- كان الناس دائما يستعدون للغد. لم أعتقد ذلك. لم يكن الغد مستعدا لهم. لم يكن حتى يعرف أنهم كانوا موجودين.

- لا أظن ذلك.

- حتى لو عرفت ما عليك فعله فلن تعرف ما يتعين فعله. لن تعرف إن كنت تريد فعل ذلك أم لا. لنفترض أنك آخر شخص بقي؟ لنفترض أنك فعلت ذلك لنفسك، هل تتمنى الموت؟

- لا. لكن ربما أتمنى لو أنني مت. عندما تكون حيا يكون هناك دائما شيء أمامك.

- أو ربما تتمنى أنك لم تولد على الإطلاق.

- لنر. المتسول لا يملي شروطه.

- تعتقد أن ذلك طلب يتجاوز المعقول. ما قد حدث قد حدث. على أي حال من الحماقة أن يطلب المرء الرفاهية في أوقات كهذه.

- هذا ما أظنه.

- لا أحد يريد أن يكون هنا ولا أحد يريد أن يرحل. رفع رأسه ونظر إلى الصبي خلف النار. ثم نظر إلى الرجل. كان بإمكان الرجل رؤية عينيه الصغيرتين تراقبانه على ضوء اللهب. لا يعلم إلا الله ما رأته هاتان العينان. نهض لتزويد النار بمزيد من الحطب وأعاد جرف الجمر من الأوراق الميتة. تطاير الشرر الأحمر مرتعشا قبل أن يتلاشى في العتمة التي تلف المكان. شرب الرجل العجوز ما تبقى من قهوته ووضع الإناء أمامه وانحنى نحو النار مادا يديه. كان الرجل يراقبه. قال: كيف لك أن تعرف لو كنت آخر رجل على وجه الأرض؟

- لا أظن أنك ستعرف ذلك. ستكون أنت ذلك، ليس إلا.

- لن يعرف أحد بذلك؟

- لن يكون هناك أي فرق. عندما تموت سيكون ذلك هو المصير نفسه الذي مر به غيرك أيضا.

- لا أفهم كيف أنك لم تزل على قيد الحياة. كيف توفر طعامك؟

- لا أعرف.

- لا تعرف؟

- الناس يعطونني بعض الأشياء.
- الناس يعطونك بعض الأشياء؟
- نعم.
- لتأكلها؟
- لآكلها. نعم.
- ليس هذا صحيحا.
- لقد فعلت أنت ذلك.
- لا، لم أفعل. هذا ما فعله الصبي.
- هناك أنــاس آخرون في الطريق. أنتما لســتما الوحيدين هنا.
- هل أنت وحيد هنا؟
نظر الرجل العجوز بتحفز وسأله: ماذا تعني؟
- هل يوجد أناس آخرون معك؟
- أي أناس؟
- أي أناس.
- لا يوجد أي أناس معي. ما الذي تتحدث عنه؟
- أنا أتحدث عنك. عن العمل الذي ربما أنك تقوم به.
لم يرد الرجل العجوز.
- أفترض أنك تريد الذهاب معنا.
- الذهاب معكم؟
- نعم.
- لن تأخذوني معكم.
- لا تريد الذهاب؟

- لم أكن لأقطع حتى هذه المسافة لكنني كنت جائعا.

- الناس الذين أعطوك الطعام. أين هم؟

- لا يوجد أي ناس. لقد كان ذلك من نسج الخيال، ليس إلا.

- ماذا نسج خيالك غير ذلك؟

- أنا في الطريق مثلكما تماما. لا أختلف عنكما.

- هل حقا أن اسمك إيلي؟

- لا.

- لا تريد أن تقول اسمك.

- لا أريد أن أقوله.

- لماذا؟

- لم أشأ أن أئتمنك عليه. أن تفعل شيئا به. لا أريد أن يتكلم أحد عني. مثل أن يتذكر أين كنت أو ماذا قلت عندما كنت في مكان ما. أعني أنه يمكن أن تتكلم عني. لكن لا أحد يمكنه القول إن ذلك الشخص هو أنا. يمكن أن أكون أي شخص. أظن أنه في أوقات كهذه كلما قل الكلام كانت الأمور أحسن. لو حدث شيء وكنا من الناجين وتقابلنا في الطريق فسيكون لدينا شيء نتحدث عنه. لكننا لسنا كذلك. لذا لا يوجد ما نتحدث عنه.

- ربما لا.

- لا تريد أن تقول ذلك أمام الصبي، ليس إلا.

- أنت لست طُعما لمجموعة من قطاع الطرق؟

- أنا لست أي شيء. سأرحل إن أردت ذلك. يمكنني الاهتداء إلى الطريق.

- لا نطلب منك الرحيل.

- لم أر نارا منذ وقت طويل. هذا كل شــيء. أعيش كحيوان. لا تريدون معرفة الأشــياء التي كنــت أقتات عليها. عندما رأيت ذلك الصبي اعتقدت أنني قد مت.

- اعتقدت أنه أحد الملائكة؟

- لم أعرف ماذا كان. لم أتصور أن أرى طفلا مرة أخرى. لم أعرف أن ذلك ســيحدث. من الأفضل أن يكون المرء وحيدا. لذا آمل ألا يكون ما قلت صحيحا لأن وجود المرء في الطريق مع آخر ســيكون شــيئا مرعبا. لذا آمل ألا يكون ذلك صحيحا. سيكون الوضع أفضل عندما يرحل الجميع.

- سيرحلون؟

- من الأفضل أن يرحلوا.

- أفضل لمن؟

- للجميع.

- للجميع؟

- بالتأكيد. سيكون الجميع في وضع أفضل. سيتنفس الجميع بطريقة أسهل.

- من الجيد معرفة ذلك.

- نعــم، من الجيد. عندما يكون الجميع قد رحلوا أخيرا فلن يبقى أحد هنا غير الموت الذي ســتصبح أيامــه معدودة أيضا. ســيكون منتشــرا في الطريق هكذا مــن دون أي عمل ومن دون وجود أناس يتســلى بهم. سيســأل: أين رحل الجميع؟ وهذا ما ستؤول الأمور إليه. ما العيب في ذلك؟

فـــي الصباح وقف الرجل والصبي في الطريق يتجادلان حول ما ســـيعطيانه للرجل العجوز. في النهاية لم يحصل على الكثير. أعطياه بعض علب الخضـــراوات والفواكه. أخيرا ذهب الصبي إلـــى حافة الطريق وجلـــس على الرماد. أدخـــل الرجل العجوز العلب في حقيبته وشـــد الأربطة. قال الرجل: ينبغي أن تشكره. لم أكن لأعطيك أي شيء.

- ربما ينبغي عليّ ذلك وربما لا ينبغي.
- لِمَ لا؟
- لم أكن لأعطيه من متاعي.
- أنت لا تكترث إن جرحت مشاعره؟
- هل سيجرح ذلك مشاعره؟
- لا. لم يفعل ذلك من أجل هذا.
- لِمَ فعل ذلك؟

نظـــر إلى الصبي ونظـــر إلى الرجل العجـــوز وقال: لن تفهم ذلك. لست متأكدا إن كنت أنا نفسي أفهم ذلك.

لم يرد الرجل العجوز. التفت حوله.

- لن تتمنى لنا التوفيق أيضا، أليس كذلك؟ قال الرجل.
- لا أعرف ماذا يمكن أن يعني ذلك. كيف يمكن معرفة شكل التوفيق. من يمكنه أن يعرف شيئا كهذا؟

ثم افترقوا، كل في ســـبيله. عندمـــا نظر وراءه كان الرجل العجـــوز قد بدأ المســـير وهو يحمل عصـــاه ويتلمس طريقه متمايـــلا ببطء في الطريق من خلفهمـــا مثل بائع متجول في أحـــد كتب القصص مـــن الزمن الغـــابر، وقد اســـودّ وانحنى

وهزل وقريبا ســيغيب إلى الأبد. لم ينظر الصبي إلى الخلف على الإطلاق.

في فترة مبكرة من العصر فرشـــا المشمع في الطريق وجلسا وتناولا غداء باردا. كان الرجل يراقب الصبي. بادره ســـائلا: ألا تتكلم؟

- نعم.

- لكنك لست سعيدا.

- أنا بخير.

- عندما ينفد طعامنا سيكون لديك مزيد من الوقت للتفكير في ذلك.

لـــم يرد الصبي. تناولا الطعام. نظر خلفه إلى أعلى الطريق. بعـــد برهة قال: أعرف ذلك. لكنني لن أتذكر ما حدث بالطريقة نفسها التي تتذكره بها أنت.

- ربما لا.

- لم أقل إنك كنت مخطئا.

- حتى لو فكرت في ذلك.

- لا بأس.

- نعم، قال الرجل. لنر. ليســـت هناك أخبار سارة كثيرة في الطريق. في أوقات كهذه.

- ينبغي ألا تسخر منه.

- حسنا.

- سيواجه الموت.

- أعرف ذلك.

- هل يمكننا الذهاب الآن؟
- نعم، قال الرجل. نستطيع الذهاب.

في الليل أفاق في العتمة القارسة وقد انتابه السعال وظل يسعل حتى برد صدره. مال نحو النار ونفخ في الجمر ووضع المزيد من الحطب قبل أن ينهض ويتمشى بعيدا عن المخيم في حدود المسافة التي أنارها الضوء القادم من اللهب. جثا بين الأوراق الجافة والرماد والبطانية ملفوفة حول كتفيه وبعد فترة بدأ السعال يخف. فكر في الرجل العجوز الموجود هناك في مكان ما. كان يأمل أن الصبي قد خلد للنوم من جديد. ظل جاثيا في المكان وهو يتنفس ببطء ويداه على ركبتيه. قال: سأموت. قل لي كيف أفعل ذلك.

❖ ❖ ❖

في اليوم التالي شقا طريقهما حتى حلول الظلام تقريبا. لم يتمكن من العثور على مكان آمن لإيقاد النار. عندما رفع السخان من العربة شعر بأنه خفيف. جلس وأدار الصمام لكن الصمام كان مفتوحا. أدار الزر الصغير للشعلة لكن لم يحدث أي شيء. انحنى وأصغى. حاول إدارة كلا الصمامين من جديد بتوليفاتهما المختلفة. كان الخزان فارغا. قرفص ويداه مشبوكتان في قبضة على جبهته وعيناه مغلقتان. بعد برهة رفع رأسه وجلس هناك يحملق في البرد والغاب الذي غشيته الظلمة.

تناولا عشاء باردا مكونا من خبز الذرة والفاصوليا والنقانق. سأله الصبي: كيف أصبح الخزان فارغا بهذه السرعة؟ لكنه اكتفى بالقول: إن ذلك ما حصل.

- لقد قلت إنه سيكفي عدة أسابيع.
- أعرف ذلك.
- لكن لم يمض سوى بضعة أيام.
- لقد كنت مخطئا.

تناولا الطعام بصمت. بعد برهة قال الصبي: لقد نسيت أن أغلق الصمام، أليس كذلك؟

- هذه ليست غلطتك. كان عليّ التأكد من ذلك.

وضع الصبي طبقه على المشمع ونظر جانبا.

- إنها ليست غلطتك. كان ينبغي إغلاق الصمامين. كان يفترض أن تُغطَّى الفتيلة بالشريط لكي لا تسرب الوقود وأنا لم أفعل ذلك. إنها غلطتي. لم أخبرك بذلك.
- لم يكن هناك أي شريط، أليس كذلك؟
- إنها ليست غلطتك.

تابعا سيرهما بخطوات ثقيلة وقد هزل جسداهما واتسخا كمدمني الأزقة. لفا نفسيهما ببطانياتهما في مواجهة البرد وأنفاسهما تتصاعد وهما يشقان طريقهما عبر أكوام الرماد السوداء الناعمة. عبرا السهل الساحلي العريض حيث ألقت الرياح السرمدية بهما في خضم غيوم من الرماد ليبحثا عن أي ملجأ يجدانه، سواء كان منزلا أو مزرعة للحيوانات أو تحت جسر على جانب الطريق. كانا يلفان بطانياتهما حول رأسييهما وبدت سماء الظهيرة السوداء مثل زنزانات الجحيم. ضم الصبي الذي نخر البرد عظمه إليه وقال له: لا تيأس. سنكون على ما يرام.

تشـــكلت الأخاديد في الأراضي الممتـــدة وبدت عارية قاحلة. انتشـــرت عظام المخلوقات الميتة فـــي الطمي، وظهرت أكوام من القمامة التي لا يمكن تمييزها. أطلت البيوت الريفية وقد اختفى طلاؤها، وانفكت الألواح الخشبية عن جدرانها وسقطت أرضا. كان كل هـــذا خاليا من الظل ومـــن أي ملامح. انحدرت الطريق عبـــر غابة من الكرمة ولاحت تخوم تطفو فيها ســـيقان القصب على المـــاء. من وراء الحقول خيم الضبـــاب الكئيب فوق الأرض والســـماء على حد ســـواء. في وقت متأخر من فترة العصر بدأ الثلج يتســـاقط. تابعا سيرهما والمشمع من فوقهما وحبات الثلج تهسهس على سطح المشمع.

لم ينم إلا قليلا منذ عدة أسابيع. عندما استيقظ في الصباح لم يكن الصبي موجودا. جلس والمســـدس في يده ثم وقف وبحث عنه لكنه لم يظهر للعيان. ارتدى حذاءه وتمشى إلى حافة الغابة. بدا الفجر الكئيب في المشـــرق وبدأت الشمس الغريبة ظهورها البارد. رأى الصبي آتيا وهو يجري عبر الحقول. صرخ: أبي ثمة قطار في الغاب.

- قطار؟
- نعم.
- قطار حقيقي؟
- نعم. تعال.
- لم تذهب إليه، أليس كذلك؟
- نعم لم أذهب، إنه على مسافة قريبة فقط. تعال لنرى.
- لا يوجد أحد هناك؟

- لا. لا أظن ذلك. جئت لآخذك إلى هناك.

- هل يوجد محرك؟

- نعم، محرك سولار ضخم.

عبرا الحقول ودخلا الغاب من الجهة البعيدة. انحدرت السكة الحديد من الأراضي الزراعية من على مرتفع بجدار منحدر وشقت طريقها عبر الغاب. كان القطار يعمل بالسولار والكهرباء وكان يسحب ثماني مقطورات من الفولاذ المقاوم للصدأ. أخذ الصبي من يده وقال: لنجلس ونراقب الوضع فقط.

جلسا على الجسر وانتظرا هناك. لم يتحرك أي شيء. ناول المسدس للصبي. قال الصبي: خذه أنت يا أبي.

- لا. لم نتفق على ذلك. خذه.

أخذ المسدس وجلس بعد أن وضعه في حضنه. نزل الرجل من جهة اليمين ووقف ينظر إلى الطريق عبر السكة إلى الجهة الأخرى وسار بمحاذاة المقطورات. عندما وصل إلى آخر مقطورة أومأ للصبي بالمجيء فنهض الصبي ووضع المسدس في حزامه.

كان كل شيء مغطى بالرماد، وكانت الممرات تعج بالقمامة والحقائب مفتوحة على المقاعد حيث أُنزلت من الخزائن العلوية ونهبت منذ زمن بعيد. في مقطورة المطبخ وجد رزمة من الأطباق الكرتونية فنفخ الغبار عنها ووضعها داخل سترته، وكان هذا كل ما عثر عليه.

- كيف وصل إلى هنا يا أبي؟

- لا أعرف. أتصور أن شخصا ما كان يتجه به جنوبا. أعني مجموعة من الأشخاص. ربما نفد الوقود منهم في هذا المكان.

- هل مضى على وجوده هنا فترة طويلة؟
- نعم. أعتقد ذلك. منذ فترة طويلة جدا.

تفحصا آخر المقطورات ثم تقدما إلى القطار وتسلقا الدرج إلى الممر الضيق. بدا الصدأ وقشر الدهان. اندفعا إلى داخل مقصورة القيادة ونفخ الرماد عن مقعد السائق وأجلس الصبي أمام لوحة السيطرة. كانت لوحة بسيطة جدا. كل ما في الأمر كان دفع عصا ناقل السرعة إلى الأمام. أصدر صوتا يشبه صوت القطار وصوت بوق محرك السولار لكنه لم يكن متأكدا إن كان ذلك يعني شيئا للصبي. بعد برهة نظرا عبر الزجاج المتسخ بالوحل إلى حيث انعطفت السكة في بقايا الأعشاب. إذا كانا رأيا عوالم مختلفة فما عرفوه من قبل لم يختلف عنها، حيث سيقبع القطار في ذلك المكان ويتحلل ببطء إلى الأبد، ولن يتحرك قطار آخر في هذا العالم مرة أخرى وإلى الأبد.

- هل يمكننا الذهاب يا أبي؟
- نعم. بالتأكيد يمكننا الذهاب.

بدآ يصادفان من وقت إلى آخر أكواما صغيرة من الحجارة على جانب الطريق. كانت هذه إشارات في لغة الغجر، علامات الضياع لمن يأتي بعدهم. كانت الأولى التي رآها منذ زمن وهي شائعة في مناطق الشمال، وتؤدي إلى أمكنة بعيدة عن المدن المنهوبة والمنكوبة، وتشكل رسائل للأحباب الذين تاهوا وهلكوا. عندئذ كانت المتاجر قد نهبت وانتشرت الجريمة في كل مكان في البلاد. وأضحى العالم بعد ذلك وطنا لرجال يأكلون أطفالك أمام عينيك، وأصبحت المدن نفسها تحت سيطرة مجموعات

من اللصوص مسودي الوجوه يتوارون في الخراب ويخرجون من بين الحطام بأسنان وعيون بيضاء، حاملين علبا للطعام اتشحت بالســـواد ولا يمكن تمييزها في شباك من النايلون مثل متسوقين في متاجر الجحيم. تطاير المسحوق الأسود الناعم عبر الشوارع مثل ســـائل الرخويات الذي يتمدد في قاع المحيط، وتسلل البرد وحل الظلام مبكرا ونزل الكناسون إلى الوديان الضيقة المنحدرة بمصابيحهم اليدوية ومـــروا بالمغارات في الرماد المنجرف الذي أطبق من ورائهم على كل شـــيء بصمت مثل صمت العيون. غرق الحجيج في الطرق وســـقطوا وهلكـــوا، ودارت الأرض الجرداء المكفنة متجاوزة الشمس، وعادت مرة أخرى غير مطروقة وغير لافتـــة للنظر مثل مدار عالم مشـــابه غير معـــروف في الظلمة الغابرة في الأعلى.

قبل وصولهما إلى الســـاحل بوقـــت طويل كانت متاجرهم قد اختفت تماما. كانت المناطق الريفية قد دمرت ونهبت منذ سنين ولم يجدوا أي شيء في المنازل والمباني على جانب الطريق. وجد دليلا للهاتف في محطة للوقود وكتب اســـم البلدة على الخارطة التـــي بحوزتهما بقلم من الرصاص. جلســـا علـــى الحاجز أمام المبنى وأكلا البســـكويت وبحثا عن البلـــدة على الخارطة لكنهما لـــم يجداها. بحث في أجزاء الخريطة مرة أخرى. أخيرا أشـــر للصبـــي إليها. كانا على بعد خمســـين ميـــلا تقريبا غرب المكان الذي ظنا أنهما فيه. رســـم أشـــكالا كاريكاتيرية على الخارطة. قال: ها نحن هنا. تابع الصبي المسار إلى البحر بإصبعه. سأل: كم سنحتاج من الوقت للوصول إلى هناك؟

- أسبوعين أو ثلاثة.

- هل لونه أزرق؟

- البحر؟ لا أعرف. كان كذلك.

أومأ الصبي برأسه. جلس ينظر إلى الخريطة والرجل يراقبه. تصور أنه يعرف ما كان يشغل الصبي. لطالما انكب على الخرائط في طفولته وهو يؤشر إلى البلدة التي عاش فيها. تماما كما كان يجد أرقام عائلته في دليل الهاتف. هم أنفسهم بين الآخرين وكان كل شيء في مكانه. لقد كان وجودهما مبررا في ذلك العالم. قال: هيا. ينبغي أن نتابع المسير.

في وقت متأخر من فترة العصر بدأ المطر يهطل . تركا الطريق وسلكا ممرا ترابيا عبر أحد الحقول وأمضيا ليلتهما في سقيفة. كانت أرضية السقيفة من الأسمنت وكان في الطرف البعيد بعض البراميل الفارغة. دعّم الأبواب بهذه البراميل وأوقد نارا على الأرضية وصنع سريرين من الصناديق الكرتونية. ظل المطر يطقطق طوال الليل على السطح الفولاذي فوق رأسييهما. عندما أفاق كانت النار قد خمدت وكان البرد شديدا. جلس الصبي وهو يلف نفسه بالبطانية.

- ما الأمر؟

- لا شيء. حلمت حلما سيئا.

- بماذا حلمت؟

- لا شيء.

- هل أنت بخير؟

- لا.

وضع ذراعيه حوله وضمه إليه وقال: هون عليك.

- لقد كنت أبكي لكنك لم تستيقظ.

- أنا آسف. لقد كنت مرهقا جدا.

- كنت أعاني في الحلم.

عندما أفاق في الصباح كان المطر قد توقف. أصغى إلى سقوط الماء البطيء. قلب ردفيه على الأسمنت الصلب ونظر إلى الخارج عبر الحواف إلى المناطق الريفية الرمادية. لم يزل الصبي نائما. تساقط الماء مكونا بركا صغيرة على الأرضية. ظهرت فقاعات صغيرة وانزلقت قبل أن تتلاشى من جديد. في بلدة في قاع الجبل كانا قد قضيا ليلتهما في مكان كهذا المكان وأصغيا إلى صوت المطر. كان هناك متجر تقليدي بمنضدة سوداء من الرخام وكراسي من الكروم بمقاعد بلاستيكية ممزقة وقد رتقت بشرائط للكهرباء. لقد نهبت الصيدلية ولكن من الغريب أن المتجر نفسه بقي كاملا كما كان. بقيت الأجهزة الإلكترونية الثمينة قابعة على رفوفها من دون أي عبث بها. وقف يتفحص المكان حيث بدت أشياء متنوعة وأدوات صغيرة. ما هذه؟ أخذ الصبي من يده وقاده إلى الخارج. لكن الصبي كان قد رأى الرأس البشري الجاف القابع تحت الجرس الدائري عند طرف المنضدة بقبعته وعينيه الجافتين اللتين استدارتا بحزن إلى الداخل. هل هذا ما حلم به الصبي؟ لا، لم يفعل. نهض وجثا ونفخ في الجمر وسحب أطراف الألواح المحترقة وأشعل النار.

- ثمة أناس طيبون آخرون. هذا ما قلته أنت.

- نعم.

- إذن أين هم؟
- إنهم مختبئون.
- ممن يختبئون؟
- من بعضهم البعض.
- هل ثمة الكثير منهم؟
- لا نعرف.
- لكن ثمة بعضا منهم.
- بعضا منهم. نعم.
- هل ذلك صحيح؟
- نعم. إنه صحيح.
- لكن من الممكن ألا يكون صحيحا.
- أعتقد أنه صحيح.
- حسنا.
- أنت لا تصدقني.
- بل أصدقك.
- حسنا.
- إني أصدقك دائما.
- لا أظن ذلك.
- بل أصدقك. ينبغي عليّ فعل ذلك.

نزلا من جديد إلى الطريق الرئيسية عبر الوحل حيث فاحت رائحـــة التراب والرماد في المطر. ظهرت مياه داكنة في مصرف على جانب الطريق يســـتقبل الماء مـــن قناة معدنية تحت الأرض ويصب في بركة. كان هناك غزال من البلاســـتيك قد نصب في

الساحة. في وقت متأخر من اليوم التالي دخلا بلدة صغيرة حيث خطا ثلاثة رجال من وراء شـاحنة ووقفوا في الطريق أمامهما. كانـوا يعانون الهزال في ثيـاب رثة ويحملون مواسـير بأطوال مختلفة. ماذا لديكم في السـلة؟ صوب المسدس باتجاههم. بقوا واقفين. تشبث الصبي بمعطفه ولم ينبس أحد ببنت شفة. وضع العربـة في الأمام مرة أخرى وتحركا إلـى جانب الطريق. طلب مـن الصبي دفع العربة ومشـى إلى الخلف والمسـدس مصوب باتجاهـم. حاول أن يبدو بمظهر قاتـل متجول عادي لكن قلبه كان يـدق، وكان يعرف أنه على وشـك أن تنتابه نوبة السـعال. انحرفا إلى الطريق من جديد ووقفا يراقبان. وضع المسدس في حزامه واستدار وأخذ العربة. عند قمة المرتفع نظر خلفه فوجد الرجـال مازالوا واقفين في المكان نفسـه. طلب من الصبي أن يدفع العربة وخرج عبر سـاحة حيث يمكنه رؤية أسفل الطريق لكـن الرجال الثلاثة كانوا قد اختفوا. كان الصبي مرعوبا جدا. وضع المسدس على المشمع وأخذا العربة وتابعا سيرهما.

كمنا في أحد الحقول حتى المسـاء وهمـا يراقبان الطريق لكـن أحدا لم يظهـر. كان البرد شـديدا. عندما حل الظلام واختفت الرؤية أخذا العربة وتلمسـا سبيلهما إلى الطريق من جديد. أخرج البطانيات ولفا نفسيهما بها وتابعا سيرهما وهما يتحسسان الأسفلت تحت وقع أقدامهما. بدأت إحدى عجلات العربة تصدر صريرا متقطعا، لكن لم يكن لديهما شيء يفعلانه لحل هذه المشكلة. شقا طريقهما بضع ساعات ثم تخبطا عبر الأغصان علـى جانب الطريق ورقـدا يرتجفان مرهقين على

الأرض البـــاردة حيث ناما حتى طلـــوع النهار. عندما أفاق كان يشعر بالمرض.

أصيب بالحمى وكمنا في الغاب مثل أناس مطاردين. لم يجدا مكانـــا لإيقاد النار ولم يعثرا علـــى مكان آمن. جلس الصبي بين أوراق الشجر وهو يراقبه. كادت عيناه تدمع. هل ستموت يا أبي؟ هل ستموت؟

- لا. أنا مريض، ليس إلا.
- إني خائف جدا.
- أعرف ذلك. لا تقلق. سأتحسن. سترى ذلك.

❖ ❖ ❖

أشـــرقت أحلامه وعاد العالم المتـــواري. ظهر الأقارب الذين ماتوا منـــذ زمن بعيد مهندمين وألقوا عليه نظرات نفيســـة. لم ينبس أحد ببنت شـــفة. فكر في حياته. منذ زمن بعيد جدا كان يومـــا رماديا في مدينة أجنبية حيث وقـــف على النافذة وراقب الشارع في الأسفل. أضاء من خلفه على طاولة خشبية مصباحا صغيرا. بدت كتب وأوراق على الطاولة. كان المطر قد بدأ يهطل وظهرت قطة في الزاوية ثم استدارت وعبرت الرصيف وربضت تحت سقيفة المقهى. جلست امرأة على طاولة ورأسها بين يديها. بعد ذلك بســـنوات كان قد وقف علـــى ركام لأطلال مكتبة حيث استقرت الكتب المسودة في برك من الماء، وكانت الرفوف مقلوبة رأسا على عقب. تناثر بعضها على الفراش بالآلاف في صفوف بعضها فوق بعـــض. التقط أحد الكتب وقلب بإبهامه الصفحات المنتفخـــة الثقيلة. لم يكن ليفكر في قيمة أصغر الأشـــياء بعيني

منظار عالم مستقبلي. لقد أدهشه أن الفراغ الذي ملأته هذه الأشياء كان مجرد تصور. سقط الكتاب من يده وألقى نظرة أخيرة إلى المكان قبل أن يخرج شاقا طريقه إلى الضوء الرمادي القارس.

خلال ثلاثة أو أربعة أيام لم ينم إلا قليلا. أيقظه السعال المؤلم بصفيره المزعج. أنا آسف، قال للظلمة التي لا ترحم. لا بأس، رد الصبي.

❖ ❖ ❖

أشعل المصباح الزيتي الصغير ووضعه على صخرة ثم نهض وأخذ يشق طريقه عبر أوراق الشجر وهو يلف نفسه بالبطانيات. همس الصبي له بألا يذهب. رد: لمسافة قصيرة فقط. ليس بعيدا. سأسمعك إن ناديتني. إذا ما انطفأ المصباح لن يستطيع العثور على طريق العودة. جلس بين أوراق الشجر في أعلى التل وتأمل العتمة. لم ير شيئا وكانت الرياح ساكنة. في الماضي عندما كان يمشي بالطريقة نفسها ويجلس متفحصا الأراضي الممتدة بطيفها المرئي الباهت حيث القمر التائه يتعقب الحطام العاري. كان أحيانا يرى بصيصا من الضوء، خافتا لا شكل له في الظلمة عبر أحد الأنهار، أو عميقا في الأجزاء المسودة من مدينة قد احترقت. في الصباح كان أحيانا يعود بالمنظار ويرنو نحو الأراضي الريفية بحثا عن أي مصدر لدخان لكن دائما دون جدوى.

كان يقف على حافة حقل شتوي بين عتاة الرجال. وهو في سن ابنه وربما أكبر بقليل. كان يراقبهم وهم ينبشون باطن الأرض الصخرية بالمعاول والجرافات ويخرجون إلى النور جمعا

ضخما من الأفاعي يضم مائة تقريبا جُمعت هناك لدفء يلفهم جميعا. بدأت أجسامها الكسولة المنتفخة تتحرك ببطء في الضوء الساطع البارد مثل أمعاء حيوان ضخم تتعرض لضوء النهار. صب الرجال البنزين عليها وحرقوها حية؛ كونهم لا يملكون علاجا للشر نفسه بل فقط لصورته كما تخيلوها. تلوت الأفاعي المحترقة بشكل مرعب وزحفت بعضها مشتعلة عبر أرضية المغارة لتنير زواياها المظلمة. وبما أنها لا تنطق لم تصدر أي صرخات من الألم، وشاهدها الرجال تحترق وتتلوى وتتفحم بصمت مطبق قبل أن يفترقوا بهدوء في الشفق الشتوي، كل منهم يحمل أفكاره للذهاب إلى المنزل وتناول عشائه.

في إحدى الليالي أفاق الصبي من حلم لم يشأ أن يخبره عنه.

- لست مجبرا أن تخبرني، قال الرجل. لا بأس في ذلك.

- إنني خائف.

- كل شيء على ما يرام.

- لا، ليس الأمر كذلك.

- إنه مجرد حلم.

- إنني خائف جدا.

- أعرف ذلك.

نظر الصبي جانبا. ضمه الرجل إليه وقال: أصغ إلي.

- ماذا؟

- عندما تكون أحلامك من عالم لم يوجد أصلا، أو من عالم لن يوجد أصلا، وتصبح سعيدا مرة أخرى فستكون قد

استسلمت. هل تفهم ذلك؟ وأنت لا يمكن أن تستسلم. لن أدعك تفعل ذلك.

❖ ❖ ❖

عندما تابعا مسيرهما من جديد كان يشعر بضعف شديد وأصبح قلبه مع كل هذه الأحاديث الموجهة إلى الصبي أكثر ضعفا مما كان عليه منذ سنوات عدة. كان يعاني من الإسهال ويتكئ على يد العربة. نظر إلى الصبي بعينيه الغائرتين المنهكتين. ظهرت بينه وبين الصبي مسافة جديدة كان يشعر بها. خلال يومين وصلا إلى منطقة تعرضت لحرائق ضخمة تركت وراءها أميالا من الأرض المحروقة. كانت طبقة الرماد في الطريق بعمق عدة بوصات وكان من الصعب دفع العربة. كانت الطبقة الأسفلتية قد ارتخت تحت وطأة الحرارة ثم ثبتت من جديد. اتكأ على يد العربة ونظر أمامه مسافة طويلة. بدت الأشجار النحيلة مطروحة أرضا وتحولت قنوات الماء إلى وحل رمادي، وبدا المشهد كأرض قش قد تفحمت.

بعد تقاطع للطرق في تلك البراري بدآ يصادفان ممتلكات لمسافرين تركوها في الطريق منذ زمن بعيد بما فيها صناديق وحقائب. تعرضت كل الأشياء للذوبان واسودت. فقدت الحقائب البلاستيكية القديمة شكلها بفعل الحرارة. وبدت آثار في مناطق متفرقة لأشياء نزعها الزبالون من القار الذائب. بعد مسافة ميل واحد بدآ يصادفان جثث الموتى حيث غاصت بعض الأجسام إلى المنتصف في الطبقة الأسفلتية وقد تشبث بعضها ببعض بأفواه

صارخة. وضع يده على كتف الصبي وقال له: امسكني من يدي. لا أظن أنه ينبغي أن ترى ذلك. ما تضعه في رأسك يبقى إلى الأبد.

- لا بأس يا أبي.
- لا بأس؟
- إنها موجودة هناك منذ فترة.
- لا أريدك أن تنظر إلى هذه الأشياء.
- لكنها ستبقى هناك.

توقف واتكأ على العربة. نظر إلى الطريق ثم إلى الصبي مستغربا لأنه لم تبدو عليه علامات القلق.

قال الصبي: لنتابع سيرنا، ليس إلا.

- نعم. حسنا.
- كانوا يحاولون الهروب، أليس كذلك يا أبي؟
- نعم. كانوا كذلك.
- لماذا لم ينحرفوا عن الطريق؟

لم يكن في مقدورهم ذلك. كانت النيران تلتهم كل شيء من حولهم. شقا طريقهما من بين الجثث المتفحمة حيث امتد الجلد الأسود على العظام وانفلقت وجوهها وغارت في جماجمها مثل ضحايا سقطوا في عملية كنس مروعة، عملية مرت بهم بصمت عبر ذلك الممر بين أكوام الرماد حيث استقروا وإلى الأبد في القار البارد اللزج.

مرا عبر موقع لقرية صغيرة بجانب الطريق أتت النيران عليها بالكامل. بدت بعض الخزانات المعدنية وبعض أنابيب المداخن

المنتصبة وقد اسـود قرميدها. لاحت بـرك رمادية من الزجاج الذائب في القنوات، وانتشـرت الأسـلاك العارية في خيوطها الصدئة لمسـافة أميـال على حافة الطريق. كان يسـعل في كل خطوة خطاها. لاحظ أن الصبي يراقبه. لقد كان الرجل حقا هو ما اعتقده الصبي. هل ينبغي أن يكون الأمر كذلك؟

جلسـا في الطريق وتناولا ما تبقـى من الخبز المقلي الجاف كأنه بسـكويت وآخر علبة من لحم السمك. فتح علبة من الخوخ المجفف وتناوبا في تناولها. رفع الصبي العلبة عاليا وشرب آخر ما تبقى من عصيرها ثم جلس والعلبة في حضنه ومرر سـبابته في محيطها من الداخل ثم مص إصبعه.

- احذر من أن تجرح إصبعك، قال الرجل.

- أنت تقول ذلك دائما.

- أعرف ذلك.

راقبه وهو يلعق غطاء العلبة بحذر بالغ. مثل قطة تلعق خيالها في مرآة. توقف عن مراقبتي، قال الصبي.

- حسنا.

- ثنى غطاء العلبة ووضعها في الطريق أمامه. سـأل: ماذا؟ ما الأمر؟

- لا شيء.

- أخبرني.

- أعتقد أن أناسا يتبعوننا.

- ذلك ما فكرت فيه.

- ذلك ما فكرت فيه؟

- نعم. ذلك ما توقعت أن تقوله. ماذا تريدني أن أفعل؟
- لا أعرف.
- ما رأيك؟
- لنرحل من هنا. ينبغي أن نخفي القمامة.
- لأنهم سيظنون أن لدينا الكثير من الطعام.
- نعم.
- وسيحاولون قتلنا.
- لن يقتلونا.
- ربما يحاولون ذلك.
- نحن بخير.
- حسنا.
- أرى أنه ينبغي أن نكمن بين الأعشاب لهم. لنرى من هم.
- وكم عددهم؟
- وكم عددهم. نعم.
- حسنا.
- إذا كان بإمكاننا عبور الجدول فسنستطيع الصعود على المنحدرات الصخرية ومراقبة الطريق من هناك.
- حسنا.
- سنجد مكانا.

نهضا وكوما بطانياتهما في العربة. خذ العلبة، قال الرجل.

❖ ❖ ❖

كان الشفق الطويل يقترب من المغيب قبل أن يقطع الطريق الجدول. تخبطا فوق الجسر ودفعا العربة عبر الغاب في بحث

عن مكان لتركها بحيث تتوارى عن الأنظار. وقفا ينظران خلفهما إلى الطريق في الغسق.

- ماذا لو وضعنا العربة تحت الجسر؟ قال الصبي.
- ماذا لو نزلوا إلى هناك من أجل الماء؟
- كم تعتقد أنهم يبعدون عنا؟
- لا أعرف.
- بدأت الظلمة تنتشر تدريجيا.
- أعرف ذلك.
- ماذا لو مروا في الظلام؟
- لنبحث عن مكان حيث يمكننا المراقبة. لم يزل هناك مجال للرؤية.

خبآ العربة وصعدا المنحدر المائل بين الصخور وهما يحملان بطانياتهما وكمنا حيث يمكنهما رؤية الطريق من بين الأشـــجار لمســـافة نصف ميل تقريبا. كانا في مأمن مـــن الرياح حيث لفا نفســـيهما بالبطانيات وتناوبا المراقبة، لكن بعد برهة استســـلم الصبي للنوم. كاد هو الآخر يستسلم للنوم لكنه أفاق عندما رأى جســـما يظهر في أعلى الطريق ويقف هنـــاك. بعد فترة وجيزة ظهر جســـمان آخران ثم رابع. وقفوا وتجمعوا ثم تابعوا سيرهم. وجـــد صعوبة في تمييزهم في الغســـق العميق. تصور أنهم ربما يتوقفون قريبا وتمنى لو أنهـــم يجدون مكانا بعيدا عن الطريق. إذا ما توقفوا عند الجســـر فســـتكون ليلتهم طويلة باردة. نزلوا الطريق وقطعوا الجســـر. كانوا ثلاثـــة رجال وامرأة. كانت المرأة تتهادى في مشيتها ومع اقترابها تبين له أنها كانت حاملا. حمل

الرجال حقائب على ظهورهم وحملت المرأة حقيبة صغيرة من القماش، كان مظهرهم تعيسا بشكل لا يتصوره عقل، وكانت أنفاسهم تنفث البخار ببطء، عبروا الجسر وتابعوا مسيرهم في الطريق حيث تلاشوا الواحد تلو الآخر في الظلمة التي كانت تنتظرهم.

قضيا ليلة طويلة وعندما أصبح النور كافيا للرؤية نهض ولف بطانية حول نفسه وبدأ يمشي ثم توقف لينظر إلى الطريق في الأسفل. بدت الغابة الجرداء رمادية والحقول مقفرة من ورائها. لاحت أشكال متموجة لأحواض قديمة لم تزل تبدو باهتة للعيان. ربما كانت أحواضا للقطن. كان الصبي نائما. نزل إلى حيث العربة وأحضر الخارطة وقارورة الماء وعلبة للفواكه من كمية الطعام القليلة التي مازالت لديهما ثم عاد وجلس يتفحص الخارطة وهو يلف نفسه بالبطانيات.

– أنت دائما تتصور أننا قطعنا مسافة أطول مما قطعنا فعلا.

حرك إصبعه. هنا إذن.

– أكثر من ذلك.

– هنا.

– حسنا.

طوى الخارطة بصفحاتها البالية وقال: حسنا.

جلسا ينظران إلى الطريق من بين الأشجار.

هل تعتقدون أن آباءكم يقومون بالمراقبة؟ أم أنهم يرهقونكم في دفاتر حساباتهم؟ ضد ماذا؟ ليس ثمة دفتر للحسابات وآباؤكم موتى في باطن الثرى.

تحولت الغابات الممتدة من أشجار الصنوبر إلى أشجار البلوط والصنوبر وأشـــجار المغنولية. كانت الأشجار ميتة مثل أي شيء آخر. التقط إحدى أوراق الشـــجر الثقيلـــة وفركها بيده جاعلا إياها مسحوقا ناعما نزل من بين أصابعه.

كانا في الطريق مع بداية اليوم التالي. وكانا قد قطعا مسافة طويلة عندما شد الصبي كم إزاره فتوقفا. علا خيط من الدخان من داخل الغاب أمامهما فوقفا يراقبان.

- ماذا ينبغي أن نفعل يا أبي؟

- ربما ينبغي أن نلقي نظرة.

- لنتابع مسيرنا، ليس إلا.

- ماذا لو كانوا يسيرون في الطريق نفسها؟

- إذن. رد الصبي.

- سنتركهم وراءنا. أريد معرفة من هم.

- ماذا لو كان جيشا؟

- إنها نار صغيرة، ليس إلا.

- لِمَ لا ننتظر هكذا؟

- لا يمكننـــا الانتظـــار. نحن بلا طعام تقريبـــا. علينا متابعة المسير.

تركا العربـــة في الغابة بعد أن تفحـــص دوران العجلات في الأســـطوانة. وقفا يصغيـــان. تجمد الدخان عموديـــا في الهواء الساكن. خلت الأشياء من أي حراك. صارت أوراق الشجر ناعمة بفعل الأمطار الأخيرة ولـــم تصدر أي صوت تحت وقع الأقدام. استدار ونظر إلى الصبي. بدا على وجهه الصغير المتسخ الخوف

الشـــديد. دارا حـــول النار عن بعد والصبي يمســـك بيده. كمن الرجـــل واضعا ذراعه حول الصبـــي وأصغيا فترة طويلة. همس له: أظن أنهم رحلوا.

- ماذا؟

- أظنهم رحلوا. ربما كانوا يراقبوننا.

- يمكن أن يكون ذلك فخا يا أبي.

- حسنا. لننتظر قليلا.

انتظرا بعض الوقت. كان بإمكانهما رؤية الدخان بين الأشجار. بدأت الرياح تحرك أعلى الأعشاب الميتة وغيَّر الدخان اتجاهه. كان بإمكانهما شـــم رائحة الدخان ورائحة طعام على النار. قال الرجل: لنقم بالدوران.

- هل يمكنني مسك يدك؟

- نعم. طبعا يمكنك ذلك.

كان الغاب يتكون من جذوع محروقة، ليس إلا. لم يريا شيئا. قال الرجل: أظن أنهم رأونا. أظنهم رأونا وهربوا. رأوا أننا نحمل سلاحا.

- تركوا طعامهم على النار؟

- نعم.

- دعنا نلق نظرة.

- أنا خائف جدا يا أبي.

- لا يوجد أحد هنا. لا داعي للخوف.

تقدمـــا إلى داخل البقعة الخالية الصغيرة والصبي متشـــبث بيده. لقد أخذوا كل شـــيء معهم فيما عدا الشيء الأسود المثبت

بسيخ فوق الجمر. كان واقفا يتفقد المحيط من حوله عندما استدار الصبي ودفن وجهه بين يديه في الجهة المقابلة. نظر بسرعة ليرى ماذا حدث. سأله: ما الأمر؟ ما الأمر؟ هز الصبي رأسه. صاح: آه، أبي. استدار ونظر مرة أخرى. ما رآه الصبي كان طفلا بشريا يشوى مفصول الرأس ومنزوع الأمعاء وقد ثبت على السيخ فوق الجمر. انحنى وحمل الصبي واتجه نحو الطريق وهو يضمه بحرارة. ثم همس: إني آسف. إني آسف.

❖ ❖ ❖

لم يكن يعرف إن كان الصبي سيتكلم من جديد. خيما عند أحد الأنهار وجلس بجانب النار يصغي للماء وهو يجري في الظلمة. لم يكن هذا مكانا آمنا لأن صوت النهر غطى على غيره من الأصوات، لكنه رأى أن ذلك سوف يبهج الصبي. تناولا ما تبقى من طعامهما وجلس يتفحص الخارطة. قاس الطريق بخيط ونظر إليه ثم قاسها مرة أخرى. لم تزل الطريق طويلة لبلوغ الساحل. لم تكن لديه فكرة عما سيجدانه عندما يصلان إلى هناك. لف أجزاء الخريطة ووضعها في الكيس البلاستيكي وجلس يحملق في الجمر.

في اليوم التالي عبرا النهر من على جسر حديدي ضيق ودخلا مدينة قديمة للمطاحن. بحثا في البيوت الخشبية لكنهما لم يجدا شيئا. لاح رجل ميت منذ سنوات يجلس على شرفة كأنه تمثال من القش نصب ليعلن عن عطلة ما. سارا بمحاذاة الجدار الطويل الداكن للمطحنة ذات النوافذ المحاطة بالقرميد. كان الرماد الأسود الناعم يتطاير في الشارع أمامهما.

تبعثــرت أشــياء غريبة علــى جانبي الطريــق ضمت أجهزة كهربائية وأثاثا وأدوات مختلفة. كانت أشياء تركها الحجيج منذ زمــن بعيد وهم في طريقهم إلى المــوت المتنوع والجماعي. حتى قبل عام كان الصبي يلتقط شــيئا ما في بعض الأحيان ويحمله معه بعض الوقت لكنه لم يعد يفعل ذلك. جلسا وأخذا قسطا من الراحة وشــربا ما تبقى معهما من الماء وتركا الجرة البلاستيكية وراءهمــا في الطريق. قال الصبــي: لو كان ذلك الطفل الصغير هنا لذهب معنا.

- نعم. هذا صحيح.

- أين وجدوه؟

لم يرد على السؤال.

- هل يحتمل وجود طفل آخر في مكان ما؟

- لا أعرف. ربما.

- أنا آسف عما قلته عن أولئك الناس.

- أي ناس؟

- أولئــك الناس الذين احترقوا. الذين حاصرتهم النيران في الطريق واحترقوا.

- لم أعرف أنك قلت أي شيء سيئ عنهم.

- لم يكن سيئا. هل يمكننا متابعة المسير الآن؟

- حسنا. هل تريد أن تركب في العربة؟

- أنا بخير. لا تقلق.

- لم لا تركب ولو فترة قصيرة؟

- لا أريد ذلك. أنا بخير.

جرت المياه ببطء في الأراضي السهلية، وانتشرت المستنقعات الرمادية الراكدة على جانبي الطريق وتعرجت الأنهار السهلية الساحلية الرمادية عبر الأراضي الزراعية المدمرة.

تابعا مسيرهما. بدا أمامهما في الطريق منخفض ورقعة من نبات القصب. قال: أعتقد أنه يوجد جسر أو ربما جدول.

- هل نستطيع شرب الماء؟
- ليس لدينا خيار آخر.
- لن تؤدي إلى مرضنا؟
- لا أظن ذلك. ربما تكون صافية.
- هل يمكنني أن أسبقك إلى هناك؟
- نعم، طبعا يمكنك ذلك.

انطلق الصبي أمامه في الطريق. لم يكن قد رآه يركض منذ فترة طويلة. كانت ذراعاه تخفقان في الهواء وهو منطلق في حذاء لكرة المضرب يكبر مقاسه. توقف الرجل وأخذ يراقب الصبي وهو يعض شفته.

كان الماء بقعة صغيرة أو أكثر بقليل. كان بإمكانه أن يرى الماء يتحرك قليلا حيث جرى في قناة أسمنتية تحت الطريق. بصق في الماء وانتظر ليرى إن كان البصاق سيتحرك. ذهب وأحضر قطعة قماش من العربة وجرة بلاستيكية ولف القماش على فتحة الجرة وغطّسها في الماء وراقبها وهي تمتلئ. رفعها إلى أعلى وهي تقطر وتفحصها في الضوء. لم تكن في غاية السوء. نزع قطعة القماش وناول الجرة للصبي وقال له: هيا اشرب.

شرب الصبي ثم أعادها إليه.

- اشرب المزيد.
- اشرب أنت يا أبي.
- حسنا.

جلســا يصفيان الماء من الرماد ثم شربا حتى امتلأ بطناهما. تمدد الصبي بين الأعشاب.

- علينا أن نتابع المسير.
- إني مرهق جدا.
- أعرف ذلك.

جلس يراقبه. لم يتناولا أي طعام منذ يومين. بعد يومين آخرين ســيفقدان قواهما. صعد الجســر عبر أعواد القصب لتفحص الطريق حيث انتشــرت الأراضي المفتوحة وبدت معتمة ســوداء وخلت من أي أثر. لقد كنست الرياح الرماد والغبار عن سطحها. كانت أراضي خصبة في يوم ما ولكن لم يوجد أي أثر للحياة في أي مكان عندئذ. لم يكن يعرف تلك الأراضي ولم يعرف أســماء البلدان أو الأنهار فيها. قال للصبي: هيا. علينا متابعة المسير.

ازداد نومهما باطراد إلى درجة أنهما أفاقا مرة وهما ممددان في الطريق مثل ضحايا لحركة المرور. كان مشــهدا لغفوة الموت. اعتدل جالســا وتلمس المسدس. في المساء الرمادي وقف متكئا بكوعيــه على يد العربة وهو ينظر عبــر الحقول إلى منزل يبعد ميــلا تقريبا. كان الصبي هو من رأى المنزل. كان يظهر ويختفي من وراء ســتارة الرماد مثل منزل في حلــم يلفه الغموض. اتكأ علــى العربة ونظــر إلى الصبي. كان عليهمــا بذل بعض الجهد ليصلا إلى المنزل. واســتلزم ذلك أخذ بطانياتهما وإخفاء العربة

في مكان مــا بجانب الطريق. كان بإمكانهما الوصول إلى المنزل قبل حلول الظلام ولكن لن يستطيعا العودة.

- ينبغي علينا إلقاء نظرة. ليس لدينا خيار آخر.
- لا أريد ذلك.
- لم نأكل منذ يومين.
- أنا لست جائعا.
- لا. إنك تتضور جوعا.
- لا أريد الذهاب إلى هناك يا أبي.
- لا يوجد أحد هناك. أعدك بذلك.
- كيف لك أن تعرف؟
- أعرف ذلك.
- يمكن أن يكونوا هناك.
- لا، ليسوا هناك. سيكون كل شيء على ما يرام.

انطلقــا عبر الحقــول وهما يلفــان نفســيهما ببطانياتهما ويحملان المســدس وقــارورة من الماء فقط. لقــد حرث الحقل للمرة الأخيرة ولم تزل بقايا الزرع من ســيقان بارزة من الأرض، وكان الأثــر الباهت للشــمس لم يزل ظاهرا للعيان من المشــرق إلــى المغرب. لقد هطــل المطر ولم تزل التربــة طرية تحت وقع أقدامهمــا. أبقى نظره مركزا علــى الأرض من تحته وبعد فترة وجيزة توقف والتقط رأسا لسهم فبصق عليه ومسح عنه التراب بحافة بنطلونه وأعطاه للصبي. كان أبيض من معدن الكوارتز وفي حالــة ممتازة كحالته يوم صنعه. قــال: يوجد المزيد منها. راقب الأرض وسترى. عثر على اثنين آخرين من الصوان الرمادي. بعد

ذلــك وجد قطعة من النقود أو ربما أحــد الأزرار مغطى بطبقة عميقة من الصدأ. حف القطعــة بظفر إبهامه فبدت قطعة من النقود. أخرج مديته وجعل يقشــطها بعناية.فظهرت عليها كتابة بالإسبانية. جعل ينادي الصبي الذي كان يسير بمشقة من أمامه ثم نظر حولــه إلى الأراضي الرمادية والســماء الرمادية ورمى قطعة النقود وهرول للحاق بالصبي.

وقفا أمام المنــزل ينظران إليه. بدا ممر من الحصى ينعطف بعيــدا نحو الجنوب. ضم المنزل طوابق علوية من القرميد وصفا من الدرجات له شقين يقود إلى رواق بأعمدة وظهر خلفه ملحق مــن القرميد ربما كان مطبخا في يوم ما. وراء ذلك ظهر مخزن لحفظ الحطب. بدأ بصعود الدرج والصبي يشد كم إزاره.

- هل يمكننا الانتظار فترة قصيرة؟
- حسنا. لكن الظلام بدأ ينتشر.
- أعرف ذلك.
- حسنا.

جلسا على الدرج ونظرا إلى الأراضي الممتدة.

قال الرجل: لا يوجد أحد هنا.

- حسنا.
- هل مازلت خائفا؟
- نعم.
- نحن بخير.
- حسنا.

❖ ❖ ❖

صعدا الدرج إلى الرواق الواسع المرصوف بالقرميد. كان الباب مدهونا بالأسود وبقي مفتوحا بدعامة من الطوب. تجمعت خلفه أوراق الشجر والأعشاب الجافة. تشبث الصبي بيده. لماذا لم يزل الباب مفتوحا يا أبي؟

- إنه مفتوح، ليس إلا. لعله مفتوح منذ سنين. ربما آخر من استخدموه أبقوه مفتوحا بدعامة ليخرجوا الأشياء من خلاله.

- ربما ينبغي أن ننتظر حتى الغد.

- هيا. علينا أن نلقي نظرة سريعة قبل حلول الظلام الدامس. إذا أيقنا أن المنطقة آمنة فربما استطعنا إيقاد النار.

- لكننا لن نبقى في المنزل، أليس كذلك؟

- لا يتعين علينا البقاء في المنزل.

- حسنا.

- لنشرب بعض الماء.

- حسنا.

أخرج قارورة الماء من الجيب الجانبي لسترته وفتحها وراقب الصبي وهو يشرب منها. ثم شرب وأغلق القارورة وأخذ يد الصبي ودخلا القاعة التي بدأت تغشاها الظلمة. كان السقف عاليا تتدلى منه ثريا مستوردة، وبدت نافذة عالية من الطراز الإيطالي عند رصيف الدرج وقد امتد خيالها الباهت على جدار بئر الدرج مع مغيب آخر ضوء النهار.

- لا يتعين علينا الصعود إلى أعلى، أليس كذلك؟ همس الصبي.

- لا. ربما نصعد غدا.

- بعد تأمين المنطقة.
- نعم.
- حسنا.

دخلا غرفة الرسم حيث بدا شبح لسجادة من تحت الرماد الرملي. كان الأثاث ملفوفا بالأغطية وظهرت مربعات باهتة في الجدران حيث كانت اللوحات معلقة في يوم ما. استقر في الحجرة على الجانب الآخر من الردهة بيانو ضخم. لاح خيالاهما في الزجاج المائي الرقيق للنافذة. دخلا الحجرة ووقفا يصغيان. ثم تجولا عبر الغرف كمشتريين متشككين. وقفا ينظران عبر النوافذ العالية إلى الأراضي التي بدأت تنتشر فيها العتمة.

ضم المطبخ أدوات وأواني للطبخ وصينية خزف مصنوعة في إنجلترا. دخلا حجرة المؤن لكبير الخدم حيث انغلق الباب بنعومة من خلفهما. كانت الأرضية من القرميد وبدت صفوف من الرفوف حيث توجد عشرات الجرار التي تتسع لربع جالون. عبر الحجرة ورفع واحدة منها ونفخ عنها الغبار. احتوت الجرار على أطعمة متنوعة من فاصوليا خضراء وشرائح من الفلفل الأحمر وطماطم وذرة وبطاطا وبامية. كان الصبي يراقبه. مسح الرجل الغبار عن أغطية الجرار وضغط على الأغطية بإبهامه. كانت العتمة تنتشر بسرعة فحمل اثنتين من الجرار إلى حيث النافذة ورفعهما وقلبهما. نظر إلى الصبي وقال: ربما أنها قد تسممت. ينبغي علينا أن نطبخ كل شيء بشكل جيد. هل توافقني؟

- لا أعرف.
- ماذا تريد أن تفعل؟

– أنت من يقرر.

– بل كلانا يقرر.

– هل تعتقد أنها صالحة للأكل؟

– أعتقد أنها إن طبخت جيدا ستكون صالحة للأكل.

– حسنا. لماذا تعتقد أن أحدا لم يستهلكها؟

– أعتقد أنه لم يعثر عليها أحد. لا يمكن رؤية المنزل من الطريق.

– لقد رأيناه.

– أنت من رآه.

تفحص الصبي الجرار.

– ما رأيك؟ سأل الرجل.

– أعتقد أنه ليس لدينا خيار آخر؟

– أعتقد أنك مصيب في ذلك. لنحضر بعض الحطب قبل انتشار المزيد من الظلام.

حملا حزما من الأغصان الميتة من على الدرج الخلفي عبر المطبخ إلى قاعة الطعام وكسرا الأغصان وملآ المدفأة منها. أوقد النار وتصاعد الدخان فوق عتبة الباب الخشبية المدهونة ووصل إلى السقف قبل أن ينزل من جديد. بدأ أنبوب المدخنة يسحب الدخان فاضطرمت النار في الغرفة مضيئة الجدران والسقف والثريا الزجاجية بمكوناتها المتنوعة. أضاء اللهب زجاج النافذة المعتم حيث لاح خيال الصبي وهو مغطى الرأس مثل قزم خرافي قادم من الليل. بدا مذهولا من الدفء المنتشر فنزع أغطية الطاولة الطويلة ذات الطراز الفرنسي التي استقرت في

وسـط الغرفة وهزها جيدا وفرشها أمام المدفأة. أجلس الصبي عليهــا وخلع حذاءه والخرق المتسـخة التي تلـف قدميه. همس للصبي: كل شيء على ما يرام. كل شيء على ما يرام.

وجد شـمعا في أحد أدراج المطبخ فأشـعل شمعتين منها ثم أذاب بعض الشـمع على المنضدة ونصبهما في الشـمع المذاب. خـرج وأحضر المزيـد من الحطـب وكومه بجانـب المدفأة. لم يتحرك الصبي. كان المطبخ مملوءا بأوان وأدوات مختلفة للطبخ فمسح واحدة منها ووضعها على المنضدة ثم حاول أن يفتح إحدى الجرار ولكن من دون جدوى. حمل جرة من الفاصوليا الخضراء وأخرى من البطاطا إلى الباب الأمامي وتحت ضوء شمعة نصبت في كأس، انحنــى ووضع الجرة الأولى علــى جانبها في الفراغ بين الباب والمفصل وسـحب الباب نحوها. ثم جلس على أرضية الردهــة وثبّت قدمه فوق الحافة الخارجية للباب وسـحبه نحو الغطاء وثنى الجرة بين يديه.

دار الغطاء في الخشـب فسـحق الدهان. قبض الرجل على الجرة الزجاجية من جديد وسـحب الباب في الوقت نفسـه ثم حاول مرة أخرى. انزلق الغطاء في الخشـب ثم اسـتقر بعد أن ارتخى بعض الشـيء. لف الجرة ببطء بـين يديه ثم أخذها من المقبـض وأدار الغطاء الدائري ووضعهـا على الأرضية. ثم فتح الجرة الثانيـة بالطريقة نفسـها ونهض وحملهمـا عائدا بهما إلى المطبخ وهو يحمل الكأس في يده الأخرى والشـمعة تتمايل وتلفظ أنفاسـها الأخيرة. حاول أن ينزع الغطاءين عن الجرتين بإبهامه ولكنه لم يسـتطع. اعتبر ذلك إشارة جيدة. وضع حافة

الغطاء على المنضـــدة وضغط على غطاء الجرة بقبضته فانزلق الغطاء وسقط على الأرضية. رفع الجرة وشمها ففاحت رائحتها اللذيـــذة. صب البطاطا والفاصوليا فـــي آنية وحملها إلى غرفة الطعام حيث وضعها على النار.

تناولا الطعام ببطء في أطباق صينية مصنوعة من العظم وهما يجلسان على الطاولة، وكانت شمعة مشتعلة وحيدة تتوسطهما. قبع المســـدس في متناول اليد كأنـــه إحدى أدوات تناول الطعام. صدر عن المنزل صوت صرير وأنين من شـــدة الحرارة مثل شيء جرى استدعاؤه من سبات شـــتوي طويل. استسلم الصبي للنوم والطبق لم يزل أمامه وسقطت ملعقته على الأرض. نهض الرجل وحملـــه إلى حيث المدفأة ووضعه بين الأغطية ولفه بالبطانيات. لا بد أنه عاد إلى الطاولة لأنه أفاق في الليل وقد استسلم للنوم عليها ووجهه مدفون بين ذراعيه. كانت الغرفة باردة والرياح تهب في الخـــارج. طقطقت النوافذ بنعومة في حوافها. لقد انطفأت الشـــمعة، والنار قد أضحت جمرا. نهض وأوقد النار من جديد وجلس إلى جانب الصبي وسوّى البطانيات من حوله وجعل يمسح شـــعره المتسخ. قال لنفسه: أظن أنهم ربما يراقبون. يراقبون من أجل شـــيء لا يســـتطيع حتى الموت أن يلغيه وإذا لم يظهر ذلك الشيء للعيان فسيذهبون بعيدا عنا ولن يعودوا.

لم يكن الصبي يريـــد له أن يصعد إلى الطابق العلوي. حاول أن يقنعـــه قائلا: يمكن أن نجد بعض البطانيات هناك. علينا أن نلقي نظرة.

- لا أريدك أن تذهب إلى هناك.

- لا يوجد أحد هنا.

- ربما يوجد بعض الناس.

- لا يوجـد أحـد هنا. ألا تعتقد أنه لـو كان هناك أناس في الطابق العلوي لكانوا قد نزلوا في هذا الوقت؟

- ربما أنهم خائفون.

- سأخبرهم أننا لن نؤذيهم. ربما يكونون أمواتا.

- في تلك الحالة لن يزعجهم إن أخذنا بعض الأشـياء. أرى أنـه بغض النظر عمن هم موجودون هنـاك فالمعرفة أفضل من عدمها.

- لماذا؟

- لمـاذا. لأننا لا نحب المفاجـآت فالمفاجآت مرعبة. ونحن لا نحب أن نتعرض للرعب. وربما توجد هناك بعض الأشـياء التي نحتاج إليها. علينا أن نلقي نظرة.

- حسنا.

- حسنا، هكذا فقط؟

- لنر. أنت لن تصغي لما أقوله.

- كنت ولم أزل أصغي لما تقوله.

- ليس إلى حد كبير.

- لا يوجـد أحد هنا. لـم يطأ هذا المكان أحد منذ سـنين. ليـس ثمة أي آثار لأقدام في الرماد. لا شـيء على الإطلاق. لم يستخدم أي أثاث كحطب للمدفأة. ولم يزل ثم طعام هنا.

- آثـار الأقدام لا تبقى في الرماد. أنت من قال ذلك. الرياح تزيلها.

– أنا ذاهب إلى أعلى.

أمضيا أربعة أيام في المنزل يأكلان ويناممان. لقد عثر على المزيد من البطانيات في الطابق العلوي وسحبا حزما كبيرة من الحطب وكوماها في زاوية الغرفة لتجف. وجد منشارا قديما للحطب والأسلاك استخدمه في نشر الأشجار الميتة. كانت أسنان المنشار صدئة وغير حادة فجلس أمام النار يحدّها بمبرد صغير ولكن من دون نجاح يذكر. بدا جدول على بعد بضع مئات من الأمتار عن المنزل، نقل عددا كبيرا من دلاء الماء عبر الوحل وبقايا الزرع في الحقول. سخّنا الماء واغتسلا في الحوض الموجود بجانب غرفة النوم الخلفية في الطابق الأسفل وقصا شعرهما وحلق لحيته. حصلا على ملبس وبطانيات ومخدات من غرف الطابق العلوي وارتديا هنداما جديدا حيث استخدم مديته لقص بنطلون ليناسب الصبي. رتّب مكانا للنوم أمام المدفأة وقلب خزانة للأدراج لاستخدامها دعامة لسريرهما ولحفظ الحرارة. استمر المطر في الهطول أثناء وجودهم في المنزل. وضع الدلاء تحت أنابيب التصريف لماء السطح المعدني القديم الموجودة في زوايا المنزل وذلك للحصول على ماء عذب، وفي الليل كان يسمع المطر يطقطق في الغرف العلوية ويقطر عبر المنزل. نقّبا في الأجنحة الإضافية عن أي شيء يمكن استخدامه. وجد عربة فسحبها وقلبها وأدار العجلة ببطء وتفحصها. صار المطاط أملس بعض الشيء وظهرت فيه بعض الشقوق لكنه تصور أن العجلة ربما احتفظت بالهواء، فتش في الصناديق القديمة وأكوام العدة وخرج بمنفاخ للدراجات الهوائية. لف نهاية الخرطوم حول

صمـــام العجلة وبدأ ينفخ الهواء. تســـرب الهـــواء من حول إطار العجلـــة لكنه أدار الإطار وطلب من الصبـــي تثبيت العجلة حتى بـــدأت تحتفظ بالهواء ثـــم نفخها. فك الخرطـــوم وأعاد العربة إلـــى وضعها الطبيعي ودفعها ذهابا وجيئة. ثم دفعها إلى الخارج لينظفها المطر.

عندما رحلا بعد يومـــين كان الجو قد أصبح صحوا وانطلقا عبـــر الطريـــق الموحلة يدفعـــان العربة التي تحمـــل بطانياتهما الجديدة وجرار الأطعمة المعلبة التي لفّها بملابسهما الإضافية. كان يرتـــدي حذاء مخصصـــا للعمل وجده في المنـــزل، وارتدى الصبـــي حذاء رياضيـــا أزرق اللون وقد أدخلـــت فيه خرق للف أصابع القدمين، وكانت لديهما أيضا أقنعة صنعاها من ملاءات جديدة. عندما وصلا إلى الأســـفلت اضطرا للعودة على امتداد الطريق من أجل إحضار عربتهما الأخرى التي تبعد أقل من ميل تقريبا. كان الصبي يمشي بمحاذاة العربة واضعا يده عليها. لقد أحسنّا صنعا، أليس كذلك يا أبي؟ بلى، لقد أحسنّا صنعا.

تناولا غداءهما بشهية لكنهما مازالا بعيدين جدا عن الساحل. كان يعرف أنه يعقد الآمال على مكان ما دون أي سبب وجيه. كان يأمل أن يكون ذلك المكان أقل ظلمة برغم معرفته أن العالم يزداد ســـوادا يوما بعد يوم. كان يحتفـــظ بمقياس للضوء عثر عليه مرة في متجر لآلات التصوير وظن أنه يمكن أن يستخدمه في حساب معدل القراءات بضعة شهور. لقد احتفظ به فترة طويلة ظنا منه أنه ربمـــا يجد بطاريات له وهذا ما لم يحـــدث. في الليل عندما ينتابه السعال كان يجلس ويده ممدودة فوق رأسه نحو العتمة مثل

رجل أفاق في قبره، ومثل أولئك الموتى الذين أخرجوا من قبورهم في طفولته وغيروا أماكنهم ليفسحوا المجال للطريق السريعة. كان كثير منهم قد هلكوا في وباء الكوليرا ودُفنوا على عجل في صناديق خشبية ما لبثت أن تعفنت وانفتحت. ظهر الموتى إلى النور جاثمين على جنوبهم وأرجلهم مثنية، وكان بعضهم يرقدون على بطونهم وقد اندلق السائل النحاسي القديم بلونه الأخضر الباهت من محاجر عيونهم على أرضيات أكفانهم المتسخة المتعفنة.

وقفا في أحد المتاجر في بلدة صغيرة حيث تدلى رأس غزال مرفوعا على الجدار. نظر الصبي إليه فترة طويلة. انتشر الزجاج المهشم على الأرضية. طلب الرجل من الصبي الانتظار عند الباب قبل أن يشق طريقه عبر القمامة مرتديا الحذاء المخصص للعمل لكنه لم يجد شيئا. رأى مضختين للبنزين في الخارج. جلسا على الرصيف الأسمنتي وأنزلا علبة صغيرة مربوطة بخيط إلى داخل الخزان تحت الأرض وسحباها إلى أعلى وصبا كمية من البنزين بحجم الكأس في إبريق بلاستيكي وأنزلاها مرة أخرى. لقد ربطا جزءا صغيرا من ماسورة في العلبة لكي تغوص وجثما فوق الخزان مثل قرود تصطاد بعصي على كثيب للنمل أملا في قدوم ساعة أفضل حتى امتلأ الإبريق. ثم أغلقا الإبريق ووضعاه على الرف السفلي في العربة وتابعا مسيرهما.

مرت أيام طويلة والرماد يتطاير من الأراضي المفتوحة فوق الطريق. جلس الصبي بجانب النار في الليل وأوراق الخريطة مفروشة على ركبتيه. لقد حفظ أسماء البلدات والأنهار عن ظهر قلب وكان يقيس تقدمهما يوميا.

بدآ يقتصدان في طعامهما وقد نفد تقريبا. وقف الصبي في الطريق حاملا الخريطة. أصغيا لكنهما لم يسمعا شيئا. لم يزل بإمكانه رؤية الأراضي المفتوحة شرقا، وأصبح الهواء مختلفا. ثم دخلا هذه الأراضي من منعطف في الطريق وتوقفا. كانت الرياح المالحة تدغدغ شعريهما بعد أن أنزلا قبعات معاطفهما ليتمكنا من الإصغاء. ظهر الشاطئ الرمادي بصوته البعيد وبأمواجه البطيئة وهي تزحف باهتة ورمادية. بدا مكفهرا مثل بحر غريب تتكسر أمواجه على شواطئ عالم لم يسمع به من قبل. ظهرت عن بعد في السهول الناتجة من المد والجزر إحدى الناقلات جانحة على جنبها. من وراء ذلك كان المحيط الشاسع القارس يموج بتثاقل مثل برميل ممتلئ ببقايا معادن منصهرة يتحرك ببطء، وبعد ذلك كانت تتبدى عاصفة لخط كئيب من الرماد. نظر الرجل إلى الصبي ورأى خيبة الأمل جلية على محياه. قال: من المؤسف أنه ليس أزرق. لا بأس، رد الصبي.

بعد ساعة كانا يجلسان على الشاطئ محملقين في جدار الضباب الذي يحجب الأفق. جلسا وأقدامهما في الرمل يشاهدان البحر المكفهر وهو يضرب أقدامهما بأمواجه. كان قارسا وكئيبا وخاليا من الطيور. لقد ترك العربة في أجمة نبات السرخس خلف الكثبان وقد أحضرا معهما البطانيات وجلسا يلفان نفسيهما بها في ظل لوح خشبي ضخم كانت قد قذفته الأمواج إلى الشاطئ. جلسا في المكان مدة طويلة. بدت على امتداد شاطئ الخليج الصغير من تحتهما رقع لعظام صغيرة في الحطام. وعلى مسافة أبعد ظهرت أقفاص صدرية بيضاء اللون

بفعل الأملاح لما يبدو أنه كان قطعانا من الماشـــية. كست الأملاح الرمادية الصخـــور. هبت الرياح وبدت حبيبـــات البحر الجافة تعدو على الرمال ثم تتوقف قبل أن تنطلق من جديد.

- هل تعتقد أنه توجد سفن في البحر؟
- لا أظن ذلك.
- لن يكون بإمكانها الرؤية لمسافة بعيدة.
- لا. لن يكون بإمكانها ذلك.
- ماذا يوجد في الجهة الأخرى؟
- لا شيء.
- لا بد أن شيئا هناك.
- ربما هناك أب وابنه الصغير يجلسان على الشاطئ.
- سيكون ذلك شيئا جيدا.
- نعم. سيكون ذلك شيئا جيدا.
- وربما يكونان يحملان مسدسا أيضا.
- ربما. نعم.
- لكننا لا نعرف ذلك.
- نعم. لا نعرف ذلك.
- لذا يجب أن نكون حذرين.
- يجب أن نكون حذرين. نعم.
- كم نستطيع البقاء هنا؟
- لا أعرف. ليس لدينا كثير من الطعام.
- أعرف ذلك.
- هل تحب هذا المكان؟

- نعم.
- وأنا أيضا.
- هل يمكن أن أسبح؟
- تسبح؟
- نعم.
- ستتجمد.
- أعرف ذلك.
- سيكون الماء شديد البرودة. أسوأ مما تتصور.
- لا بأس.
- لا أريد أن أنزل الماء لإنقاذك.
- أنت ترى أنه ينبغي ألا أنزل الماء.
- يمكنك فعل ذلك.
- لكنك ترى ألا أفعل ذلك.
- لا. أرى أن تفعل ذلك.
- حقا؟
- نعم. حقا.
- حسنا.

نهض وأسقط البطانية على الرمال ثم خلع معطفه وحذاءه وملابسه. وقف عاريا يضم نفسه ويرتجف. ثم عدا نحو الشاطئ. كان شديد البياض وقد بدت مفاصل عظام عموده الفقري وبدا لوحا كتفيه الحادين يتحركان كالمنشار تحت جلده الشاحب. ركض عاريا وقفز وصرخ في خضم التقدم البطيء للأمواج.

عندما خرج من الماء بدت عليه الزرقة من البرد وأخذت أسنانه تصطك. تقدم إليه أبوه ولفه بالبطانية وهو يرتجف وضمه إليه حتى توقف لهاثه. لكن عندما نظر إليه كان الصبي غارقا في البكاء. ما الأمر؟ سأله. لا شيء. لا، أخبرني. لا شيء. لا شيء.

بحلول الظلام أوقدا نارا في ظل لوح الخشب وتناولا أطباق البامية والفاصوليا وما تبقى من البطاطا المعلبة. لقد نفدت الفواكه منذ زمن. شربا الشاي وناما على الرمال وأصغيا إلى الأمواج وهي تتكسر في الخليج، بارتجاجاتها وسقوطها. أفاق في الليل وتمشى حتى وقف على الشاطئ وهو يلف نفسه ببطانياته. لم تسمح العتمة بالرؤية وشعر بمذاق الملح على شفتيه ثم انتظر برهة. بعد ذلك تقدم الهدير البطيء وغزت هسهسته الهائجة الشاطئ قبل أن تتراجع من جديد. تصور أنه ربما لم تزل في المكان بعض السفن المنكوبة جانحة، وبقايا الأشرعة تتدلى منها، أو أن هناك حياة في العمق حيث حيوان السبيدج الضخم يندفع بنفسه على أرضية المحيط في الظلمة القارسة، يمر متجاوزا كقطار وعيونه بحجم الأطباق. وربما من وراء تلك الأمواج الغامضة قد تجول رجل آخر مع طفل آخر على الرمال الرمادية الهالكة. ناما ولكن فصلهما بحر على شاطئ آخر في رماد العالم اللاذع، أو وقفا في ملابسهما البالية تائهين في ظل الشمس غير المبالية نفسها.

تذكر كيف أنه استيقظ مرة في إحدى الليالي على قعقعة أسماك السرطان في المقلاة حيث ترك عظام الشواء من الليلة الفائتة. كان الجمر الباهت في نار الخشب الذي قذفته الأمواج

ينبـــض في مهب رياح الشـــاطئ. كان يضطجـــع في ظل عدد لا يحصى من النجوم والأفق الأســـود للبحر. نهض ثم مشى حافي القدمين في الرمال مراقبا الأمواج الباهتة تتقدم وتتكســـر على الشـــاطئ قبل أن تصبح داكنة من جديـــد. عندما عاد إلى حيث النار انحنى وربت على شعرها وهي نائمة.

عندمـــا عاد كان الصبي مســـتيقظا ومرعوبا. لقد كان ينادي لكن صوته لـــم يكن من القوة ليصل إليـــه. وضع الرجل ذراعيه حوله وقال: لم أســـمعك، لم أسمعك بسبب الأمواج. وضع حطبا على النـــار ونفخ الحياة فيها من جديد وتمـــددا في بطانياتهما يراقبان اللهب يتمايل في الهواء قبل أن يستسلما للنوم.

في الصباح أعاد إيقاد النار وتناولا الطعام وراقبا الشـــاطئ. لم يكن مظهر الشاطئ البارد والممطر يختلف كثيرا عن المشاهد البحرية في الجزء الشـــمالي من العالم. خلا الشاطئ من طائر النورس والطيور الشاطئية الأخرى. تناثرت الأشياء التي صنعها الإنسان وقد اسودت وخلت من الحياة على خط الشاطئ أو بين الأمواج. جمعا الخشـــب الذي قذفت به الأمـــواج ورتّباه وغطّياه بالمشمع قبل أن ينطلقا على امتداد الشاطئ.

- قال: نحن منقبو الشواطئ.

- ما معنى ذلك؟

- هم أناس يتجولون على طول الشـــاطئ باحثين عن أشـــياء مفيدة قذفتها الأمواج.

- أي نوع من الأشياء؟

- أي نوع كان. أي شيء يمكن الاستفادة منه.

- هل تعتقد أننا سنجد أي شيء؟
- لا أعرف. سنلقي نظرة.
- لنلق نظرة، قال الصبي.

وقفا على حاجز الميناء الصخري ونظرا نحو الجنوب. تباطأت رغوة الملح الرمادية وتلوّت في البركة الصخرية. بدا منعطف طويل للشاطئ من الجانب الآخر، رمادي مثل رمال الحمم البركانية. أصدرت الرياح التي تضرب الماء رائحة اليود بدرجة قليلة. ذلك كل ما لاحظاه. لم يشما الرائحة المعروفة للبحر. ظهرت على الصخور بقايا لبعض طحالب البحر الداكنة. عبرا المكان وتابعا سيرهما. عند نهاية الضفة ظهر في طريقهما قطعة أرض غير محروثة فتركا الساحل وسلكا ممرا قديما عبر الكثبان الرملية وعبر الشوفان البحري الميت حتى وصلا إلى نتوء خليجي. من تحتهما أطل لسان من اليابسة غطته السحب الداكنة التي جلبتها الرياح على امتداد الشاطئ، ومن وراء ذلك استقر على جنبه ما بدا أنه هيكل لمركب شراعي وقد غسلته الأمواج. كمنا في أجمة الأعشاب الجافة وجعلا يراقبان. ماذا ينبغي أن نفعل؟ سأل الصبي.

- لنراقب بعض الوقت، ليس إلا.
- أشعر بالبرد.
- أعرف ذلك. لنتقدم مسافة قليلة. بعيدا عن مهب الريح.

جلس وهو يضم الصبي أمامه. خشخش العشب الميت بنعومة ولاح حطام رمادي عن بعد. أحسا بدبيب البحر الذي لا ينتهي.

- كم علينا البقاء هنا؟ سأل الصبي.

- ليس طويلا.
- هل تعتقد أنه يوجد أناس على المركب يا أبي؟
- لا أعتقد ذلك.
- إن وجدوا سيكونون في وضعية انحناء.
- هذا صحيح. هل تستطيع أن ترى أي أثر هناك؟
- لا.
- لننتظر قليلا.
- إني أشعر بالبرد.

❖ ❖ ❖

سارا على امتداد الشاطئ الهلالي سالكين منطقة الرمال الثابتة دون الركام الذي قذف به المد. وقفا وملابسهما ترفرف بنعومة. كان الزجاج الطافي مغطى بطبقة رمادية. بدت عند خط المد سجادة من الأعشاب المتشابكة والملايين من أضلاع السمك الممتدة على طول الشاطئ على مد البصر مثل منحنى للموت تكون من لحد شاسع، لحد خلا من أي وجود للحواس.

كانت المسافة التي تفصل المركب عن طرف اليابسة مائة قدم تقريبا. وقفا ينظران إلى القارب. كان طوله ستين قدما تقريبا وقد جُرد بالكامل وانقلب في مياه بعمق عشر أو اثنتي عشرة قدما. كان مجهزا بسارية مزدوجة من نوع ما لكن الساريتين كسرتا قريبا من ظهر المركب ولم يبق منه فوق الماء سوى بعض المرابط النحاسية وبضع دعامات من القضبان على امتداد حافة ظهر المركب، بالإضافة إلى المقود الفولاذي البارز في مؤخرة مقصورة القيادة. استدار وتفحص الشاطئ والكثبان الرملية من

خلفه. ثم ناول المسدس للصبي وجلس على الرمال وبدأ يحل رباط حذائه.

- ما الذي ستفعله يا أبي؟

- سألقي نظرة.

- هل يمكنني الذهاب معك؟

- لا. أريدك أن تبقى هنا.

- أريد أن أذهب معك.

- عليك أن تبقى في الحراسة. هذا بالإضافة إلى أن المياه عميقة.

- هل سيمكنني رؤيتك؟

- نعم. سأظل أراقبك. للتأكد أن كل شيء يسير على ما يرام.

- أريد الذهاب معك.

توقف وقال: لا يمكنك الذهاب. ستطير ملابسنا في الهواء. لا بد أن تبقى للاعتناء بها.

طوى ملابسه في حزمة وكان يشعر ببرد شديد. انحنى وقبّل الصبي على جبهته وقال: لا تقلق، قم بالمراقبة، ليس إلا. ثم خاض عاريا إلى داخل الماء ووقف وبلل نفسه. تقدم وهو يرش الماء على جسمه ثم غاص شاقا طريقه نحو المركب.

سبح على امتداد المركب الشراعي الفولاذي قبل أن يستدير ويخطو في الماء وهو يرتعد من البرد. في وسط المركب كان الدرابزين يطفو قليلا فوق الماء. تدلى بنفسه من على العارضة حيث كان الفولاذ رماديا بلون الملح لكنه استطاع قراءة الحروف

الذهبية التي تعلن بالإسبانية تبعية المركب لأكبر جزر الكناري. استقرت رافعتان فارغتان لقوارب النجاة على جانب المركب. أمسك بالقضبان وتسلق إلى ظهر المركب واستدار وجثم على ظهر المركب الخشبي المائل وهو يرتجف من البرد. كان على الأرضية بعض الأجزاء من حبال مجدولة فُصلت عن مرابطها وظهرت بعض الثقوب في الخشب حيث نُزعت معدات المركب بقوة كبيرة جرّدت ظهر المركب من كل شيء.

كانت القمرة منخفضة بسقف مقنطر وكوات على الجانب. انحنى ومسح الملح الرمادي ونظر إلى الداخل لكنه لم ير شيئا. حاول الدخول من الباب المنخفض المصنوع من خشب السّاج لكنه كان مغلقا. دفعه بكتفه النحيل قبل أن يبدأ البحث عن شيء يمكن استخدامه. كان يرتجف بشدة واصطكت أسنانه. فكر في أن يرفس الباب ببطن قدمه لكن تلك الفكرة لم ترق له. رفع كوعه بيده وجعل يدفع الباب من جديد. شعر بتخلخله قليلا فاستمر بالدفع. بدأ المزلاج بالانفصال من الداخل وانفك أخيرا ففتح الباب ونزل من على الدرج إلى داخل القمرة. بدت رقعة من الماء الآسن على امتداد الحاجز السفلي وقد امتلأت بالورق والقمامة. فاحت رائحة الرطوبة والعفن الكريهة من كل شيء في المكان. لقد اعتقد أن المركب قد تعرض للنهب لكن البحر هو من فعلها. استقرت في منتصف الصالون طاولة من خشب الماهوغاني بحواف مثبتة بعلاقات على محيطها. كانت حجرات الخزائن مفتوحة الأبواب وتحول لون الأدوات النحاسية إلى الأخضر الباهت. عبر باتجاه القمرات الأمامية متجاوزا المطبخ

حيث انتشر الدقيق والقهوة على الأرضية، وكانت الأطعمة المعلبة شبه محطمة وصدئة. احتوت مقدمة المركب على مرحاض من الفولاذ المقاوم للصدأ ومغسلة. دخل ضوء البحر الضعيف عبر الكوّات الجانبية حيث تبعثرت الأدوات في كل مكان وطفت سترة للنجاة في المياه المتسربة.

كان يتوقع إلى حد ما مصادفة بعض مشاهد الرعب لكن ذلك لم يحدث. استقر الفرش داخل القمرات على الأرضية وقد تكومت الأغطية والملابس بجانب الحائط وقد أصاب البلل كل شيء. كان باب الخزانة في مقدمة المركب مفتوحا لكن تعثر رؤية ما في الداخل بسبب الظلمة. خفض رأسه ودخل الخزانة متلمسا محتوياتها. تلمس صناديق عميقة بأغطية خشبية ومعدات بحرية مكومة على الأرضية. بدأ يسحب كل شيء إلى الخارج ويكومه على السرير المائل. ضمت الأشياء بطانيات وملابس شتوية. اختار سترة صوفية مبتلة ارتداها. وجد أيضا زوج حذاء بحري أصفر من المطاط ومعطفا من النايلون ارتداه أيضا. ثم لبس بنطلونا أصفر من الملابس المقاومة للماء ضاغطا بإبهامه ليضع الحمالات على كتفيه، وأخيرا ارتدى الحذاء، ثم صعد عائدا إلى ظهر المركب. لم يزل الصبي جالسا في المكان الذي تركه فيه مراقبا المركب. وقف الرجل ملوحا لكنه أدرك أنه من الصعب أن يميز هيئته في ملابسه الجديدة. إنه أنا، نادى الصبي الذي وقف هناك هكذا فلوح له بيده قبل أن ينزل إلى الأسفل من جديد.

❖ ❖ ❖

ضمت الحجرة الخاصة الثانية أدراجا تحت السـرير لم تزل في أماكنها فرفعها وسـحبها إلى الخـارج. احتوت على كتيبات للتعليمات وأوراق مكتوبة بالإسبانية وقطع من الصابون وحقيبة سـوداء من الجلد بداخلها أوراق وقد تراكم عليها العفن. وضع الصابـون في جيـب معطفه وانتصـب واقفا. انتشـرت الكتب المكتوبة بالإسـبانية على أرضية السـرير، منتفخة لا شكل لها. واسـتقر مجلد وحيد على الرف مقابـل الحاجز الأمامي. وجد كيسـا بحريا من الكتان المطاطي، وتجول في بقية أرجاء المركب مرتديا الحذاء البحري الذي كان قد عثر عليه ومندفعا من على الحواجز وبنطلونه الأملس الأصفر يخشـخش في الجو البارد. عبأ الكيس بأنواع مختلفة من الألبسـة، بما فيها حذاء رياضي نسائي رأى أنه يناسب الصبي وسكين ذات يد خشبية يمكن طيها ونظارة شمسـية. اتسم بحثه بشيء من السـذاجة مثل تفتيشه الدقيـق للأماكن غير الواعدة أولا كأنه كان يبحث عن شـيء لم يجـده بعد. أخيرا ذهب إلى المطبخ. أدار مفتاح غرفة المحركات ثم أغلقه من جديد.

فتح غرفة المحركات ورفع الغطاء عن خزان الوقود الذي كان مغمورا بالماء تقريبا ومسـودا إلى حد بعيد. لم تصدر أي رائحة لبنزيـن أو زيت فأغلقـه مرة أخرى. فتش خزائـن مثبتة داخل المقاعد في قمرة القيادة احتوت على وسـائد وأشـرعة الكتان وأدوات صيد السمك. وجد في خزانة خلف قاعدة الدولاب لفات أحبال من النايلون وقوارير بنزين من الفولاذ وصندوقا للعدة من الزجاج المعزول. جلس على أرضية قمرة القيادة وأخذ يفتش بين

الأدوات المختلفة. بدت العدة صدئة ولكن يمكن استخدامها بما فيها آلات ومفاتيح براغ وأنواع أخرى من المفاتيح. أغلق صندوق العدة وانتصب واقفا يبحث بناظريه عن الصبي. رآه نائما وقد كوم نفسه على الرمل ورأسه قد استقر على حزمة الملابس.

حمل صندوق العدة وإحدى قوارير البنزين إلى المطبخ وتقدم إلى الأمام ليجري آخر رحلة بحث في الحجرات الخاصة. أخذ يفتش الخزائن الموجودة في الصالون متفحصا الملفات والأوراق في الصناديق البلاستيكية في محاولة للعثور على سجل السفينة. وجد طقما من الأواني الصينية غير المستعملة في صندوق خشبي معبأ بأدوات خاصة تهشم معظمها. كانت تحمل اسم السفينة وتكفي ثمانية أشخاص. تصور أنها كانت هدية. رفع فنجانا للشاي وقلّبه في كفه ثم أعاده إلى مكانه. كان آخر شيء وجده صندوق مربع من خشب البلوط بزوايا معشوقة رقيقة نحاسية انزلق عنه غطاؤه. ظن أنه صندوق لحفظ السيجار لكن شكله كان مختلفا. عندما رفعه واختبر وزنه بيده عرف ماهيته. فك المزاليج الصدئة وفتحه. وجد في داخله جهازا لقياس ارتفاع الأجرام السماوية، ربما مضى على صنعه مائة عام تقريبا. رفعه من الصندوق وتفحصه في يده منبهرا بجماله. كان النحاس باهتا وقد ظهرت عليه بقع خضراء أخذت شكل يد أخرى أمسكته في يوم من الأيام، وفيما عدا ذلك بدا بكامل روعته. مسح الصدأ عن سطح قاعدته وتبين له أنه صنع في لندن. رفعه أمام عينيه وأدار الدولاب. لقد كان أول شيء أثار أشجانه من الأشياء التي رآها منذ زمن طويل. رفعه في يده ثم

أعــاده إلى بطانة المخمل الزرقاء داخل الصندوق وأغلق المزاليج وأعاد الصندوق إلى مكانه في الخزانة وأغلقها.

عندما صعد إلى ظهر المركب من جديد ونظر إلى حيث ترك الصبي لم يره هناك. شعر بلحظة من الفزع قبل أن يراه يتمشى على الشــاطئ والمسدس يتدلى في يده ورأسه منحن إلى أسفل. شــعر بجسم الســفينة يرتفع وينزلق بخفة أثناء وقوفه. كان المد يضرب على امتداد الصخور في رصيف الســفن. استدار ونزل إلى داخل القمرة من جديد.

لقــد أحضر لفتين مــن الأحبال من الخزانة وقاس بالشــبر وضــرب ذلك فــي ثلاثة ثم أحصى عدد اللفــات. لقد كان لديه خمســون قدما منهــا فعلقها على مربط الأحبــال الموجود على ظهــر المركب الخشــبي الرمادي ثم نزل إلى داخــل القمرة مرة أخرى. جمع كل شــيء وكوّمه على الطاولة. ضمت الخزانة التي كانت بجانب المطبخ بعض جرار الماء البلاستيكية وكانت جميعها فارغة ما عــدا واحدة. رفع إحدى الجــرار الفارغة ولاحظ أن البلاســتيك قد تصدع وتســربت منه المياه. ظــن أن الجرار قد تجمدت في مــكان ما أثناء رحلات التيه للســفينة وربما حدث ذلك مرات كثيرة أخذ الجرة الممتلئة إلى منتصفها ووضعها على الطاولة وفتح الغطاء وشــم الماء ثم رفعها وشرب منها. ثم شرب مرة أخرى. بدت العلب الموجودة على أرضية المطبخ غير صالحة للاســتهلاك على الإطلاق، وحتى تلك التــي بقيت في الخزانة أصابها الصدأ الشــديد وانتفخت بطريقــة مريبة. لقد جُردت جميعها مــن الملصقات المطبوعة وكتبــت المحتويات على المعدن

بقلم حبر أسود باللغة الإسبانية. لم يستطع تمييزها جميعا. تفحصها وهزها ثم ضغط عليها بيده، ثم كومها على المنضدة فوق ثلاجة المطبخ الصغيرة. اعتقد أنه لا بد من وجود صناديق من المواد الغذائية في مكان ما في مخزن السفينة، لكنه تصور أنها لن تكون صالحة للاستهلاك. على أي حال فإن هناك حدا لكمية المتاع الذي يمكن أن تستوعبه عربتهم. فكر في أن يأخذ هذا الرزق غير المتوقع بناء على مبدأ يقرب كثيرا من حكم الأمر الواقع، لكنه قال في داخله ما كان يردده من قبل بأن الحظ السعيد ربما لا يكون كذلك البتة. لقد مرت به بضع ليال لم يحسد خلالها الموتى وهو يرقد في الظلمة.

وجد علبة من زيت الزيتون وبعض علب من الحليب وبعض الشاي في علبة معدنية صدئة وعلبة بلاستيكية بداخلها طعام لم يميزه ونصف علبة من القهوة. فتش رفوف الخزانة بدقة فاصلا ما يريد أخذه عما يريد تركه. بعدما حمل كل تلك الأشياء إلى الصالون وكومها مقابل الدرج ذهب من جديد إلى المطبخ وفتح صندوق العدة وبدأ ينزع أحد مصادر الإشعال من الفرن الصغير. فك السلك المضفر ونزع أقراص الألمنيوم من آلات الإشعال ووضع واحدا منها في جيب معطفه. حلّ الأجزاء النحاسية بمفتاح فارتخت تلك الآلات، ثم فكها بعضها عن بعض وربط الخرطوم بالماسورة وأوصل الطرف الآخر من الخرطوم بقارورة البنزين وحمل السخان الذي صنعه إلى الصالون. أخيرا وضع بعض علب العصير وعلب الفاكهة والخضراوات في مشمع بلاستيكي ربطه بحبل ثم خلع ملابسه وكومها بين الأشياء التي

جمعهــا وصعد إلى ظهر المركب عاريــا وانثنى عائدا وهو يحمل المشمع وقفز في البحر الرمادي القارس.

خــاض في الماء حتى وصل إلى الشــاطئ مــع آخر ضوء في النهار فرمى بالمشمع أرضا ومسح الماء عن ذراعيه وصدره بكفه وذهب لارتداء ملابسه والصبي من خلفه. كرر الصبي سؤاله عن كتفه التي ازرقت وتغير لونها في الجزء الذي استخدمه في دفع الباب فــي المركب. أنا بخير، رد الرجل. لا أشــعر بالألم. لدينا كثير من الأشياء. انتظر حتى ترى.

سارعا الخطى على الشاطئ في سباق مع الظلمة.

- ماذا لو أخذ التيار المركب بعيدا؟
- لن يأخذه بعيدا.
- ربما يحدث ذلك.
- لا، لن يحدث. هيا. هل تشعر بالجوع؟
- نعم.
- سنتغذى جيدا هذه الليلة. لكن علينا أن نسرع الخطى.
- إنني أمشي بسرعة يا أبي.
- وربما سيبدأ المطر بالهطول.
- كيف لك أن تعرف ذلك؟
- أستطيع أن أشم رائحة المطر.
- كيف هي رائحته؟
- رائحة الرماد الرطب. لنسرع.

ثم توقف. أين المســدس؟ ســأل الصبي. تجمــد الصبي في مكانه وبدا مرعوبا. يا إلهي، صاح الرجل. نظر خلفه على امتداد

الشـــاطئ. لم يكن المركب ظاهرا. نظر إلى الصبي. كان الصبي قد وضع يديه على رأسه وأوشك أن يبدأ بالبكاء. قال: أنا آسف. إنني آسف جدا.

أنزل المشـــمع الذي يضم الأطعمـــة المعلبة على الأرض وقال: يجب علينا العودة إلى هناك.

- إني آسف يا أبي.

- لا تقلق. سنعثر عليه.

وقـــف الصبي وقد ترهلت كتفاه وأخذ يجهش بالبكاء. انحنى الرجل ووضع ذراعيه حوله. خاطبه قائلا: لا تقلق. أنا المســـؤول عن التأكد من وجود المسدس معنا ولم أفعل. لقد نسيت ذلك.

- أنا آسف يا أبي.

- هيا. نحن بخير. سيكون كل شيء على ما يرام.

كان المسدس في المكان الذي تركه فيه في الرمل. رفعه الرجل وهزه ثم جلس وسحب مربط الأسطوانة وناوله الصبي وقال له: امسكه.

- هل أستطيع ذلك يا أبي؟

- طبعا، تستطيع.

أدار الأسطوانة بيده وفكها ونفخ عنها الرمل وناولها الصبي. نفخ عبر الماســـورة ثم نفخ الرمل عـــن الإطار ثم أخذ القطع من الصبي وأعاد تركيب المســـدس. أعاد صف الأسطوانة في خط مســـتقيم ثم ســـحبها من جديد. ثم أدارها إلى حيث الرصاصة الحقيقية وأنزل الزناد من جديد ووضع المسدس في سترته قبل أن ينتصب واقفا. قال: نحن بخير. هيا.

- هل سيحل الظلام ونحن في طريق العودة؟
- لا أعرف.
- هذا ما سيحدث، أليس كذلك؟
- هيا. سنحث الخطى.

لقد حل الظلام وهما في طريق العودة. لم يكن بإمكانهما رؤية أي شيء مع وصولهما إلى الممر في رأس اليابسة. وقفا في مجرى الرياح بمحاذاة البحر والعشب يهسهس من حولهما والصبي متمسك بيد والده. ينبغي علينا المضي قدما، قال الرجل. هيا.

- لا أستطيع الرؤية.
- أعرف ذلك. علينا التقدم خطوة بخطوة.
- حسنا.
- تمسّك بي.
- حسنا.
- مهما حدث.
- مهما حدث.

❖ ❖ ❖

تابعا مسيرهما في الظلام الدامس، كأناس فقدوا بصرهم. كان يمدّ إحدى يديه أمامه على الرغم من عدم وجود أي شيء يمكن الاصطدام به في ذلك الخليج الرملي. بدا صوت الأمواج أكثر بعدا لكنه اعتمد أيضا على اتجاه الرياح وبعد التخبط لمدة تقارب الساعة خرجا من الأعشاب وسيقان الشوفان ووقفا مرة أخرى على الرمل الناشف في أعلى الشاطئ. أصبحت الرياح

أكثـــر برودة. طلب من الصبي أن يســـير على جانبه ليتقي الريح حين ظهر الشـــاطئ فجأة يرتعد أمامهمـــا في العتمة ثم يختفي من جديد.

- ماذا حدث يا أبي؟

- لا تقلق، إنه البرق. هيا.

رمى بالمشـــمع على كتفه وأخذ الصبي من يده وتابعا سيرهما يتخبطـــان في الرمل كخيول العروض متوجســـين من التعثر بما قذفته الأمواج من قطع الأخشـــاب والحطام. لمع الضوء الرمادي الغريب على الشـــاطئ من جديد. ســـمعا صوتا خفيضا مخنوقا للرعد عن بعد في الظلمة. قال: أعتقد أنني رأيت أثرنا.

- إذن نحن في الاتجاه الصحيح.

- نعم. في الاتجاه الصحيح.

- أشعر بالبرد الشديد يا أبي.

- أعرف ذلك. دعنا نصل من أجل حدوث البرق.

❖ ❖ ❖

تابعا مســـيرهما. عندما لمع البرق على الشـــاطئ من جديد لاحـــظ أن الصبي قد انحنى وهو يهمس لنفســـه. بحث عن آثار خطاهما على الشـــاطئ لكنه لم ير شـــيئا. أصبحت الرياح أكثر شـــدة وكان ينتظـــر حبات المطر الأولى. إذا مـــرت بهما عاصفة مطرية وهما على الشـــاطئ فســـيكونان في موقف صعب. دارا بوجهيهما عن مجرى الريح وهما يتمســـكان بقبعات ســـترتيهما والرمل يضرب بأرجلهما ويمضي ســـريعا فـــي الظلمة، والرعد يقعقع بمحاذاة الشـــاطئ. هطـــل المطر القادم مـــن البحر قويا

ومائلا وارتطم بوجهيهما. ضم الصبي إليه.

وقفا في المطر المنهمر. كم هي المســافة التي قطعاها؟ انتظر البــرق لكنه بــدأ يتضاءل وعندما عاد مــن جديد كان يدرك أن العاصفة قد محت آثار أقدامهما. شــقا طريقهما في الرمل في أعلى الشــاطئ والأمل يحدوهما في أن يجدا المكان الذي خيما فيه في ظل لوح الخشب. بعد برهة توقف البرق تماما. ومع تغير في مجرى الريح ســمع خشخشة ضعيفة عن بعد. توقف وقال: أصغ.

- ما الأمر يا أبي؟
- أصغ.
- لا أسمع شيئا.
- هيا.
- ما الأمر يا أبي؟
- إنه المشمع، إنه المطر يضرب بالمشمع.

تابعا سيرهما يتخبطان في الرمل والقمامة على امتداد خط المد. وصلا إلى المشــمع مباشرة تقريبا حيث جثا وأسقط حمله وجعل يتلمــس الأرض بحثا عن الصخور التــي ثبته بها ودفعها من تحته. رفع المشــمع وسحبه من فوقهما ثم استخدم الصخور لتثبيــت الحواف من الداخــل. خلع المعطف المبتــل عن الصبي وغطيا نفســيهما بالبطانيات والمطر يضرب على المشــمع. نزع معطفه وضم الصبي إليه وبعد فترة قصيرة استسلما للنوم.

في الليل توقف المطر واستيقظ وجعل يصغي. هدأ المد القوي وتلاطــم الأمواج بعد ســكون الرياح. أفاق مــع أول خيط ضوء

باهت في الصباح ومشى على الشاطئ. لقد نشرت العاصفة القمامة على طول الشاطئ وسار على امتداد خط المد يبحث عن أي شيء يمكن استخدامه. في المياه الضحلة، وراء خط المد كانت جثة قديمة ترتفع وتنزل بين قطع الأخشاب. تمنى لو أنه يستطيع أن يخفيها عن الصبي، لكن الصبي كان مصيبا. ما الذي كان يستوجب الإخفاء؟ عندما عاد كان الصبي مستيقظا ويجلس في الرمل مراقبا إياه. كان يلف نفسه بالبطانيات وقد نشر معاطفهما المبتلة على الأعشاب الميتة لتجفيفها. توجه إليه واندس بجانبه وجلسا يراقبان البحر الرمادي يعلو ويهبط من وراء المد.

قضيا جل فترة الصباح ينزلان الأشياء من السفينة. أوقد نارا وأبقاها مشتعلة، كان يخوض في المياه إلى الشاطئ وهو يرتجف عاريا ويسقط الحبل ويقف في دفء اللهب، بينما كان الصبي يجر الكيس البحري عبر الأمواج البطيئة ويسحبه إلى الشاطئ. أفرغا الكيس ونشرا البطانيات والملابس على الرمل الدافئ أمام النار. كانت المواد الموجودة على المركب أكثر مما يستطيعان حمله، فكر الرجل في البقاء بضعة أيام على الشاطئ لتناول كل ما باستطاعتهما من الطعام لكن الأمر كان محفوفا بالمخاطر. ناما تلك الليلة على الرمال والنار تقيهما من البرد وأشياؤهما مبعثرة في كل مكان حولهما. انتابه السعال فاستيقظ ثم قام وشرب الماء ووضع مزيدا من الحطب على النار، ثم ألقى قطعا كبيرة الحجم من الخشب فأرسلت سلسلة ضخمة من الشرر إلى أعلى. أصدر الخشب المكسو بالملح لهبا برتقاليا وأزرق في

قلب النار فجلس يراقب ذلك فترة طويلة. بعد ذلك سار إلى الشاطئ حيث بدا ظله الطويل أمامه فوق الرمل يمتد ويقصر مع الهواء الذي يهب على النار، ثم أخذ يسعل من دون توقف حيث انحنى ماسكا ركبتيه بيديه حتى شعر بمذاق الدم في فمه. زحفت الأمواج البطيئة وهاجت في الظلمة وحاول أن يفكر في حياته لكن لم تكن هناك حياة للتفكير فيها وبعد برهة عاد من حيث أتى. أخرج علبة من الدراق من الكيس وفتحها وجلس أمام النار يتناولها بملعقته والصبي نائم. اضطرمت النار في مجرى الريح وتسابق الشرر بعيدا من على الرمال. وضع العلبة الفارغة بين رجليه وقال لنفسه: كل يوم يمر بك كذبة. أنت تلفظ أنفاسك الأخيرة. هذه ليست كذبة.

أخذا كل متاعهما الجديد بعد حزمه في المشمعات أو البطانيات إلى الشاطئ وحمّلا كل الأشياء في العربة. كان الصبي يحاول أن يحمل أكثر مما يستطيع لكن الرجل كان يخفف من حمل الصبي ويضيف إلى حمله عندما يتوقفان لأخذ قسط من الراحة. لقد تحرك المركب قليلا نتيجة العاصفة. وقف يرنو إليه والصبي يراقبه.

- هل ستذهب إلى المركب من جديد؟ بادره سائلا.
- أرى ذلك، لإلقاء نظرة أخيرة.
- أشعر ببعض الخوف.
- نحن بخير. قم بالمراقبة ليس إلا.
-لدينا أكثر مما نستطيع حمله الآن.
- أعرف ذلك، أريد فقط أن ألقي نظرة.

- حسنا.

تفحص السفينة من المقدمة حتى المؤخرة من جديد. كان يتوقف للتفكير. جلس على أرضية الصالون وقدماه اللتان تقبعان في الحذاء المطاطي مسنودتان على قاعدة الطاولة. كانت الظلمة قد بدأت بالانتشار. حاول أن يتذكر ما يعرفه عن السفن. نهض وذهب إلى ظهر المركب مرة أخرى. كان الصبي جالسا بجانب النار. نزل إلى القمرة وجلس على المقعد وظهره يستند على الحاجز وقدماه مرفوعتان على ظهر المركب مقابل عينيه تقريبا. لم يكن يرتدي سوى السترة والطقم البحري من فوقها وظل يرتجف في غياب الدفء الضروري من الملبس. أوشك على النهوض مرة أخرى عندما أدرك أنه كان لفترة يمعن النظر في أدوات الربط المتصلة بالحاجز على الجانب البعيد من القمرة. كان هناك أربع منها، مصنوعة من الفولاذ المقاوم للصدأ. في وقت ما كانت المقاعد مفروشة بالوسائد وكان بإمكانه أن يرى أربطتها في الزوايا حيث جرى نزعها. في أسفل مركز الحاجز فوق المقعد بقليل استقر شريط بارز من النايلون بطرف مزدوج ومطرز. نظر إلى الأربطة مرة أخرى. لقد تكونت من مزاليج دوّارة بأجنحة لإدخال الإبهام فيها. نهض وجثا عند المقعد وأدار كلا منها إلى النهاية نحو اليسار. كان بداخلها أسلاك مشدودة وعندما فك هذه الأسلاك قبض على الشريط في قاع اللوح وسحبه فانزلق اللوح وانفصل. في الداخل تحت ظهر المركب كان هناك فراغ ضم بعض الأشرعة الملفوفة وما بدا أنه قارب مطاطي ملفوف يتسع لشخصين ربط بحبال مرنة، كما ضم

زوجا من المجاديف البلاستيكية وصندوقا من العبوات النارية. ومن خلف ذلك استقر صندوق للعدة يمكن استخدامه لأغراض متعددة وقد أغلقت الفتحة في غطائه بلاصق أسود يستخدم في التمديدات الكهربائية. سحبه ووجد طرف اللاصق فنزعه حتى النهاية ثم أزال الشريط اللاصق وفتح الصندوق. حيث عثر على مصباح يدوي بلاستيكي أصفر وجهاز إرسال كهربائي يعمل بالبطارية ومجموعة من الإسعافات الأولية وجهاز إغاثة بلاستيكي أصفر وعلبة بلاستيكية سوداء بحجم كتاب تقريبا. أخرج العلبة السوداء وأزاح الشريط ثم فتحها. استقر في داخلها مسدس برونزي للعبوات النارية من عيار ٣٧ ملم. أخرجه وقلبه وتفحصه. ضغط على الزر وفتحه. كانت حجرة العتاد فارغة لكنه وجد ثماني عبوات نارية في داخل علبة من البلاستيك. كانت العبوات قصيرة وسميكة وبدت جديدة. أعاد المسدس إلى داخل العلبة وأغلق الغطاء.

خاض في الماء إلى الشاطئ وهو يرتجف ويسعل ثم لف نفسه ببطانية وجلس أمام النار والصناديق بجانبه. انحنى الصبي وحاول أن يضمه بذراعيه فابتسم الرجل لذلك، وهذا أقل ما يمكن فعله. ماذا وجدت يا أبي؟

– وجدت مجموعة من الإسعافات الأولية. ووجدت أيضا مسدسا للعبوات النارية.

– ما ذلك؟

– سأريك. إنه لإرسال الإشارات.

– هل هذا ما ذهبت للبحث عنه؟

– نعم.

– كيف عرفت أنه موجود هناك؟

– لقد كنت آمل أن يكون هناك. كان هذا في غالب الأمر حظا سعيدا.

فتح العلبة وأدارها للصبي ليرى ما في الداخل.

– إنه مسدس.

– مســدس للعبوات النارية. يطلق شيئا عاليا في الجو وينتج ضوءا هائلا.

– هل يمكنني إلقاء نظرة عليه.

– طبعا تستطيع ذلك.

أخرج الصبي المســدس من العلبة ورفعه. هل يمكن أن تطلق النار على شخص منه؟ سأل الصبي.

– تستطيع ذلك.

– هل ذلك يقتله؟

– لا. لكن من الممكن أن يشعل النار فيه.

– ألهذا احتفظت به؟

– نعم.

– لأنه ليس ثمة من يرسل له إشارة. أليس كذلك؟

– لا.

– أود رؤيته.

– تعني أن تطلق النار به؟

– نعم.

– نستطيع أن نطلق النار به.

- إطلاق نار حقيقي؟
- بالتأكيد.
- في العتمة؟
- نعم، في العتمة.
- يمكن أن يكون ذلك مثل احتفال.
- مثل احتفال. نعم.
- هل يمكن أن نطلق النار به الليلة؟
- لِمَ لا؟
- هل هو معبأ؟
- لا. لكن يمكننا تعبئته.

وقف الصبي ماسكا المسدس. صوبه باتجاه البحر. صاح: يا إلهي.

ارتدى ملابسه وانطلقا على الشاطئ وهما يحملان آخر غنائمهما.

- في رأيك، أين ذهب الناس يا أبي؟
- الذين كانوا على ظهر السفينة؟
- نعم.
- لا أعرف.
- هل تعتقد أنهم قد ماتوا؟
- لا أعرف.
- لكن الظروف لم تكن في صالحهم.
- ابتسم الرجل. الظروف لم تكن في صالحهم؟
- أليس كذلك؟

- ربما لم تكن.

- أعتقد أنهم قد ماتوا.

- ربما كذلك.

- أعتقد أن هذا ما حدث لهم.

- يمكن أن يكونوا أحياء في مكان ما، قال الرجل. هذا ممكن.

لم يرد الصبي. تابعا سيرهما وقد غطيا أقدامهما بقماش بحري ولفاها بقطع بلاستيكية زرقاء قُصت من أحد المشمعات مما جعلهما يتركان آثارا غريبة لأقدامهما في تحركهما جيئة وذهابا. فكر في الصبي والمخاوف التي تساوره وبعد برهة قال: ربما تكون على حق. أعتقد أنهم ربما ماتوا.

- لأنهم لو كانوا أحياء فنكون قد سرقنا متاعهم.

- ونحن لم نسرق متاعهم.

- أعرف ذلك.

- حسنا.

- إذن كم عدد الناس الذين تعتقد أنهم مازالوا أحياء؟

- في العالم كله؟

- في العالم كله. نعم.

- لا أعرف. لنتوقف ونأخذ قسطا من الراحة.

- حسنا.

- أنت ترهقني.

- حسنا.

جلسا بين حزم متاعهما.

- كم نستطيع البقاء هنا يا أبي؟

- لقد سألتني ذلك من قبل.

- أعرف.

- سنرى فيما بعد.

- ذلك لا يعني وقتا طويلا جدا.

- ربما.

صنع الصبي حفرا في الرمال بأصابعه حتى جعل منها دائرة. كان الرجل يراقبه. قال: لا أعرف عدد الناس الأحياء. لا أعتقد أن هناك كثيرا منهم.

- أعرف هذا. لف البطانية على كتفيه وجعل ينظر إلى الشاطئ الرمادي المقفر.

- ما الأمر؟ سأل الرجل.

- لا شيء.

- لا. أخبرني.

- ربما هناك أناس أحياء في أماكن أخرى.

- أماكن أخرى؟

- لا أعرف. في أي مكان آخر.

- تعني بالإضافة إلى كوكب الأرض؟

- نعم.

- لا أعتقد ذلك. لا يستطيع البشر العيش في أي مكان آخر.

- حتى لو استطاعوا الوصول إلى هناك؟

- لا. أزاح الصبي بصره.

- ما الأمر؟ سأل الرجل مرة أخرى.

هز الصبي رأسه ثم قال: لا أعرف ما الذي نفعله.

هم الرجل بالرد لكنه لم يفعل. بعد برهة قال: يوجد بعض الناس. يوجد بعض الناس وسنجدهم. سترى بنفسك.

أعد الرجل العشاء بينما كان الصبي يلعب بالرمل. صنع الصبي أداة لجرف الرمل من علب الأطعمة الفارغة واستخدمها في بناء قرية صغيرة وشق لها شبكة من الطرق. توجه الرجل إليه وقرفص ونظر إلى القرية الرملية. رفع الصبي ناظريه وقال: سيجرفها البحر، أليس كذلك؟

- بلى.
- لا بأس.
- هل تستطيع كتابة الحروف الهجائية؟
- نعم، أستطيع.
- لم نعد نهتم بدروسك.
- أعرف ذلك.
- هل تستطيع كتابة شيء في الرمل؟
- ربما نستطيع كتابة رسالة للناس الطيبين. فإذا مروا بهذا المكان سيعرفون أننا كنا هنا. يمكننا كتابتها بعيدا هناك حيث لن يتمكن المد من جرفها.
- ماذا لو رآها الناس الأشرار؟
- من الممكن.
- ما كان عليّ أن أقول ذلك. يمكن أن نكتب لهم رسالة.

هز الصبي رأسه وقال: لا تقلق.

عبأ مسدس العبوات النارية وعندما حل الظلام تمشيا على الشاطئ بعيدا عن النار ثم سأل الصبي إن كان يريد إطلاق النار بالمسدس.

- قم أنت بإطلاق النار يا أبي. أنت تعرف كيف تفعل ذلك.

- حسنا.

سحب الزناد وصوب المسدس فوق الخليج وأطلق النار. تقوست كتلة اللهب عاليا في العتمة وأصدرت صوتا كبيرا قبل أن تنفجر بعيدا فوق البحر وسط ضوء داكن وتتعلق في الجو. انحرفت الأجزاء اللولبية من المغنيسيوم الملتهب ببطء في الظلمة وتحرك المد الرمادي في الوهج ثم تلاشى ببطء. نظر إلى وجه الصبي الذي بدا منزعجا.

- لا يستطيعون رؤيته من مسافة بعيدة، أليس كذلك يا أبي؟

- من؟

- أي أناس.

- لا. ليس من مسافة بعيدة.

- إن كنت تريد أن تدل على مكانك.

- تعني أن تدل الناس الطيبين؟

- نعم. أو أي أناس تريدهم أن يعرفوا أين أنت.

- مثل من؟

- لا أعرف.

في الصباح أوقد نارا وتمشى على الشاطئ بينما كان الطفل نائما. لم يغب فترة طويلة لكنه شعر بعدم ارتياح غريب وعندما عاد كان الصبي واقفا على الشاطئ بانتظاره وهو يلف نفسه

ببطانياتــه. ســارع خطاه وعندمــا وصل إليه كان جالســا على الرمل.

- ما الأمر، ما الأمر؟

- لست على ما يرام يا أبي.

جــس جبهة الصبي بيــده. كانت حرارته عاليــة جدا. رفعه وحمله إلى حيث النار وقال: لا تقلق. ستكون على ما يرام.

- أعتقد أنني مريض.

- لا تقلق.

جلس معه على الرمل وأمســك جبهته بينما كان الصبي يتقيأ منحنيا. مســح فم الصبي بيده. قال الصبي: أنا آســف. لا تقل هذا، رد الرجل. لم تفعل أي شيء يستلزم ذلك.

حمله إلى مخيمهما وغطاه بالبطانيات وحاول أن يسقيه بعض المــاء. وضع مزيدا من الحطب على النــار وجثا ويده على جبهة الصبي. ستكون على ما يرام، قال له. لقد شعر بالرعب.

- لا تتركني وحدي يا أبي.

- طبعا، لن أتركك وحدك.

- حتى لفترة قصيرة.

- لا. أنا موجود هنا.

- حسنا. حسنا، يا أبي.

ضــم الصبي طــوال تلك الليلــة وهو يغفو ويصحــو مرعوبا يتلمس بيده قلب الصبي. لم يتحســن الصبي في الصباح. حاول أن يســقيه بعض العصير لكنه لم يفلــح. ضغط بيده على جبهة الصبي متحسســا برودة تأبى أن تأتي. مسح فمه الأبيض بينما

كان نائما. همس: سأفعل ما وعدت به، مهما كانت الظروف. لن أرسلك إلى داخل الظلمة وحيدا.

بحث في مجموعة الإسعافات الأولية التي حصل عليها من المركب لكن لم يكن هناك الكثير. احتوت على الأسبرين والضمادات والمطهر، وضمت أيضا بعض المضادات الحيوية لكن مدة صلاحيتها كانت قصيرة. ذلك كل ما توافر. ساعد الصبي في شرب الماء ووضع إحدى الكبسولات على لسانه. كان غارقا في العرق. لقد نزع عنه البطانيات والمعطف ثم ملابسه وأبعده عن النار. نظر الصبي إليه وقال: أشعر بالبرد الشديد.

- أعرف ذلك، لكن حرارتك عالية جدا ولا بد من خفضها.
- هل يمكنني الحصول على بطانية أخرى؟
- نعم. طبعا.
- لن تتركني وحدي.
- لا. لن أتركك وحدك.

حمل ملابس الصبي المتسخة إلى حيث الأمواج وغسلها وهو يقف مرتجفا في المياه المالحة الباردة وقد تعرى حتى خصره وضرب الملابس في الماء تكرارا قبل أن يعصرها، ثم نشرها بجانب النار على عصي غرسها في الرمل وجمع مزيدا من الحطب وجلس بجانب الصبي وأخذ يربت على شعره الأشعث. في المساء فتح علبة من الحساء ووضعها على الجمر ثم سد رمقه وجعل يراقب العتمة تنتشر من حولهما. عندما أفاق كان يرقد مرتجفا بين الرمال وقد تحولت النار إلى رماد ولف الظلام الدامس المكان. جلس بعصبية ومد يده إلى الصبي. همس: نعم. نعم.

أشعل النار من جديد وأحضر قطعة قماش وبللها ووضعها فوق جبهة الصبي. كان الفجر البارد ينبلج وعندما أصبح النور كافيا للرؤية ذهب إلى الغابة خلف الكثبان الرملية وعاد جارا كمية ضخمة من الجذوع والأغصان الميتة وجعل يكسّرها ويكومها بقرب النار. طحن بعض الأسبرين في كوب وأذابه في الماء وأضاف بعض السكر وجلس ورفع رأس الصبي ثم أمسك الكوب والصبي يشرب الدواء.

تجول على الشاطئ وهو يسعل مترنحا. وقف ينظر إلى الأمواج الداكنة. كان يترنح من شدة الإرهاق. عاد وجلس بجانب الصبي وطوى قطعة القماش من جديد ومسح وجهه ثم نشرها على جبهته. قال لنفسه: عليك أن تبقى قريبا وعليك أن تكون سريعا لكي يمكنك البقاء معه. عليك أن تضمه ضما حتى آخر يوم في الكون.

نام الصبي طوال اليوم. ظل يوقظه من فترة إلى أخرى ليشرب الماء المحلى بالسكر وحنجرة الصبي الناشفة تهتز وتخشخش. قال له: ينبغي أن تشرب. حسنا، رد الصبي بصوت لاهث. ثنى الكوب في داخل الرمل بجانبه ووضع البطانية المطوية كوسادة تحت رأس الصبي ثم وضع الأغطية فوقه. سأله: هل تشعر بالبرد؟ لكن الصبي كان قد استسلم للنوم.

حاول أن يبقى مستيقظا طوال الليل لكنه لم يستطع. أفاق مرارا وكان يجلس ويفرك عينيه أو ينهض ليضع الحطب على النار. ضم الصبي وانحنى برأسه ليسمع تنفسه المضطرب ويده على أضلاعه النحيلة البارزة. سار على الشاطئ إلى طرف

العتمة، وقبضتا يديه فوق رأسه وجثا على ركبتيه ينتحب بحنق شديد.

هطل المطر فترة وجيزة في الليل محدثا طقطقة ناعمة على المشمع. سحب المشمع فوقهما واستدار واستلقى ضاما الطفل وهو يراقب اللهب الأزرق من خلال المشمع البلاستيكي. ثم استسلم لنوم خلا من الأحلام.

❖ ❖ ❖

عندما استيقظ من جديد كاد لا يعرف أين هو. لقد تحولت النار إلى رماد والمطر قد توقف. أزاح المشمع وانتصب متكئا على كوعيه. بدا النهار رماديا. كان الصبي يراقبه فخاطبه: أبي.

- نعم. أنا هنا.
- هل يمكن أن تحضر لي بعض الماء؟
- نعم. نعم، طبعا سأحضر لك بعض الماء. كيف حالك الآن؟
- لدي شعور غريب.
- هل تشعر بالجوع؟
- أشعر بعطش شديد فقط.
- دعني أحضر الماء.

دفع بالبطانيات إلى الخلف ونهض وتخطى النار الخامدة وتناول كوب الصبي وملأه بالماء من الجرة البلاستيكية وعاد وانحنى وسقاه من الكوب بيده. قال: ستكون على ما يرام. ارتشف الصبي بعض الماء. أومأ ونظر إلى والده. ثم شرب ما تبقى من الماء. قال: أريد مزيدا من الماء.

أوقد نارا ونشـــر ملابس الصبي المبتلـــة وأحضر له علبة من عصير التفاح. سأله: هل تتذكر أي شيء؟

- عن ماذا؟
- عن مرضك.
- أتذكر إطلاق النار بمسدس العبوات النارية.
- هل تتذكر إحضارنا الأشياء من المركب؟

جلس يرتشـــف العصيـــر. نظر إلـــى أعلى وقال: أنا لســـت معاقا.

- أعرف ذلك.
- رأيت أحلاما غريبة.
- عن ماذا؟
- لا أريد أن أخبرك.
- حسنا. أريدك أن تنظف أسنانك.
- بمعجون أسنان حقيقي؟
- نعم.
- حسنا.

تفحص جميع علب الأطعمة لكنه لم يرتب من أي منها. تخلص من بعض العلب التي أصابها كثير من الصدأ. جلســـا تلك الليلة بجانب النار حيث شـــرب الصبي الحساء الساخن وقلب الرجل ملابســـه التي كانت تنفث البخار من على العصي، وجلس يراقبه حتى شـــعر الصبي بالحرج. قال الصبي: توقف عن مراقبتي، يا أبي.

- حسنا.

لكنه لم يفعل.

قضيـا يومـين يتجولان على الشـاطئ بـين موقعهما وحتى رأس اليابسـة وهما يشـقان طريقهما بنعالهما البلاسـتيكية. كانا يتغذيان بشـكل جيد ونصبا أقمشة بعض الأشرعة وثبتاها بالحبال والأعمدة كمصد للرياح. خففا من متاعهما ليصبح حملا مناسبا للعربة وتصورا أنهما سيرحلان في ظرف يومين. ثم في أثنـاء عودتهما إلى مخيمهما في وقت متأخر من النهار رأى أثرا لأقـدام في الرمـال. توقف وجعل ينظر على امتداد الشـاطئ.

صاح: يا إلهي. يا إلهي.

- ما الأمر يا أبي؟

سحب المسدس من حزامه وقال: هيا، أسرع.

لقد سُلب كل شـيء بما فيه المشمع والبطانيات وقارورة الماء والأطعمة. وطُرح الجناح الملحق بين الكثبان الرملية. لقد اختفت أحذيتهما. هرع إلى المنخفض المغطى بالشـوفان البحري حيث ترك العربة التي اختفت هي الأخرى. لقد سرقوا كل شيء. صاح مخاطبا نفسه: أيها الغبي. أيها الغبي.

وقف الصبي مشدوها. ماذا حدث يا أبي؟

- لقد سرقوا كل شيء، أسرع.

نظر الصبي إلى أعلى وشرع بالبكاء.

- ابق معي، قال الرجل. ابق معي.

كان فـي إمكانه رؤيـة آثار العربة حيث انسـلوا عبر الرمال المتحركـة. ظهرت آثار الأقدام أيضا. كم عددهم؟ فقد الأثر في الأرض الصلبة خلف أجمة نبات السرخس ثم وجده من جديد.

عندما وصلا إلى الطريق أوقف الصبي بيده. انكشــفت الطريق للرياح القادمة من البحر وخلت من الرماد فيما عدا بعض الرقع هنــا وهناك. لا تخطُ فــي الطريق وتوقف عــن البكاء، خاطب الصبــي. علينا أن نزيل كل الرمل عن أقدامنا. هنا. اجلس. نزع الأغطية عن أقدامهما ونفضها ثم ربطها من جديد. قال: أريدك أن تساعدني. نحن نبحث عن الرمل في الطريق بغض النظر عن حجمه. لنعرف في أي اتجاه ذهبوا. هل تفهم ذلك؟

- حسنا.

انطلقــا على الأســفلت في اتجاهين متعاكســين. لم يكن قد ذهب بعيدا عندما صاح الصبي مناديا. لقد وجدت بعض الرمل هنــا يا أبي. لقد ذهبوا في هذا الاتجاه. عندما وصل إلى المكان كان الصبــي مقرفصا في الطريق. إنــه هنا، قال الصبي. كانت كمية الرمل الممتد على الشــاطئ بمقــدار نصف ملعقة صغيرة انزلقت من الجزء الســفلي من العربة. وقــف الرجل ونظر إلى امتداد الطريق. قال: لقد أحسنت صنعا. لنقتفِ أثرهم.

انطلقــا مهرولــين، معتقــدا أن بإمكانه المحافظــة على تلك السرعة لكنه لم يستطع. كان عليه أن يتوقف أثناء السعال. نظر إلى الصبي وهو يتنفس بصعوبة. قال: علينا متابعة المســير. إذا أحسوا بنا سيختبئون على جانب الطريق، هيا.

- كم عددهم، يا أبي؟
- لا أعرف. ربما واحد فقط.
- هل سنقتلهم؟
- لا أعرف.

تابعا سيرهما. كان الوقت متأخرا من النهار وبعد ساعة أخرى في وقت متقدم من الشفق رأيا اللص الذي كان ينحني فوق العربة المعبأة ويشق الطريق أمامهما. عندما نظر إلى الخلف ورآهما حاول الجري بالعربة لكن من دون جدوى، وأخيرا توقف ووقف وراء العربة رافعا مدية يستخدمها القصابون. وعندما رأى المسدس خطا إلى الخلف لكنه لم يسقط المدية.

- ابتعد عن العربة، أمره الرجل.

نظر إليهما ثم اتجه بنظره نحو الصبي. كان أحد المشردين من التجمعات السكنية الريفية وقد بترت أصابع يده اليمنى. حاول أن يخفي يده التي بدت كصفيحة من اللحم خلفه. تكدس المتاع عاليا في العربة فقد أخذ كل شيء.

- ابتعد عن العربة وارم المدية.

نظر حوله كأنه سيتلقى مساعدة من مكان ما. بدا نحيلا متجهم الوجه وملتحيا تفوح منه رائحة القذارة وقد ربط معطفه البلاستيكي القديم بلاصق. كان المسدس ذا آلية مزدوجة لكن الرجل سحب الزناد على أي حال، مصدرا حركتين مسموعتين. لم يسمع فيما عدا ذلك سوى أنفاسهما في صمت المستنقعات المملحة. كان بإمكانهما شم رائحته في ملابسه النتنة. صاح الرجل: إن لم تسقط المدية وتبتعد عن العربة سأفجر دماغك. نظر اللص إلى الطفل حيث رأى ما يطمئنه. وضع المدية فوق البطانيات وتراجع إلى الوراء، ثم وقف.

- ارجع لمسافة أكثر.

خطا إلى الوراء من جديد.

- أبي. قال الصبي.
- اهدأ.
أبقى بصره معلقا على اللص. قال: عليك اللعنة.
- أبي أرجوك لا تقتل الرجل.
تأرجحت عينا اللص بعصبية. كان الصبي غارقا في البكاء.
- اهدأ يا رجل. لقد فعلت ما طلبت مني. أصغ إلى الصبي.
- اخلع ملابسك.
- ماذا؟
- اخلعها. كل شيء.
- اهدأ. لا تفعل هذا.
- سأقتلك حيث تقف.
- لا تفعل هذا يا رجل.
- لن أطلب ذلك مرة أخرى.
- حسنا. حسنا. عالج الأمر ببساطة، ليس إلا.
خلع ملابسه ببطء وكوم خرقه النتنة في الطريق.
- اخلع حذاءك.
- ليس هكذا يا رجل.
- قلت لك اخلعه.
نظر اللص إلى الصبي الذي كان قد استدار نحو الجهة الأخرى ووضع يديه فوق أذنيه. حسنا، رد اللص. حسنا. وجلس عاريا في الطريق وجعل يحل القطع المتعفنة من الجلد المربوطة حول قدميه. ثم انتصب واقفا وهو يحمل حذاءه بيد واحدة.
- ضعه في العربة.

خطــا إلى الأمام ووضع الحذاء فوق البطانيات ثم تراجع إلى الــوراء. وقف هناك عاريا نتنا يتضور جوعــا وقد غطى عورته بيده وأصابته الرجفة.

- ضع الملابس في العربة.

انحنى وحمل الخرق بين ذراعيه وكومها فوق الحذاء. ثم وقف ضاما نفسه. لا تفعل هذا بي يا رجل.

- لقد فعلت هذا بنا من دون أي اعتبار.

- أتوسل إليك.

- أبي، صاح الصبي.

- اهدأ وأصغ للطفل.

- لقد حاولت قتلنا.

- إني أتضور جوعا. كنت ستفعل الشيء نفسه.

- لقد أخذت كل شيء.

- اهدأ يا رجل. سأموت هنا.

- سأتركك كما تركتنا.

- اهدأ. أتوسل إليك.

ســحب العربــة وأدارها ووضع المســدس فوقهــا ونظر إلى الصبي. قال: لنرحل من هنا. انطلقا في الطريق جنوبا والصبي ينتحــب ويرنو خلفه إلى المخلوق العاري الأضلاع الذي كان يقف في الطريق مرتجفا ومعانقا نفسه. أرجوك يا أبي، قال منتحبا.

- توقف عن ذلك.

- لا أستطيع.

- ماذا سيحل بنا لو لم ننل منه؟ توقف عن ذلك.

- إني أحاول ذلك.

عندما وصلا إلى المنعطف في الطريق لم يزل الرجل واقفا في المكان نفسه. لم يكن لديه أي مكان للالتجاء إليه. ظل الصبي ينظر خلفه وعندما لم يعد يراه توقف ثم جلس في الطريق ينتحب. توقف الرجل ونظر إليه. أخرج أحذيتهما من بين الأشياء في العربة ثم جلس وجعل يحل الأغطية عن قدمي الصبي. قال: يجب أن تتوقف عن البكاء.

- لا أستطيع.

لبس الصبي الحذاء وارتدى هو حذاءه ثم قام وسار عائدا إلى أعلى الطريق لكنه لم ير اللص. عاد إلى حيث الصبي وانحنى من فوقه قائلا: لقد رحل. لنتابع المسير.

- لم يرحل، رد الصبي. نظر إلى أعلى وقد تلطخ وجهه بالغبار. لم يرحل.

- ماذا تريد أن تفعل؟

- أريد مساعدته يا أبي، ليس إلا. مساعدته فقط.

نظر الرجل خلفه إلى أعلى الطريق.

- كان جائعا فقط يا أبي. من المؤكد أنه سيموت.

- سيموت على أي حال.

- كان مرتعبا جدا يا أبي.

قرفص الرجل ونظر إليه. قال: إنني مرتعب. هل تفهم ذلك؟ إنني مرتعب.

لم يرد الصبي. جلس في المكان خافضا رأسه منتحبا.

- أنت لست الشخص الذي ينبغي أن يقلق على كل شيء.

قال الصبي شيئا لكنه لم يفهمه. ماذا؟ سأله.

نظـــر إلى أعلى وقد ابتل وجهه واتســـخ. قـــال: نعم، أنا ذلك الشخص. إنني ذلك الشخص.

دفعا العربـــة المترنحة عائدين إلى أعلى الطريق ووقفا هناك في البرد والظلمة القادمة وناديا من دون جدوى.

- إنه خائف من الرد يا أبي.

- هل هذا هو المكان حيث توقفنا؟

- لا أعرف. أعتقد أنه ذلك المكان.

سارا إلى أعلى الطريق مناديين في الشفق الفارغ وأصواتهما تتلاشى من على الأراضي الشـــاطئية التي بدأ يغشاها الظلام. توقفـــا ووقفا وأيديهما أمام فميهمـــا يصيحان من دون وعي في الفـــراغ. أخيرا كوم حذاء الرجل وملابســـه فـــي الطريق ووضع فوقها صخرة. قال: يجب أن نرحل. يجب أن نرحل.

اختـــارا مكانا جافا لمخيمهما مـــن دون أن يوقدا نارا. اختار علب الطعام لعشائهما وأدفأها على السخان الذي يعمل بالبنزين ثم أكلا ولم ينبس الصبي ببنت شفة. حاول الرجل أن يرى وجهه على الضوء الأزرق للسخان. قال: لم أكن أريد قتله. لكن الصبي ظل صامتا. لفا نفســـيهما بالبطانيـــات ورقدا هناك في العتمة. تصور أنه ســـمع صوت البحر لكن ربمـــا كان ذلك مجرد صوت الرياح. كان في إمكانه أن يعرف أن الصبي لم يزل مستيقظا من تنفسه وبعد برهة قال الصبي: لكننا لم نقتله.

فـــي الصباح تناولا الطعام ثم انطلقا. كانت العربة تنوء بحمل ثقيـــل وكان مـــن الصعب دفعهـــا وقد ارتخت إحـــدى عجلاتها.

انعطفت الطريق بمحاذاة الشـاطئ وقد برزت سـيقان العشب المملح الميت مـن على الرصيف، وماج البحـر الرمادي عن بعد وخيـم الصمت من حولهما. اسـتيقظ تلك الليلـة وضوء القمر الكربوني الباهت يعبر من وراء الضباب ما جعل أشكال الأشجار تكاد تظهر للعيان. اسـتدار إلى الجهة الأخرى وأخذ يسعل. شم رائحة المطر في المكان. كان الصبي مستيقظا. ينبغي أن تتحدث معي، خاطب الصبي.

- أحاول ذلك.
- أنا آسف لأنني أيقظتك.
- لا تقلق لذلك.

نهض وسار إلى الطريق. كان مظهر الطريق ينساب من ظلام إلى ظلام. ثم سمع الرجل قعقعة خفيضة. لم تكن رعدا. تستطيع أن تشعر بها تحت قدميك، فهي صوت من دون شبيه وبلا وصف، صـوت لا يمكن تخيله يتحرك في الظلمة. كانت الأرض نفسـها تتقلص مـن البرد. لم يحدث ذلك مرة أخـرى. في أي وقت من السنة نحن الآن؟ كم عمر الطفل؟ مشى إلى داخل الطريق ووقف هناك. لقد أطلت الأشـكال الملطخة بالوحل للمدن الغارقة التي احترقـت عـن آخرها. عند تقاطـع للطرق بـدت أرض حُددت بصخور غابرة حيث العظام التي تحدثت عنها النبوءات قد بدأت تتحلل. ساد السـكون خلا صوت الريح. ماذا ستقول؟ رجل على قيد الحياة تلفظ بهذه السطور؟ أخذ يسنّ ريشة بسكينه الصغير لتدوين هذه الأشياء في النعل أو في السخام، في لحظة محسوبة قائمة، إنه قادم لسرقة عيني وليسد فمي بالتراب.

فتش العلـــب من جديد واحدة تلو الأخـــرى رافعا إياها بيده وضاغطـــا عليها مثل رجل يتحســـس الفاكهة قبل شـــرائها من البائـــع. وضع اثنتين منها، أثارتا شـــكوكه، جانبـــا ولف ما تبقى ورتـــب المتاع في العربة وانطلقا في الطريق من جديد. بعد ثلاثة أيـــام وصلا إلى بلدة صغيرة على ميناء بحري وأخفيا العربة في مرآب خلف أحد المنازل وكوما الصناديق القديمة فوقها ثم جلسا في المنزل ليريا إن كان ســـيأتي أحد وهو ما لم يحدث. بحث في الخزائن لكنه لم يجد شـــيئا. كان يبحث عن فيتامين «د» للصبي كي لا يصاب بالكســـاح. وقف عند المغســـلة ونظر إلى الممر. بدا لـــون الماء المتجمع على الألواح الزجاجية المتســـخة باهتا. جلس الصبي مترنحا على الطاولة ورأسه بين ذراعيه.

تجولا عبر البلدة وفي أحواض الســـفن ولـــم يريا أحدا. كان المســـدس في جيب معطفه ومســـدس العبـــوات النارية في يده. تمشـــيا على رصيف الميناء ذي الألواح الخشـــنة الداكنة الملطخة بالقار والمثبتة بمسامير ضخمة في الخشب في الأسفل. ظهرت المرابط الخشـــبية لأحبـــال المراكب وأتتهما رائحـــة باهتة للملح والزيوت في الخليج. على الشاطئ البعيد ظهر صف من مخازن المعدات وهيكل لناقلة احمرّ من الصدأ. قال: لا يوجد أحد هنا. لم يرد الصبي.

❖ ❖ ❖

دفعا العربة عبر الأزقة وعبر قضبان السكة الحديد ووصلا إلى الطريق الرئيسية مرة أخرى عند الحافة البعيدة للبلدة. بينما كانا يمران بآخر البنايات الخشبية الكئيبة سمع صوت أزيز بالقرب من

رأســه وقعقع عبر الشارع قبل أن يصطدم بجدار مبني من الطوب في الجهة الأخرى. أمســك الصبي وارتمى فوقه وأمســك العربة وجذبها نحوهما. انزلقت وانقلبت فســقط المشمع والبطانيات في الشــارع. في نافذة علوية في المنــزل رأى رجلا يصوب قوس نبال نحوهما فدفع رأس الصبي إلى أسفل وحاول تغطيته بجسده. سمع صوت انطلاق النبل من القوس وشــعر بألم حــاد حار في رجله. صاح: أيها الســافل. أيها السافل. أزاح البطانيات جانبا بأصابعه واندفع بجســمه إلى الأمام وتناول مسدس العبوات النارية ورفعه وسحب الزناد واتكأ بذراعه على طرف العربة. كان الصبي ملتصقا بــه. عندما خطا الرجل إلــى الوراء عبر النافذة لســحب القوس مــن جديد أطلق عليه النــار. انطلقت كتلة اللهــب باتجاه النافذة على شــكل قوس أبيض طويل قبل أن يسمعا صراخ الرجل. أمسك الصبي ودفعه إلى أسفل وسحب البطانيات فوقه. لا تتحرك، قال لــه. لا تتحرك ولا تنظر. بعثر البطانيات في الشــارع وهو يبحث عن علبة عتاد المســدس الناري. انزلقت أخيرا من العربة فأخذها بســرعة وفتحها وأخرج العبوات وعبأ المسدس مرة أخرى وأغلقه ووضــع بقية العبــوات في جيبه. همس: ابق كمــا أنت. ربت على الصبي من على البطانيات ونهض وجرى وهو يترنح عبر الشارع.

دخل المنزل من الباب الخلفي والمسدس الناري مصوب بمستوى خصره. بانت أخشــاب الجدران القائمة بعد أن جُرد المنزل من كل شيء. خطا إلى داخل غرفة المعيشة ووقف على سطح الدرج وأصغى لأي حركة في الغرف العلوية. نظر عبر النافذة الأمامية إلى حيث استقرت العربة في الشارع ثم صعد الدرج.

رأى امــرأة تجلس في الزاوية وتســاعد الرجل المصاب حيث كانت قد خلعت معطفها لتغطيته. بدأت تسبه حالما رأته. احترقت كتلة اللهب علــى الأرضية تاركة وراءها رقعة من الرماد الأبيض ورائحة ضعيفة للخشــب الذي احترق فــي الغرفة. عبر الرجل الغرفــة ونظر عبــر النافذة. تبعته عينا المــرأة التي بدت هزيلة بشعرها الأشيب الضعيف.

- من هنا غيركما؟

لم ترد. مر من جانبها وفتش الغرف. كانت رجله تنزف بشدة وكان يشــعر ببنطاله يلتصق بالجلد. ذهب مجــددا إلى الغرفة الأمامية ودخلها. أين القوس؟ سألها.

- ليس بحوزتي.
- أين هو؟
- لا أعرف.
- لقد تركوك هنا، أليس كذلك؟
- لقد تركت نفسي هنا.

اســتدار ونزل الدرج وهو يترنح وفتــح الباب الأمامي وخرج إلى الشــارع وهو يســير إلى الخلف مراقبا المنزل. عندما وصل إلى العربة رفعها وكــوم متاعهما فيها من جديد. ثم همس: ابق بقربي. ابق بقربي.

قضيا ليلتهما في مبنــى للمحال التجارية على طرف البلدة. دفــع العربة إلى داخل حجرة في المنطقــة الخلفية وأغلق الباب وأســند العربة عرضيا بالباب. أخرج السخان وعبوة البنزين من بين المتاع وأشــعله ووضعــه على الأرضية قبــل أن يحل حزامه

ويخلـع بنطاله الملطخ بالدماء. كان الصبـي يراقبه. لقد أحدث السـهم جرحا بالغا فوق الركبة مباشرة بطول ثلاث بوصات. لم يـزل الجرح ينزف وقد تغير لون الجزء العلوي من رجله ولاحظ أن الجرح كان عميقا. كان سـهما عريـض الرأس مصنوعا في البيت من صفائح الحديد أو ملعقة قديمة أو شيء آخر لا يعلمه إلا الله. نظـر إلى الصبي وقال له: حـاول أن تحضر مجموعة الإسعاف الأولية.

لم يتحرك الصبي.

- أحضرصندوق الإسـعافات الأوليـة. اللعنة. لا تجلس هنا هكذا.

قفـز الصبي وذهب إلـى الباب وجعل يبحث تحت المشـمع والبطانيـات المكومة فـي العربة ثم عاد بالصنـدوق وناوله إلى الرجل. أخـذه من دون تعليق ووضعه على الأرضية الأسـمنتية أمامـه وحل المزاليج وفتحه. مد يده ورفع ضوء السـخان. قال: أحضـر لي قارورة المـاء. أحضر الصبي القـارورة وفتح الرجل الغطاء وصـب الماء على الجرح وأمسـك القـارورة المغلقة بين أصابعه بينما كان يمسـح الدم عن الجرح. مسح الجرح بالمطهر وفتح ظرفا بلاستيكيا وأخرج إبرة خياطة صغيرة للجراحة ولفة من خيوط الحرير وجلس رافعا خيط الحرير في النور بينما كان يدخلـه في ثقب الإبرة. تناول كلاّبـا من الصندوق ووضع الإبرة بين فكي الكَّلاب وأغلقهـا وجعل يخيط الجرح. كان يقوم بعمله بسـرعة ولم يكترث بالألم. كان الصبـي يجلس القرفصاء على الأرض. نظر الرجل إليه ثم تابع عمله من جديد.

قال: ليس مطلوبا منك أن تشاهد ذلك.

- هل عندك مانع؟

- كلا. ليس عندي أي مانع.

- هل يؤلمك الجرح؟

- نعم، إنه يؤلمني.

وصـــل بالعقدة إلى آخر الخيط وشـــدّها وتنـــاول المقص من الصندوق وقطع الخيط ثم نظر إلى الصبي. كان الصبي يراقب ما فعله والده.

- أنا آسف لأني صرخت عليك.

- نظر الصبي إلى أعلى. لا تقلق يا أبي.

- لنبدأ من جديد.

- حسنا.

فـــي الصباح هطل المطـــر ورجت الرياح القويـــة الزجاج في الجهة الخلفية من المبنى. وقف ينظر إلى الخارج حيث ظهر أحد الأرصفة الفولاذية وقد انهـــار تقريبا وغمرته المياه في الخليج. ظهرت دفات القيـــادة لقوارب الصيد الغارقـــة من بين الحطام الرمادي. لم يتحرك أي شـــيء فـــي المكان وقد أخذت الرياح كل ما يمكـــن حمله. عانى خفقانا في رجله فنـــزع اللفة عن الجرح وطهـــره وتفحصـــه. كان اللحم منتفخا وقد تغيـــر لونه من حول الخيوط الســـوداء. لف الجرح من جديـــد وارتدى بنطاله الملطخ بالدم الجاف.

قضيا يومهما هناك جالســـين بين العبوات والصناديق. ينبغي أن تتكلم معي، خاطب الصبي.

- أنا أتكلم الآن.
- هل أنت متأكد؟
- إني أتكلم الآن.
- هل تريدني أن أقول لك قصة؟
- لا.
- لِمَ لا؟

نظر الصبي إليه ثم نظر جانبا.

- لِمَ لا.
- تلك القصص ليست حقيقية.
- لا يلزم أن تكون حقيقية فهي قصص، ليس إلا.
- نعم. لكن نحن دائما نقدم المساعدة للناس في القصص ونحن على غير ذلك في الواقع.
- لِمَ لا تقول لي قصة؟
- لا أريد ذلك.
- حسنا.
- ليس لدي أي قصص لأقولها.
- يمكنك أن تحكي لي قصة عن نفسك.
- أنت تعرف كل القصص عني. لقد كنت موجودا.
- لديك قصص في داخلك لا أعرفها.
- تعني شيئا من قبيل الأحلام.
- من قبيل الأحلام أو أشياء تفكر فيها فقط.
- نعم، لكن يفترض أن تكون القصص سعيدة.
- ليس بالضرورة.

- أنت دائما تقول قصصا سعيدة.
- ليس لديك أي قصص سعيدة؟
- قصصي تشبه واقع الحياة الحقيقية.
- لكن قصصي على خلاف ذلك.
- لا. قصصك ليست كذلك.

أطال النظر إليه. إن الحياة الحقيقية في غاية السوء.

- ما رأيك؟
- لنرَ. نحن مازلنا هنا. حدث لنا كثير من الأشياء السيئة لكننا مازلنا هنا.
- نعم.
- أنت لا تؤمن بجدوى ذلك.
- لا بأس.

سحب طاولة إلى جانب النوافذ ونشر البطانيات وكان الصبي مستلقيا على بطنه ينظر إلى الخارج ويجول بنظره عبر الخليج. جلس الرجل ورجله ممدودة. استقر بينهما على البطانية، المسدسان وعلبة العبوات النارية. بعد برهة قال الرجل: أعتقد أنها قصة جيدة. إنها قصة جيدة جدا. لها قيمة معقولة.

- لا تقلق يا أبي، أريد فقط أن أنعم ببعض الهدوء.
- ماذا عن الأحلام؟ لقد اعتدت أن تخبرني بأحلامك في بعض الأحيان.
- لا أريد التحدث عن أي شيء.
- حسنا.

- ليست لدي أحلام سعيدة على أي حال. تدور جميعها دائما حول حدوث أشـــياء ســيئة. لقد قلت إن ذلك شـــيء حسن لأن الأحلام السعيدة تتبئ بالسوء.

- ربما. لا أعرف.

- عندما تســتيقظ وقد انتابك السعال وتتمشى على امتداد الطريق أو إلى أي مكان آخر أستطيع أن أسمع ما يحدث لك.

- أنا آسف.

- مرة سمعتك وأنت تبكي.

- أعرف ذلك.

- لذا إذا كان ينبغي ألا أبكي فينبغي ألا تبكي أنت أيضا.

- حسنا.

- هل ستتحسن رجلك؟

- نعم.

- تقول ذلك من قبيل طمأنتي؟

- لا.

- لأن الجرح يبدو عميقا.

- ليس بذلك السوء.

- كان الرجل يحاول قتلنا، أليس كذلك؟

- نعم. كان يحاول قتلنا.

- هل قتلته؟

- لا.

- هل تقول الحقيقة؟

- نعم.

- حسنا.
- هل يروق لك ذلك؟
- نعم.
- اعتقدت أنك لم ترد الكلام.
- هذا هو ما أريده.

تابعا سيرهما بعد يومين والرجل يعرج من وراء العربة والصبي علــى جانبه حتى خرجا من ضواحي البلدة. امتدت الطريق على طول الشـــاطئ الرمادي وانتشــرت كتل رملية في الطريق كانت الرياح قد تركتها وراءها، ما أبطأ تقدمهما واضطرهما إلى جرف طريق لهما في بعض الأماكن مســتخدمين لوحا احتفظا به على الرف السفلي للعربة. تجولا على الشاطئ وجلسا في ظل الكثبان الرملية وتفحصا الخريطة. لقد أحضرا السخان معهما فسخنا الماء وصنعا الشــاي وجلسا وهما يلفان نفسيهما بالبطانيات في مهب الرياح. رأيا على الشـــاطئ أخشابا محطمة لسفينة قديمة جدا، حيــث حف الرمل العارضات الرماديــة والبراغي اليدوية وبــدت الأجزاء الحديد المنقطة بلون نبــات الليلك الداكن والتي كانــت قد صهرت ببراعة في «كاديس» أو «بريســتول» وطرقت بســندان مســود لتعمّر ثلاثمائة عام في البحر. في اليوم التالي مرا بحطام من الألواح لمنتجع بحري وسلكا طريقا برية عبر غابة من الصنوبر حيث تكومت سيقان الصنوبر على الأسفلت الطويل المستقيم وهبت الرياح على الأشجار المسودة.

جلــس في الطريــق ظهرا في وســط النهــار وقص الخيط بالمقــص قبل أن يعيده إلــى الصندوق ويخرج الــكَّلاب. ثم بدأ

يسحب الخيوط السوداء الصغيرة من جلده ضاغطا ببطن إبهامه والصبي جالس في الطريق يراقب ما يحدث. كان يشد الكّلاب على أطراف الخيوط ويسحبها الواحد تلو الآخر. بانت بعض بقع الدم الصغيرة. عندما أكمل عمله أعاد الكّلاب إلى مكانه ولف الشاش على الجرح ثم انتصب قائما وارتدى بنطاله وناول الصبي صندوق الإسعافات الأولية ليعيده إلى مكانه.

- كان ذلك مؤلما، أليس كذلك؟ سأله الصبي.

- نعم. كان مؤلما.

- هل أنت شجاع حقا؟

- إلى حد ما فقط.

- ما أشجع شيء قمت به في حياتك؟

- لقد تقيأت دما في الطريق عندما استيقظت هذا الصباح.

- حقا؟

- لا. لا تصغ إليّ. هيا. لنتابع المسير.

في المساء أطل شبح مظلم آخر لمدينة ساحلية وقد اعوجت كتل المباني العالية بشكل غامض. تصور أن شبكات الحديد قد لانت من الحرارة ثم تماسكت من جديد لتترك المباني قائمة بهذا الشكل. تعلق زجاج النوافذ الذائب متجمدا على الجدران كأنه طبقة كريمة على قالب من الكعك. تابعا سيرهما. في أثناء الليل كان يصحو أحيانا في الفراغ المعتم القارس من رحم عوالم بألوان هادئة للحب الإنساني وتغريد الطيور والشمس.

❖ ❖ ❖

اتكأ بجبهتــه على ذراعيه المضمومتين علـــى يد العربة وبدأ يسعل. تقيأ سائلا مختلطا بالدم. ازداد عدد مرات توقفه لأخذ قســط من الراحة. كان الصبـــي يراقبه. لو كان الطفل في عالم ما آخر لهمّ بإخراجه منــه. لكنه لم يملك حياة أخرى. كان يعلم أن الصبي يرقد مســتيقظا في الليل وأصغى لكي يسمع إن كان يتنفس.

مـــرت الأيام من دون حســـاب ومن دون أن تتـــدرج تحت أي تقـــويم. بدت على امتداد الطرق بـــين الولايات عن بعد صفوف طويلة لســـيارات اســـودت وأصابها الصدأ. اســـتقرت إطارات العجـــلات المعدنية العاريـــة في وحل رمادي جـــاف من المطاط الذائـــب فـــي حلقات مســـودة من الأســـلاك. تقلصـــت الجثث المحترقة حتى صارت في حجم الأطفال على الأسلاك المشدودة للمقاعد العارية، وقد دفنت في أفئدتها الثكلى عشـــرات الآلاف من الأحلام. تابعا مسيرهما وهما يطآن عالم الموتى من تحتهما كجرذان تدور على دولاب. غشي الليالي الصمت المطبق والظلام الدامس والبرد القارس. لم يتحدثا إلا ما ندر. عانى من السعال طوال الوقت وشـــاهده الصبي وهو يتقيأ دمـــا. كان رث الثياب يشق طريقه مترنحا ومتســـخا وفاقدا الأمل. كان يتوقف ويتكئ على العربـــة والصبي معه خطوة بخطوة ثـــم يتوقف وينظر إلى الخلف رافعا عينيه الباكيتـــين ليرى الصبي الواقف في الطريق يرنو نحوه بدوره من مســـتقبل خـــارج حدود الخيال متوهجا في ذلك الفراغ مثل هيكل لمعبد متنقل.

❖ ❖ ❖

مــرّت الطريق عبر مســتنقع جاف حيث بــرزت قضبان من الجليــد والوحل المتجمد وكأنها نوافير ميــاه في أحد الكهوف. بــدت بقايا لموقع نار قديمة على جانــب الطريق ومن وراء ذلك ظهر ممر أســمنتي مرتفع طويل وأرض مســتنقع مقفرة، حيث برزت الأشجار الميتة من المياه الرمادية ومن حولها آثار الطحالب الرمادية. تجمعت على حاجز الطريق بقع من الرماد الناعم. وقف منحنيا فوق الممر الأسمنتي الخشن. ربما في دمار الكون سيكون من الممكن أخيرا أن نلاحظ كيف تشــكل بمحيطاته وجباله وهو المشــهد النقيض المضجر للأشــياء التي لم تعد موجودة، مشهد غشاه الفراغ الهائل والصمت المطبق.

كانا قــد بدآ يمران بأشــجار الصنوبر الميتــة التي طرحتها الريح أرضا ورقــع الدمار الهائلة عبر المناطــق الريفية وحطام المباني المنتشر فوق الأراضي الممتدة وركام الأسلاك من عواميد الكهربــاء على جانب الطريق وكأنها قد حيكت. انتشــر الحطام في الطريق وأصبح من الصعب دفع العربة. وأخيرا جلســا على جانب الطريق محملقين في ما ظهر أمامهما من ســقوف المنازل وجذوع الأشــجار وأحد القوارب والسماء الممتدة في الأفق حيث البحر الكئيب يبطؤ ويموج عن بعد.

❖ ❖ ❖

بحثــا في الحطام المنتشــر على امتــداد الطريق وخرجا في النهاية بكيس من الكتان يمكن أن يحمله على كتفه وحقيبة صغيرة للصبي. حزما بطانياتهما والمشمع وما تبقى من الأطعمة المعلبة وانطلقا بحقائبهما وأكياســهما تاركين العربة وراءهما يتخبطان

بـــين الحطام بخطى بطيئة. كان عليـــه أن يتوقف للراحة. جلس على أريكة انتفخت وســـائدها من الرطوبـــة على جانب الطريق وانحنى إلى الأمام حيث جاءته نوبة الســـعال. نزع القناع الملطخ بالدماء عن وجهه ونهض وغســـله في القناة وعصره ثم وقف في الطريق. كان ينفث نفسا أبيض فلقد أخذ الشتاء منه كل مأخذ. اســـتدار ورنا إلى الصبي الذي كان يقـــف حاملا حقيبته كطفل يتيم ينتظر إحدى الحافلات.

في خلال يومين وصلا إلى نهر عريض يشتهر بفيضانه المتكرر حيث انهار الجسر من فوقه واستقر في المياه التي تتحرك ببطء. جلســـا على جدار الطريق المتصدع يراقبان النهر يتراجع ويتلوى من على الجســـر الحديدي المنهار. رنا عبـــر المياه إلى الأراضي الممتدة من وراء النهر.

- ماذا سنفعل؟ سأل الرجل.

- لنر. من نحن. رد الصبي.

❖ ❖ ❖

عبرا الدلتا الموحلة حيث اســـتقر قـــارب صغير مهجور وقد دفن فـــي الوحل حتى منتصفه ووقفا ينظران إليه. شـــعرا بنذر المطـــر في الرياح. فشـــقا طريقهما إلى أعلى الشـــاطئ حاملين متاعهمـــا في بحث عن مكان يلجـــآن إليه ولكن من دون جدوى. جمع الرجل كوما من الأخشـــاب التي بدت بلون العظم من على الشاطئ وأوقد نارا حيث جلسا في ظل الكثبان الرملية والمشمع مـــن فوقهما وراقبا المطر القارس يأتي من الشـــمال. كان المطر شديدا فأحدث نقشا في الرمل. نفثت النار بخارا وتلوى الدخان

في انحناءات بطيئة. لف الصبي نفسـه تحت المشـمع على وقع حبات المطر واستسلم للنوم في وقت قصير. وضع الرجل المشمع من فوقه على شـكل خيمة وجعل يراقب البحر الرمادي يحتجب بعيدا تحت المطر والأمواج تتكسّـر على طول الشاطئ وتتراجع من جديد وقد نقشت رسومها في الرمال الداكنة.

شقا طريقهما عبر اليابسة في اليوم التالي حيث بدا مستنقع منخفض شاسـع كان ينمو فيه نبات الخنشـار وأزهار الأقحوان والسـحلبية البرية في أشـكال رمادية لم تكن الرياح قد طالتها بعد. لقد عانيا كثيرا في سيرهما. وبعد يومين وصلا إلى إحدى الطـرق حيث أنـزل الرجل الكيس علـى الأرض وجلس منحنيا وذراعاه مضمومتان على صدره وسـعل حتى لم يعد باستطاعته فعل المزيد. بعد يومين آخرين ربما سـيكونان قد قطعا مسـافة عشـرة أميال. عبرا النهر وبعد مسافة قصيرة وصلا إلى تقاطع طـرق. لقد مرت في الأراضي الريفيـة المنخفضة عاصفة فوق البرزخ أدارت اتجاه الأشجار السوداء الميتة من الشرق إلى الغرب مثل أعشـاب غيّر المـاء اتجاهها في قاع أحـد الجداول. خيما في المكان وعندما اسـتلقى الرجـل على الأرض كان يعلم أنه لن يستطيع متابعة السير من جديد وأن ذلك هو المكان الذي سيموت فيـه. جلس الصبي يراقبه وعيناه مغرورقتان بالدمع وتأوه: آه يا يا أبي.

راقبه وهو يشق طريقه بين الأعشاب وينحني من فوقه بكوب المـاء الذي أحضره. كان النور يحيط به من كل جانب. أخذ كوب الماء وشـرب واسـتلقى مجددا. كانا يمتلكان مـن الطعام علبة

وحيدة من الدراق وأصر أن يتناولها الصبي رافضا أن يأكل منها شيئا، قائلا: لا أستطيع. لا تقلق عليّ.

- سأحتفظ لك بنصفها.

- حسنا. احتفظ به حتى الغد.

أخذ الكوب وابتعد فابتعد النور معه. حاول الصبي أن يصنع خيمة من المشمع لكن الرجل لم يسمح له بذلك. قال إنه لا يريد أن يغطّيه أي شـــيء. استلقى وهو يراقب الصبي عند النار. أراد أن يتمكن من الرؤية. قال: التفت حولك. لا يوجد نبي في سجل الأرض الطويــل لم يتم تكريمه هنـــا اليوم. لقد كنت محقّا بغض النظر عن الشكل الذي تحدثت عنه.

❖ ❖ ❖

اعتقد الصبي أنه شـــم رائحة رماد رطب في الهواء. ذهب إلـــى أعلى الطريق وعـــاد جارا قطعة من الخشـــب الرقائقي وجدهـــا في القمامـــة على جانب الطريـــق. غرس عصيا في الأرض مستخدما حجرا وصنع من قطعة الخشب ملجأ هشا لكـــن المطر لم يهطل فـــي نهاية الأمر. ترك المســـدس الناري وأخذ معه المسدس الآخر وراح يبحث في المناطق الريفية عن أي شـــيء يؤكل لكنه عاد فارغ اليدين. أخـــذ الرجل يده وهو يتنفس بصعوبة بالغة، قائلا: يجب أن تســـتمر في البحث. لا تعـــرف ما الذي ينتظـــرك في مكان ما. لقـــد كنا محظوظين دائما. ستكون أنت محظوظا أيضا. سترى، عليك الاستمرار، ليس إلا. لا تقلق.

- لا أستطيع.

- لا تقلق. لقد قطعنا شوطا طويلا. والآن نحن هنا. تابع مسيرك جنوبا. افعل كل شيء كما كنا نفعل تماما.

- ستكون على ما يرام يا أبي، لا بد أن تتعافى.

- لا، لن يحدث ذلك. احتفظ بالمسدس معك في كل الأوقات. ينبغي أن تجد الناس الطيبين ولكن من دون أن تخاطر. هل تسمعني؟

- أريد أن أكون معك.

- لا يمكنك ذلك.

- أرجوك.

- هذا غير ممكن. يجب أن تحمل المسدس.

- لا أعرف كيف أقوم بذلك.

- لا، إنك تعرف ذلك.

- هل هو مسدس حقيقي؟

- نعم، إنه حقيقي.

- أين هو، لا أعرف أين هو.

- لا، إنك تعرف ذلك. إنه في داخلك. لقد كان هناك دائما. أستطيع أن أراه.

- خذني معك يا أبي، أرجوك.

- لا أستطيع.

- أرجوك يا أبي.

- لا أستطيع. لا أستطيع أن أحمل ابني جثة بين ذراعي. تصورت أن ذلك ممكن لكنني لا أستطيع فعل ذلك.

- لقد قلت إنك لن تتركني وحيدا أبدا.

- أعرف ذلك. إني آسف. أنت تملك كل فؤادي. كما كنت دائما. أنت أحسن من رأيت. كما كنت دائما. إن لم أكن موجودا يمكنك التحدث معي. يمكنك التحدث معي وسأتحدث معك. سترى بنفسك.

- هل سأسمعك؟

- نعم، ستسمعني. ينبغي أن تجعل ذلك مثل الكلام الذي كنت تتخيّله. وسوف تسمعني، ينبغي أن تمارس ذلك، إياك أن تستسلم. حسنا؟

- حسنا.

- حسنا.

- إني خائف جدا يا أبي.

- أعرف هذا. لكنك ستكون بخير. ستكون محظوظا. أعرف ذلك. ينبغي عليّ التوقف عن الكلام. لقد انتابني السعال من جديد.

لا تقلق يا أبي. لا داعي أن تتكلم، لا تقلق.

❖ ❖ ❖

نزل في الطريق إلى أقصى نقطة تجرأ أن يصلها ثم عاد من حيث أتى. كان والده قد استسلم للنوم. جلس معه في ظل الملجأ الذي صنعه وأخذ يراقبه. أغمض عينيه وتحدث إليه وجعل يصغي وهو مغمض العينين. ثم حاول مرة أخرى.

استيقظ في العتمة وقد انتابته نوبة سعال خفيفة وتمدد مصغيا. كان الصبي يراقبه وقد جلس بجانب النار ولف نفسه ببطانية. تخيل ماء يقطر وضوءا يتلاشى. غشت الأحلام القديمة

عالم اليقظة. كان الماء يرشح في كهف والضوء شمعة يحملها الصبي في حلقة من النحاس المطروق وقد سال الشمع الذائب على الصخور. بدت آثار لمخلوقات غير معروفة في الرواسب الميتة. في ذلك الممر القارس البرد كانا قد وصلا إلى نقطة اللاعودة التي جرى قياسها منذ البداية فقط بالضوء الذي حملاه معهما.

- هل تتذكر ذلك الصبي الصغير يا أبي؟
- نعم، أتذكره.
- هل تعتقد أن ذلك الصبي بخير الآن؟
- ذلك من المؤكد. أعتقد أنه بخير.
- هل تعتقد أنه ضل طريقه؟
- لا، لا أعتقد أنه ضل طريقه.
- إني متخوف من أنه ضل طريقه.
- أعتقد أنه بخير.
- لكن من سيجده إن كان تائها، من سيجد الصبي الصغير؟
- الله سيحمي الصبي الصغير. هذا ما فعله دائما وهذا ما سيفعله من جديد.

نام ملتصقا بأبيه تلك الليلة، ولكن عندما استيقظ في الصباح كان ملمس أبيه باردا وجسده متصلبا. جلس ينتحب فترة طويلة ثم نهض وتمشى عبر الغابة إلى الطريق. عندما عاد جثا بجانب أبيه وضم يده الباردة إلى صدره وتلفظ باسمه مرارا وتكرارا.

قضى ثلاثة أيام ثم سار إلى الطريق ونظر على امتدادها ونظر خلفه إلى الجهة التي أتيا منها. شخص ما كان يقترب. همّ

بالاستدارة والعودة إلى داخل الغابة لكنه لم يفعل. بقي واقفا في الطريق ينتظر والمسدس في يده. لقد وضع جميع البطانيات فوق والده وقد شعر بالبرد والجوع. وقف الرجل الذي ظهر للعيان ناظرا إلى الصبي وقد ارتدى سترة للتزلج باللونين الرمادي والأصفر. كان يحمل على كتفه بندقية مقلوبة رأسا على عقب بحمال جلدي مضفر ويرتدي حزاما عريضا من النايلون معبأ بعتاد للخرطوش. بدا مظهره كمحارب من زمن المعارك الغابرة بلحية ووشم على خده وعظام قوية وعين ثاقبة. عندما تكلم لم يتحرك فمه بشكل جيد وكذلك عندما ابتسم.

- أين الرجل الذي كنت معه؟
- لقد مات.
- هل كان أباك؟
- نعم. كان أبي.
- إن ذلك محزن.
- لا أدري ماذا أفعل.
- أرى أنه ينبغي أن تأتي معي.
- هل أنت من الناس الطيبين؟

نزع الرجل القناع عن وجهه. كان شعره طويلا ومجعدا. رنا إلى السماء كما لو أنه سيرى شيئا هناك، ثم نظر إلى الصبي وقال: نعم. إني واحد منهم. لِمَ لا تبعد المسدس عني؟

- يفترض ألا أسمح لأحد أن يأخذ المسدس مني. بغض النظر عن أي شيء.
- لا أريد مسدسك. أريدك فقط ألا تصوبه نحوي.

- حسنا.
- أين متاعك؟
- ليس لدينا كثير من المتاع.
- هل لديك كيس للنوم؟
- لا. ماذا لديك، بعض البطانيات؟
- نعم ولكن أبي مغطى بها.
- أرني ذلك.

لم يتحرك الصبي. كان الرجـــل يراقبه. قرفص على ركبة واحدة وأخذ المســـدس من تحت ذراعـــه ووضعه في الطريق واتكأ على جذعه الأمامي. كانت عبوات العتاد التي اســـتقرت في ثقـــوب الحزام معبأة يدويا وقد ختمت نهاياتها بالشـــمع. انبعثـــت من الرجل رائحة دخان ناتجـــة من احتراق الحطب. انظـــر، قال مخاطبا الصبي. لديك خياران هنا. لقد ناقشـــت أمر مجيئي إليك مع نفســـي واقتنعت به أخيرا. يمكنك البقاء هنا مع أبيك الـــذي قضى لتموت معه، أو أن تذهب معي. إذا بقيـــت هنا فعليك أن تبتعد عن الطريـــق، فأنا لا أعرف كيف نجوت حتى الآن. لكن ينبغي أن تذهب معي. ســـتكون على ما يرام.

- كيف لي أن أعرف أنك من الناس الطيبين؟
- لن تعرف. عليك أن تخاطر.
- هل تحمل البندقية الآن؟
- هل أنا ماذا؟
- تحمل البندقية.

- لقد فقدت صوابك، أليس كذلك؟
- لا.
- إلى حد ما.
- كلا.
- لا بأس.
- إذن، هل ...؟
- ماذا، أحمل البندقية؟
- نعم.
- لا. كلانا يحمل السلاح.
- هل عندك أطفال؟
- نعم، عندنا.
- هل عندك صبي صغير؟
- نعم، عندنا صبي صغير وبنت صغيرة.
- كم عمره؟
- في عمرك تقريبا، وربما أكبر بقليل.
- ولم تأكلهم؟
- لا.
- أنت لا تأكل البشر؟
- نعم، نحن لا نأكل البشر.
- وأنا أستطيع الذهاب معك؟
- نعم، تستطيع.
- حسنا إذن.
- حسنا.

ذهبا إلى داخل الغابة وجلس الرجل القرفصاء ونظر إلى الشكل الرمادي القابع تحت صفيحة الخشب المائلة. هل هذه كل البطانيات التي تمتلكها؟

- نعم.

-هل تلك حقيبتك؟

- نعم.

وقف الرجل ونظر إلى الصبي وقال له: لِمَ لا تعود إلى الطريق وتنتظرني هناك؟ سأحضر البطانيات وكل شيء معي.

- ماذا عن أبي؟
- ماذا عنه.
- لا يمكننا تركه هنا هكذا.
- نعم، يمكننا.
- لا أريد أن يراه أحد.
- لا يوجد أحد ليراه.
- هل يمكن أن أغطيه بأوراق الشجر؟
- ستأخذها الرياح.
- هل يمكن أن نلفه بإحدى البطانيات؟
- سأقوم بذلك. اذهب الآن.
- حسنا.

انتظر في الطريق وعندما خرج الرجل من الغابة كان يحمل الحقيبة وقد رمى بالبطانيات على كتفه. نشرها وناول إحداها للصبي. قال: خذ هذه ولف نفسك بها فأنت تعاني من البرد. حاول الصبي أن يناوله المسدس لكنه رفض أن يأخذه، وقال له:

لا تتخل عنه أبدا.

- حسنا.
- هل تعرف كيف نستخدمه؟
- نعم.
- حسنا.
- ماذا عن أبي؟
- لم يبق شيء آخر ينبغي فعله.
- أريد أن أودّعه.
- هل تستطيع القيام بذلك بنفسك؟
- نعم.
- اذهب الآن. سأنتظرك هنا.

عاد إلى داخل الغابة وجثا بجانب والده. كان ملفوفا ببطانية كما أخبره الرجل، لم يكشف عنه لكنه جلس بجانبه ينتحب من دون توقف. بكى فترة طويلة. وبعد ذلك همس: سأتحدث إليك كل يوم، ولن أنسى ذلك بغض النظر عن كل شيء. ثم قام واستدار وعاد إلى الطريق.

عندما رأته المرأة وضعت ذراعيها حوله وضمته. قالت: آه، إني سعيدة جدا برؤيتك. كانت تتحدث معه في بعض الأحيان عن الله. حاول هو الآخر لكن أحسن الأشياء عنده كان التحدث مع والده، وكان يتحدث معه كثيرا ولم ينس وعده له. قالت المرأة إنه لا ضير في ذلك.

في يوم ما كانت أسماك السلمون تعيش في الجداول الجبلية. وكان بإمكانك أن تراها واقفة في التيار الكهرماني

حيث تتمــوج أطراف زعانفها البيضاء بنعومــة مع جريان الماء. كانــت تلمع وتنبعث منها رائحة الطحالــب وهي تتلوى في يدك بعنــف، وقد بدت على ظهورها رســوم على شــكل ديدان تمثل خرائط العالم في صيرورته. تلك كانت خرائط ودهاليز لشــيء لا يمكن إعادته ولا يمكن صنعه من جديد. في الجداول العميقة حيث عاشــت الأسماك كل الأشياء كانت أقدم من الإنسان وكان يلفها الغموض.

المترجم في سطور

أ.د. محمد علي فرغل

● من مواليد بلدة سوف - الأردن، العام ١٩٥٦.

● حاصل على شهادة اللغويات من جامعة إنديانا - بلومنجتون الأمريكية العام ١٩٨٦.

● عمل أستاذا للغويات والترجمة في جامعة اليرموك بالأردن، ثم التحق بجامعة الكويت منذ العام ٢٠٠١ حتى الآن.

● نشر عشرات الأبحاث اللغوية في المجلات العلمية الإقليمية والعالمية.

● ألف العديد من الكتب، آخرها كتاب بالإنجليزية يدور حول قضايا الترجمة بين العربية والإنجليزية.

● ترجم العديد من المجموعات القصصية والمقالات العلمية.

● حصل على جائزة عبدالحميد شومان للعلماء العرب الشباب (الأردن) في العلوم الإنسانية العام ١٩٩٣، كما حصل على جائزة الباحث المتميز في العلوم الإنسانية من جامعة الكويت العام ٢٠٠٦.

المراجع في سطور

د. أحمد عبدالرحمن البكري

● من مواليد القاهرة العام ١٩٤٠.

● حصل على الدكتوراه من جامعة لندن في اللغويات التطبيقية (قواعد اللغة الإنجليزية) العام ١٩٧٤.

● يعمل حاليا أستاذا مشاركا في كلية البريمي الجامعية بسلطنة عمان.

● له عدة أبحاث في قواعد اللغة الإنجليزية منشورة في المجلة العربية للعلوم الإنسانية التي تصدر من جامعة الكويت.

● له عدة مؤلفات في قواعد اللغة الإنجليزية للطلبة العرب، وعدة مراجعات للترجمة في سلسلة «من المسرح العالمي».

إصدارات قادمة

مختارات من القصص القصيرة الأوزبكية

تأليف: مجموعة من الأدباء الأوزبك

ترجمة وتقــيم: د. مرتـ ى سيــ عمروف

مراجعة: أ. د. نعمةالله إبراهيموف

(ترجمت عن اللغة الأوزبكية)

ما صدر من هذه السلسلة

318	نون و القلم	تأليف : جلال آل أحمد
319	سيري سامبيجي	تأليف : تشاندرا سيخار كامبار
320	أيام بورمية	تأليف : جورج أورويل
321	ست وصايا للألفية القادمة	تأليف : ايتالو كالفينو
322	السكرتير الخصوصي	تأليف : ت. س. إليوت
323	قصص برازيلية	تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين
324	شذرات من خطاب في العشق	تأليف : رولان بارت
325	لون الماء	تأليف : جيمز ماكبرايد
326	وجهان لحواء	تأليف : أمريتا بريتام
327	المنزل ذو الشرفات السبع	تأليف : اليخاندرو كاسونا
328	من الأدب الباكستاني الحديث	تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين
329	مختارات من القصة التركية المعاصرة	تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك
330	مسرحية محكمة العدل في بلخ	تأليف : بهرام بيضائي
331	مطبخ - خيالات ضوء القمر	تأليف : بنانا يوشيموتو
332	الطباخون الأشرار	تأليف : جونتر جراس
	الجرة المكسورة	تأليف : هاينرش فون كلايست
333	شمل تشابه ضائع	تأليف : أندريه شديد
334	حكايات الهنود الأمريكيين و أساطيرهم	تأليف : فلاديمير هلباتش
335	زهرة الصيف	تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين
336	طام - طام زنجي	تأليف : ليوبولد سيدار سنغور
337	اليبروح	تأليف : نيكولو ماكيافللي
338	منزل النور	تأليف : جوهر مراد
339	كثبان النمل في السافانا	تأليف : تشنوا أشيبي
340	أناتول وجنون العظمة	تأليف: أرتور شنيتسلر
341	غرام ميتيا	تأليف: إيفان بونين
342	آرنجندن والحارس الليلي	تأليف: فيمي أوسوفيسان
343	ورقة في الرياح القارسة	تأليف: تنغ - هسنغ يي
344	مدرسة الدكتاتور	تأليف: إيريش كستنر
345	رسائل عيد الميلاد	تيد هيوز
346	حكايات وخرافات أفريقية (1)	تأليف: سليمان جيغو ديوب
	الطفل الملك	
347	مسرحية عذراء أورليان	تأليف: فريدريش شيللر
348	حكايات وخرافات أفريقية (2)	تأليف: سليمان جيغو ديوب

ما صدر من هذه السلسلة

	الأدغال والسهول العشبية تحكي	
349	القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالأسبانية
350	مسرحيتا: 1- محنة الأخ جيرو 2- تحوُّل الأخ جيرو	تأليف: وول سوينكا
351	روض الأدب (مختارات قصصية)	تأليف: أو. هنري
352	مسرحية «آنتيجون»	تأليف: ب. بريشت
353	أجمل حكايات الزن	تأليف: هنري برونل
354	يتبعها فن الهايكو	
	مسرحية «المقهى»	تأليف: لاوشه
355	مسرحيتا: 1- صناعة تاريخ 2- ترجمات	تأليف: برايان فرييل
356	رواية «الشباب»	تأليف: ج. م. كويتتزي
357	مختارات من الشعر المجري المعاصر (شعراء السبعينيات)	تأليف: مجموعة من الشعراء المجريين
358	مسرحيتا: 1- تلاميذ الخوف 2- الغزاة	تأليف: إيجون وولف
359	اسمي آرام (مجموعة قصصية)	تأليف: وليام سارويان
360	حامل الإكليل (قصص مختارة)	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالألمانية
361	الصُّــورة (مسرحية)	تأليف: سيلافومير مروجيك
362	الأيـام الخمسة الأخيـرة لرسول (رواية)	تأليف: تحسين يوجل
363	سبع مسرحيات ذات فصل واحد (من بولند)	تأليف: إيرينيوش إيريدينسكي أندجي ماليشكا ستانيسلاف ليم (ستانيسواف) سوافومير مروچيك
364	سبع نساء... سبع قصص	تأليف: مجموعة من القاصات الفارسيات
365	زمن الضحك (ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول)	تأليف: نويل كاورد
366	بالأبيض على الأسود (رواية)	تـألـيـف: رُوبــين دايـڤـيـد غونساليس غاليغو
367	مسرحيتا: 1- سهرة في المقهى 2- موت ممثل مشهور	تأليف: تيان هان
368	إمرأة وحيدة «فروغ فرخزاد وأشعارها» سيرة حياة	تأليف: مايكل هلمان

ما صدر من هذه السلسلة

369	«الملاح» (مسرحية من الأدب البولندي)	تأليف: ييجى شانيافسكي
370	ليلة التنبؤ (رواية)	تأليف: بول أوستر
371	هذا الجيل المحظوظ (مسرحية)	تأليف: نويل كاورد
372	لا وجود لخصومات صغيرة	تأليف: أمادو همباطي با
373	الليلة التي أمضاها ثورو في السجن (مسرحية)	تأليف: جيروم لورنس وروبرت إي. لي
374	مختارات من الشعر الإيراني الحديث	تأليف: مجموعة من الشعراء الإيرانيين
375	العقرب وقصص أخرى (الجزء الأول)	تأليف: بول بولز
376	العقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني)	تأليف: بول بولز
377	«الأسيرة» (مختارات من ديوان شعر)	تأليف: فُروغ فرخزاد
378	شارع بريك لين (الجزء الأول)	تأليف: مونيكا علي
379	شارع بريك لين (الجزء الثاني)	تأليف: مونيكا علي

قسيمة الاشتراك

البيان	إبداعات عالمية		مجلة الثقافة العالمية		مجلة عالم الفكر		سلسلة عالم المعرفة	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار
المؤسسات داخل الكويت	٢٠	–	١٢	–	١٢	–	٢٥	–
الأفراد داخل الكويت	١٠	–	٦	–	٦	–	١٥	–
المؤسسات في دول الخليج العربي	٢٤	–	١٦	–	١٦	–	٣٠	–
الأفراد في دول الخليج العربي	١٢	–	٨	–	٨	–	١٧	–
المؤسسات في الدول العربية الأخرى	–	٥٠	–	٣٠	–	٢٠	–	٥٠
الأفراد في الدول العربية الأخرى	–	٢٥	–	١٥	–	١٠	–	٢٥
المؤسسات خارج الوطن العربي	–	١٠٠	–	٥٠	–	٤٠	–	١٠٠
الأفراد خارج الوطن العربي	–	٥٠	–	٢٥	–	٢٠	–	٥٠

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك ☐ تجديد اشتراك ☐

الاسم:	
العنوان:	
اسم المطبوعة:	**مدة الاشتراك:**
المبلغ المرسل:	**نقداً/ شيك رقم:**
التوقيع:	**التاريخ: / / ٢٠٠م**

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة سداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت.

وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص.ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147

دولة الكويت

أسماء وكلاء التوزيع

الكويت:
شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع
الشويخ – المنطقة التجارية الحرة – شارع الموفنبيك –
مبنى رقم D14 الدور الأول
ص. ب ٢٩١٢٦ – الرمز البريدي ١٣١٥٠
ت ٠٠٩٦٥٢٤٦١٣٥٣٥ فاكس ٠٠٩٦٥٢٤٦١٣٥٣٦

الإمارات:
شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع
دبي، ت: ٩٧١٤٢٦٦٦١١٥ – فاكس: ٢٦٦٦١٢٦
ص. ب ٦٠٤٩٩ دبي

السعودية:
الشركة السعودية للتوزيع
الإدارة العامة – شارع الملك فهد (الستين سابقا) – ص. ب ١٣١٩٥
جدة ٢١٤٩٣ ت ٦٥٣٠٩٠٩ – فاكس ٦٥٣٣١٩١

سورية:
المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
سوريا – دمشق ص.ب (٩٦٣١)١٢٠٣٥
ت – ٢١٢٧٧٩٧ فاكس ٢١٢٢٥٣٢

مصر:
دار الأخبار للتوزيع
شارع الجلاء رقم ٦ – القاهرة
ت – ٥٨٠٦٤٠٠ فاكس ٥٧٨٢٦٣٢

المغرب:
الشركة العربية الأفريقية للتوزيع والنشر والصحافة (سبريس)
زنقة سجلماسة الدار البيضاء ٧٠
ت ٢٢٢٤٩٢٠٠ فاكس (٢١٢) ٢٢٢٤٩٢١٤

تونس:
الشركة التونسية للصحافة
تونس – ص. ب ٤٤٢٢
ت – ٣٢٢٤٩٩ فاكس – ٣٢٣٠٠٤ (٢١٦٧١)

لبنان:
شركة الشرق الأوسط للتوزيع
ص. ب ١١/٦٤٠٠ بيروت ١١٠٠١/٢٢٢٠
ت – ٤٨٧٩٩٩ فاكس – (٩٦١١) ٤٨٨٨٨٢

اليمن:
القائد للتوزيع والنشر – ص. ب ٣٠٨٤
ت – ٣/٢/٣٢٠١٩٠١ فاكس (٩٦٧) ٧/٣٢٠١٩٠٩

الأردن:
وكالة التوزيع الأردنية
عمان ص.ب ٣٧٥ عمان – ١١١١٨
ت – ٥٣٥٨٨٥٥ فاكس (٩٦٢٦) ٥٣٣٧٧٣٣

البحرين:
مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف
ص. ب ٢٢٤/ المنامة – البحرين
ت ٢٩٤٠٠٠ – فاكس (٩٧٣) ٢٩٠٥٨٠

عمان:
المتحدة لخدمة وسائل الإعلام
مسقط ص. ب ٣٣٠٥ – روي الرمز البريدي ١١٢
ت ٧٠٠٨٩٦ – ٧٨٨٣٤٤ فاكس ٧٠٦٥١٢

قطر:
دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع
الدوحة ص. ب ٣٤٨٨ – قطر
ت ٤٦٦١٦٩٥ فاكس (٩٧٤) ٤٦٦١٨٦٥

فلسطين:
وكالة الشرق الأوسط للتوزيع
القدس/ شارع صلاح الدين ١٩
ص. ب ١٩٠٩٨ ت ٢٣٤٣٩٥٤ فاكس ٢٣٤٣٩٥٥

السودان:
مركز الدراسات السودانية
الخرطوم ص. ب ١٤٤١ ت ٤٨٨٦٣١ (٢٤٩١١)
فاكس ٣٦٢١٥٩ (٢٤٩١٣)

نيويورك:
MEDIA MARKETING RESEARCHING
25 - 2551 SI AVENUE LONG ISLAND CITY
NY - 11101 TEL - 4725488
FAX 1718 - 4725493

لندن:
UNIVERSAL PRESS لله MARKETING LIMITED
POWER ROAD. LONDON W 4SPY
TEL 020 8742 3344
FAX: 2081421280

سلسلة إبداعات عالمية

«إبداعات عالمية» سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، وكانت في السابق تصدر - شهريا - عن وزارة الإعلام تحت اسم سلسلة «من المسرح العالمي» حتى بعد انضمامها إلى المجلس الوطني عام ١٩٩٤، وكانت تعنى بنشر المسرحيات العالمية فقط.

وقد صدر العدد الأول من سلسلة «من المسرح العالمي» في أكتوبر ١٩٦٩، تحت عنوان مسرحية «سمك عسير الهضم»، تأليف: مانويل جاليتش، وبعد تغيير مسماها إلى سلسلة إبداعات عالمية عام ١٩٩٨، أصبحت تعنى بنشر الترجمات الإبداعية الراقية من لغات مختلفة، وتنطلق أهداف السلسلة (إبداعات عالمية) من فلسفتها في نشر الوعي الثقافي القائم على التراث الإنساني، من خلال نشر وتقديم ترجمات رصينة من الآداب العالمية، من روايات وقصص قصيرة ودواوين شعر ومسرحيات... وغيرها، من لغاتها الأصلية، بهدف تزويد المكتبة العربية بآثار هذه الثقافات المختلفة.

وترحب السلسلة باقتراحات النشر والترجمة المقدمة من المتخصصين، على أن تكون وفق الشروط التالية:

١- أن تكون المادة المقترح ترجمتها مميزة في المستوى الفكري والأدبي الرفيع، ولم يسبق نشرها في أي مكان آخر.

٢- يجب ألا يزيد حجم المادة على ٣٥٠ صفحة من القطع المتوسط، وأن تكون مصحوبة بنبذة وافية عن الكتاب وموضوعاته وأهميته ومدى جدواه.

٣- يجب تقديم النص الأدبي المقترح نشره، أو ترجمته مع الكتاب في لغته الأصلية، ويرسل مطبوعاً على الآلة الكاتبة مع وضع نسخة من النص المترجم في ديسك أو CD، مع تدوين أرقام صفحات الكتاب الأصلي المقابلة للنص المترجم على جانب الصفحة المترجمة.

٤- السلسلة غير مسؤولة عن إعادة الكتب الأجنبية والنصوص الأصلية أو المترجمة التي لا يتم قبولها.

٥- المواد المقدمة للنشر أو الترجمة تخضع للتحكيم العلمي على نحو سري من قبل هيئة تحرير السلسلة، ويجري إرجاع النصوص إلى أصحابها لإجراء التعديلات أو الإضافات اللازمة عليها قبل نشرها، كما يجب ألا تحتوي النصوص على عبارات منافية للدين أو الأخلاق.

وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع المترجم للنشر تصرف مكافأة للمترجم بمعدل ٢٠ فلسا عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي.

وفي جميع الحالات ينبغي إرسال سيرة ذاتية وافية (C.V) للمترجم، تتضمن البيانات الرئيسية عن نشاطه الأدبي السابق، وعنوان المراسلة التقليدي والإلكتروني، واسمه الثلاثي باللغة الإنجليزية حسب جواز سفره، بالإضافة إلى كتابة اسم البنك الذي يتعامل معه ورقم حسابه الذي ستحول المكافأة عليه.

المجلس
الوطني
للثقافة
والفنون
والآداب

الفهرس

الطريق (رواية)

نقدم في هذا العدد إلى القارئ الكريم رواية رائعة ومميزة من أروع ما كتب الكاتب المسرحي والروائي الأمريكي كورماك مكارثي (١٩٣٣)، الذي حصد كثيرا من الجوائز المرموقة على الساحة الأدبية الأمريكية.

عنوان هذه الرواية هو «الطريق»، وقد فازت بجائزة «بليتزر» من جامعة كولومبيا في العام ٢٠٠٩، وتُصنَّف ضمن أدب الخيال العلمي ويُعكف حاليا على إنتاجها سينمائيا.

تصف رواية «الطريق» الحياة البدائية التي تعقب تعرض كوكب الأرض لكارثة ما، تودي بمعظم أشكال الحياة عليه، وتتحدث عن المشهد الرمادي الكئيب الذي يعقب الكارثة. وفي وسط هذا المشهد الكارثي ينطلق الأب وابنه الصغير - وقد نجوا من الموت في عالم لا تفوح منه إلا رائحة الموت والدمار - في رحلة بحث عن الطعام للبقاء على قيد الحياة.

إنها رواية عن شخصيتين - الأب وابنه - تسرد في معظمها بشكل متأن حابس للأنفاس الأهوال التي مرا بها في عالم فقد الزرع والضرع، ولم ينج من الكارثة التي حلت به سوى عدد قليل من الناس، الذين تحوَّل جلهم إلى مجموعات من قُطَّاع الطرق واللصوص، الذين ينتقلون من مكان إلى آخر بحثا عن الغذاء، الذي شكل اللحم البشري معظمه.

توقف الراوي في أثناء رحلة الأب وابنه في وصفه الأحداث والأماكن التي مرا بها عند أدق التفاصيل، حيث أطلع القارئ على جزئيات قلما يلتفت إليها كُتَّاب الرواية. وفي خضم الموت والأهوال والخراب تبرز العلاقة الإنسانية الحميمة بين الأب وابنه. ومن الملاحظ أن رواية «الطريق» تطرح بعض القضايا المهمة، مثل قضية الحياة والموت، وقضية الخير والشر.

وفي النهاية، يمكن وصف أسلوب الرواية الذي اتبعه الكاتب كورماك بالسهل الممتنع، فقد أظهر مكارثي مهارته وبراعته في فن السرد على مستويين مختلفين من حيث الشكل والمحتوى، لذلك فإن هذه الرواية لن يستطيع القارئ أن يتوقف عن قراءتها بمجرد أن يبدأها، ولا بد له من أن يستسلم للبكاء أو أن يذرف دمعة على الأقل عندما يقترب من نهايتها.

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٠٣٥
ردمك: ٣-٢٩١-٠-٩٩٩٠٦